

بقلم

أبي عبد الله

محمد بن سعيد بن رسلان

طبعة جديدة ومزيدة ومنقحة



بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّ الحمدَ للَّهِ، نحمدُهُ ونستعينُهُ ونستغفرُهُ، ونعوذُ باللَّهِ مِنْ شُرُورِ أنفسنا وسيئاتِ أعمالنا، مَنْ يهده اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضلِلْ فلا هَادِي لَهُ، وأشهدُ أن لا إله إلا اللَّهُ وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ مُحمدًا عبدُهُ ورسولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أمَّا بعدُ:

فَإِنَّ أَصدقَ الحديثِ كتابُ اللَّهِ، وخيرَ الهدي هديُ محمدٍ ﷺ، وشَرَّ الأمورِ مُحْدَثَاتُها، وكلَّ مُحْدَثَةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ، وكلَّ ضلالةٍ في النَّارِ.

أمَّا بعدُ:

فَإِنَّ من حكمةِ اللَّهِ تعالى في كونِهِ: أن جعلَ دون الشيءِ النفيسِ عقباتٍ تتحطَّمُ دونَها الأهواءُ، فلا يَخْلُصَ إليه إلا مَنْ جاهدَ وصَبَرَ.

والجنَّةُ أكبرُ ما تُؤمِّلُهُ النَّفْسُ، وأعظمُ ما تَهْفُو إليه الروحُ، فكان حتمًا أَن تُحَفَّ بالشهواتِ التي تَصرفُ عنها وتَقطعُ دونَها، حتى إذا تَقَحَّمَتِ النَّفْسُ لُجَجَ الحِرْمَانِ، وامتطتْ صَهْوَةَ الصَّبرِ، وتَشَبَّثَتْ بقوائمِ الثباتِ، وتمسَّكتْ بعزائمِ الجِدِّ، كان لها إلى الجنَّةِ يومًا وصولٌ وأيُّ وصولٍ.

قال اللَّه تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ

مَسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

وقال تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١، ١٤٢].

وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١، ٢].

ومن جوامع كَلِمِ النبيِّ ﷺ في هذا المعنى ما رواه البخاريُّ رحمه الله بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قالَ: قالَ رسولُ اللَّه ﷺ: «**حُجِبَتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ، وَحُجِبَتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ**»[1].

وأخرج مسلمٌ رحمه الله بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه قالَ: قالَ رسول اللَّه ﷺ: «**حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بالشهَوَاتِ**»[2].

«**حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ**»: هكذا رواه مسلمٌ: «**حُفَّت**». ووقع في البخاريِّ: «**حُجِبَت**». ووقع فيه أيضًا: «**حُفَّت**». وكلاهما صحيحٌ.

قال العلماءُ: هذا من بديعِ الكلامِ وفصيحِهِ وجوامِعِه التي أُوتيها ﷺ، من التمثيلِ الحَسَنِ، ومعناه: لا يُوصل إلى الجَنَّة إلا بارتكابِ المكاره، ولا إلى النَّارِ إلا بالشَّهواتِ، وكذلك هما محجوبتان بهما، فَمَنْ هَتَكَ الْحِجَابِ وَصَلَ إلى المحجوبِ، فَهَتْكُ حجَابِ الجَنَّةِ باقتحامِ المكارِه، وَهَتْكُ حِجَابِ النَّارِ بارتكاب الشهواتِ[3].

قال الحافظُ ابن حجر رحمه الله: «هذا الحديثُ من جوامِعِ كَلِمِهِ ﷺ وبديع بلاغتِهِ في ذَمِّ الشهواتِ وإن مالت إليها النفوسُ، والحَضِّ على الطاعاتِ وإن كرهتها النفوسُ وشَقَّ عليها.

وقد وردَ إيضاحُ ذلك من وجهٍ آخرَ عن أبي هريرةَ؛ فأخرج أبو داود والترمذيُّ

(١) صحيح البخاري: نشرة د. مصطفى ديب البغا (٦١٢٢).
(٢) صحيح مسلم (٢٨٢٢).
(٣) تعليق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي، على «صحيح مسلم». [صحيح مسلم (٤/ ٢١٧٤)].

والنَّسَائِيُّ وابنُ حِبَّانَ والحاكمُ من وجهٍ آخرَ عن أبي هُرَيْرَةَ رَفَعَهُ: «**لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْجَنَّةَ وَالنَّار أَرْسَلَ جِبْرِيلَ إِلَى الْجَنَّةِ فَقَالَ: انْظُرْ إليهَا**». قال: «**فَرَجَعَ إِلَيهِ فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إلا دَخَلَهَا، فَأَمَرَ بِهَا فَحُفَّتْ بِالْمَكَارِهِ، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَيْهَا، فَرَجَعَ فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خِفْتُ أَلَّا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ، قَالَ: اذْهَبْ إِلَى النَّارِ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَرَجَعَ فَقَالَ: وَعَزَّتِكَ لا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ فَيَدْخُلَهَا، فَأَمَرَ بِهَا فَحُفَّتْ بالشَّهَوَاتِ، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَيْهَا، فَرَجَعَ فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَلَّا يَنْجُو مِنْهَا أَحَدٌ**»[١].

فهذا يفسِّرُ روايةَ الأعرجِ[٢]، فإنَّ المرادَ بالمكارِهِ هنا: ما أُمِرَ المكلَّفُ بمجاهدةِ نفسِهِ فيه فعلًا وتركًا، كالإتيانِ بالعباداتِ على وجهِهَا والمحافظةِ عليها واجتنابِ المنهيَّاتِ قولًا وفعلًا، وأطلقَ عليها المكاره لمشقَّتها على العامل وصعوبتِهَا عليه، ومن جملتها الصبرُ على المصيبةِ والتسليمُ لأمرِ اللَّهِ فيها، والمرادُ بالشهواتِ ما يُسْتَلَذُّ من أمور الدنيا ممَّا مَنَعَ الشَّرْعُ من تعاطيه إمَّا بالأصالةِ وإمَّا لكونِ فِعْلِهِ يستلزِمُ تركَ شيءٍ من المأموراتِ، ويلتحقُ بذلك الشبهاتُ والإكثارُ ممَّا أُبيحَ خشيةَ أن يُوقِعَ في المحرَّمِ، فكأنَّه قال: لا يُوصَلُ إلى الجنَّةِ إلا بارتكابِ المشقَّاتِ المعبَّرِ عنها بالمكارهِ، ولا إلى النَّارِ إلا بتعاطي الشهواتِ، وهما محجوبتان فَمَنْ هَتَكَ الْحِجَابَ اقتَحَمَ»[٣].

وقال النوويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال العلماءُ: هذا من بديعِ الكلامِ وفصيحِهِ وجوامِعِهِ التي أُوتيها ﷺ من التمثيلِ الحَسَنِ، ومعناه: لا يُوصل إلى الجنَّة إلا بارتكابِ المكاره، ولا يُوصل إلى النَّار إلا بالشهواتِ، وكذلك هما محجوبتان بهما، فَمَنْ هَتَكَ الحِجَابَ وَصَلَ إلى المحجوبِ، فَهَتْكُ حجابِ الجنَّةِ باقتحامِ المكارهِ، وهَتْكُ حِجَابِ النَّارِ بارتكاب الشهواتِ، فَأَمَّا المكارهُ فيدخلُ فيها الاجتهادُ في العباداتِ والمواظبةُ عليها والصبرُ

---

(١) أخرجه أحمد (١٦/ ٢٦٥، ٨٦٣٣)، وأبو داود (٤٧٤٤)، وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٣/ ١٦١)، والنسائي (٣٧٦٣)، وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن النسائي» (٢/ ٧٩٧)، والترمذي (٢٥٦٠)، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ «سنن الترمذي» (٤/ ٥٩٨).

(٢) يريد روايةَ البخاري، فقد أخرج الحديثَ في «صحيحه» من طريق أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة رضي الله عنه، يرفعه. «صحيح البخاري» نشرة د. مصطفى البغا (٥/ ٢٣٧٩).

(٣) «فتح الباري بشرح صحيح البخاري» لابن حجر (١١/ ٣٢٧).

على مشاقِّها، وكَظْمُ الغيظِ، والعفوُ، والحِلْمُ، والصدقةُ، والإحسانُ إلى المسيءِ، والصبرُ عن الشهواتِ المحرَّمةِ؛ كالخمرِ، والزِّنَا، والنظرِ إلى الأجنبيَّةِ، والغِيبَةِ، واستعمال الملاهي ونحو ذلك.

وأمَّا الشَّهَوَاتُ المبَاحَةُ فلا تدخُلُ في هذه، لكنْ يُكْرَهُ الإكثارُ منها مَخَافَةَ أن يَجُرَّ إلى المحرَّمَة، أو يُقَسِّيَ القلبَ، أو يشغلَ عن الطاعاتِ، أو يُحْوِجَ إلى الاعتناءِ بتحصيلِ الدنيا ونحو ذلك»[١].

فالجنَّةُ محفوفةٌ بالمكارهِ، وما وصَّلَ إليها من قولٍ أو عملٍ محفوفٌ -أيضًا- بما يُكرهُ، والعملُ الصالحُ مشقَّتُهُ ليست فيه من حيثُ هو، وإنَّما في تخليصِهِ وتنقيته ممَّا يفسدُه على عاملِهِ ومبتغيه، وهذا أشقُّ ما يلقاه العاملُ في عملِهِ.

ولما كانت مداخلُ الشيطانِ في العملِ تتفاوتُ على مقدارِ فضلِهِ وقَدْرِ ثمرَتِهِ، كانت مداخلُ الشيطانِ في العلمِ أكثرَ من أن تُحصى وأبعدَ من أن تستقصى؛ إذ العلمُ هو أفضلُ الأعمالِ قاطبةً.

قال الغَزَّالِيُّ -هو أبو حامدٍ- رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأعظمُ الأشياءِ رُتبةً في حقِّ الآدميِّ: السعادةُ الأبديَّةُ وأفضلُ الأشياء ما هو وسيلةٌ إليها، ولن يُتَوَصَّلَ إليها إلا بالعلمِ والعملِ، ولا يُتَوَصَّلُ إلى العملِ إلا بالعلمِ بكيفيَّةِ العملِ، فأصلُ السعادةِ في الدنيا والآخرةِ هو العلمُ، فهو -إذن- أفضلُ الأعمالِ»[٢].

وإذن؛ فسبيلُ العلمِ محفوفةٌ بالمكارهِ والمشاقِّ، ومداخلُ الشيطانِ فيه لا يُحصيها إلا اللَّه تعالى، فمنها ما يُفسدُ العلمَ ذاتَه على صاحبِهِ، ومنها ما يُفسدُ القَصدَ والإرادةَ فيه، ومنها ما يُفسدُ سبيلَ الطَّلَبِ، والنَّاجي مَنْ عصمه اللَّهُ تعالى.

لذلك ينبغي لطالبِ العلمِ أن يلتفتَ إلى دَرْسِ الآفاتِ التي تَعْرِضُ للعلم فتفسدُهُ، أو تُفسِدُ سبيلَ الطَّلَبِ على طالبِهِ، أو تُفسِدُ القصدَ والإرادةَ والنيَّةَ فيهِ، حتَّى لا يُلِمَّ شيءٌ منها به.

---

(١) «شرح النووي على صحيح مسلم» (١٧/ ١٦٥).
(٢) «إحياء علوم الدين» لأبي حامد الغزالي (١/ ١٢).

والحقُّ أنَّ كثيرًا مِنْ هذه الآفاتِ قد نفَّرَ الشرعُ مِنْهُ، ورغَّبَ الدينُ عَنْهُ، عَلَى إطلاقٍ، وإنَّما ازدَادَ تنفيرُ الشرع مِنْهُ، وعَظُمَ تَرغيبُ الدين عَنْهُ -حالَ تعلُّقِ شيءٍ مِنْهُ بالعلم- لأنَّ العلمَ هو مَا هو في دينِ اللَّهِ ربِّ العالمين؛ هو عصمةٌ مِنْ هذه الأدواءِ، فكيف إذا أصبحَ عَينَ الدَّاءِ؟! وَهُوَ حاجِزٌ عَنِ الوقوعِ في مثلِ هذه الأهواءِ، فكيف إذا اتُّخِذَ مطيَّةً للبلاءِ؟!

وإليك أسوقُ -أخي- بعضَ تلك الآفاتِ وبعضَ ما ورد في التحذير منها، والتَّرغيب عَنْهَا، وأسألُ اللَّهَ العظيمَ بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى وصِفَاتِهِ الْمُثْلَى أن يُطَهِّرَني وإيَّاكَ منها ظاهرًا وباطنًا، ومَظْهَرًا ومَخْبَرًا، إنَّه وَلِيُّ ذلك وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

* * *

١- تَعَلُّمُ الْعِلْمِ لِغَيْرِ وَجْهِ اللَّهِ تَعَالى

ذَمَّ اللَّه تعالى مَنْ أرادَ بِعملِهِ غيرَ وجههِ الكريم، وبيَّنَ في مواضع كثيرةٍ من كتابهِ العزيز أنَّه لا ثوابَ له عنده، وأنَّه يَكِلُهُ للذي أشركَ، واللَّهُ عَجَّلَ طَيِّبٌ لا يقبلُ من العملِ إلا ما كان طَيِّبًا وأُريدَ بهِ وَجهُهُ الكريمُ.

قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٨، ١٩].

قَالَ الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾: المنفعةَ العاجلةَ أو الدارَ العاجلةَ، أي: مَنْ كَانَ يريد بأعمالِ البرِّ أو بأعمالِ الآخرةِ ذلك ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا﴾ أي: في تلك العاجلة. ﴿مَا نَشَآءُ﴾ نحن، لا ما يشاؤه ذلك المريد. ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾، أي: لمن نريد التعجيلَ لَهُ منهم، فلا يحصل لمن أراد العاجلةَ ما يَشاؤه إلا إذَا أراد اللَّهُ لَهُ ذلك [فكم مِنْ عاملٍ لها ناصبٍ يموت بحسرته عليها] ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ﴾، بسبب تركه لما أُمر بِهِ مِن العملِ للآخرةِ. ﴿يَصْلَىٰهَا﴾ أي: يدخلها، ﴿مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾، أي: مطرودًا مِنْ رحمةِ اللَّهِ مُبْعَدًا عنها. ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ﴾، أي: أراد بأعماله الدارَ الآخرة. ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾، أي: السعيَ اللائقَ بطالبها عَلَى القانون الشرعي، دون ابتداع وَلا هوًى. ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ باللَّه إيمانًا صحيحًا. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾، عِنْدَ اللَّهِ: أي: مقبولًا غيرَ مردودٍ»(١).

وقال القاسميُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: مَنْ كَانَ طلبُهُ الدنيا العاجلة، ولها يعمل ويسعى، وإيَّاها يبتغي، لا يُوقن بمعادٍ وَلا يرجو ثوابًا وَلا عقابًا مِنْ ربِّه عَلَى عملِهِ، عجَّلْنا لَهُ فيها مَا

(١) «زُبدة التفسير من فتح القدير» للشوكاني. اختصار د. محمد سليمان الأشقر (ص٣٦٦).

نَشاء لمن نريد؛ أي: مَا نشاؤُهُ مِنْ بَسْطِ الدنيا عَلَيْهِ أَوْ تقتيرها لِمَنْ أراد اللَّهُ أن يفعل بِهِ ذلك، أو مِنْ إهلاكِهِ بما يشاء تعالى مِنْ عقوبَاتِهِ المعجَّلَةِ، ثُمَّ يَصْلَى جهنَّم في الآخرةِ مذمومًا عَلَى قِلَّةِ شكره لمولاه، وسوءِ صنيعِهِ فيما سلَفَ لَهُ، مدحورًا مطرودًا مِنَ الرحمةِ، مُبْعَدًا مقْصِيًّا في النَّارِ.

ومَنْ أراد الآخرةَ، وإيَّاهَا طَلَبَ، ولها عَمِلَ عملها الَّذِي هو طاعةُ اللَّهِ وما يرضيه عَنْهُ، فأولئك كَانَ عملُهم مشكورًا بحُسْنِ الجزاء»[1].

وتأمَّل قولَه تعالى: ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ لم يَقُلْ: عجلنا لَهُ مَا يشاء!! بل قَالَ: ﴿مَا نَشَآءُ﴾، أي: لا مَا يشاءُ هو، ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾، لا لكُلِّ إنسانٍ، فقيَّدَ المعجَّلَ والمعجَّلَ لَهُ.

وأمَّا قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]. **فقد قَالَ السعديُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَالَ تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ﴾، أي: أَجْرَهَا وثوابَهَا فآمن بها وصدَّقَ وسعى لها سعيها، ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾، بأن نضاعف عملَهُ وجزاءَهُ أضعافًا كثيرةً، كما قَالَ تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩]. ومع ذلك فنصيبُهُ مِن الدنيا لابُدَّ أن يأتيَهُ.

﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا﴾، بأن كانت الدنيا هي مقصودَهُ، وغايةَ مطلوبِهِ، فلم يُقَدِّمْ لآخرتِهِ، وَلا رجا ثوابَهَا، ولم يَخْشَ عقابَهَا، ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ نصيبَهُ الَّذي قُسِمَ لَهُ، ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾، قد حُرِمَ الجنَّةَ ونعيمَهَا، واستحقَّ النَّارَ وجحيمَهَا»[2].

عَنْ أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**قَالَ اللَّهُ تعالى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**». رواه مسلمٌ (**٢٩٨٢**). وفي رواية ابن ماجه: «**فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ، وَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ**». رواه ابن ماجه (**٤٢٠٢**)،

(١) «محاسن التأويل» للقاسمي (٦/ ٤٥٢).
(٢) «تيسير الكريم الرحمن» للسعدي (ص٧٠٢).

وقال البوصيري: إسنادُهُ صحيحٌ، رجالهُ ثقاتٌ. وصحَّحَه الألبانيُّ في: «صحيح سنن ابن ماجه» (٢/ ٤٠٩).

وعن أبي سَعْد بن أبي فَضَالَةَ الأنصاريِّ ﷺ -وكان من الصحابة- قَالَ: قَالَ رسولُ اللَّه ﷺ: «**إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الأوَّلِينَ والآخِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ، نَادَى مُنَادٍ: مَنْ كَانَ أَشْرَكَ فِي عَمَلٍ عَمِلَهُ للَّهِ، فَلْيَطْلُبْ ثَوَابَهُ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ**». رواه ابن ماجه (٤٢٠٣)، وحسَّنه الألبانيُّ في: «صحيح سنن ابن ماجه» (٢/ ٤١٠).

وعن زيد بن ثابت ﷺ قال: سَمِعْتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقول: «**مَنْ كَانَت الدُّنْيَا هَمَّهُ فَرَّقَ اللَّهُ عليْهِ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِن الدُّنْيَا إلا مَا كَتَبَ لَهُ، وَمَن كَانَتِ الْآخِرَةُ نِيَّتَهُ جَمَعَ اللَّهُ لَهُ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِه، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهي رَاغِمَةٌ**». أخرجه ابنُ ماجه (٤١٠٥)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح سنن ابن ماجه» (٢/ ٣٩٣)، وقال في «السلسلة الصحيحة» (٩٥٠): هَذَا إسنادٌ صحيحٌ، رجالُهُ ثقاتٌ، كما قَالَ البوصيري في «الزوائد».

وقد ذَمَّ اللَّهُ تعالى الرِّيَاءَ في كتابِهِ فقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٤- ٧].

وقال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

وحذَّر النبيُّ ﷺ من الرياءِ تحذيرًا شديدًا، يُنَفِّرُ منه وَيَصْرِفُ عنه مَنْ كان له قلبٌ أو ألقى السَّمْعَ وهو شهيدٌ.

وممَّا وردَ في ذلك قولُه ﷺ فيما أخرجه الشيخانِ عن جُنْدُبِ بنِ عبدِ اللَّهِ ﷺ قال: قال رسولُ اللَّه ﷺ: «**مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللَّهُ بِهِ، وَمَنْ يُرَائي يُرَائي اللَّهُ بِهِ**»[1].

---

(١) «البخاري» (٦١٣٤)، و «مسلم» (٢٣٨٧).

«وسمَّعَ» هو بتشديد الميم، ومعناه: مَنْ أظهر عملَه للناسِ رياءً، أظهر اللَّهُ نيَّته الفاسدة في عمله يوم القيامةِ، وفضحه على رءوسِ الأشهادِ.

وعن عبد اللَّه بن عمرو رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسولَ اللَّهِ يقول: «**مَنْ سَمَّعَ النَّاسَ بِعَمَلِهِ، سَمَّعَ اللَّه بِهِ مَسَامِعَ خَلْقِهِ، وَصَغَّرَهُ وَحَقَّرَهُ**». قال المنذريُّ رحمه الله: رواه الطبراني في «الكبير» بأسانيد أحدُها صحيحٌ، والبيهقيُّ. وقال الألبانيُّ: أخرجه أحمدُ أيضًا. وصحَّحَ الألبانيُّ الحديثَ في: «صحيح الترغيب والترهيب»[(١)].

وعن عَوْفِ بْنِ مَالكٍ الأَشْجَعِيِّ رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقول: «**مَنْ قَامَ مَقامَ رِيَاءٍ رَاءى اللَّهُ بِهِ، ومَن قَامَ مَقامَ سُمْعَةٍ سَمَّعَ اللَّهُ بِهِ**». قال المنذريُّ: رواه الطبراني بإسنادٍ حسنٍ، وصحَّحَه الألبانيُّ[(٢)].

وعن معاذِ بنِ جبلٍ رضي الله عنه عن رسولِ اللَّهِ ﷺ قال: «**مَا مِنْ عَبْدٍ يقوم في الدُّنيا مَقامَ سُمْعَةٍ ورِيَاءٍ، إلا سمَّعَ اللَّهُ بهِ على رءُوسِ الخلائِقِ يومَ القيامةِ**». قال المنذريُّ: رواه الطبرانيُّ بإسنادٍ حسنٍ. وصحَّحه الألبانيُّ[(٣)].

قال الغَزَّالِي رحمه الله: «اعلم أنَّ الرياءَ مشتقٌّ من الرؤْيةِ، والسُّمْعَةَ مشتقَّةٌ من السَّمَاعِ.

وإنما الرياءُ أصلُهُ طلبُ المنزلةِ في قلوب الناسِ بإيرائِهم خصالَ الخيرِ، إلا أنَّ الجَاهَ والمنزلة تُطلبُ في القلب بأعمالٍ سوى العبادات، وتُطلبُ بالعبادات.

واسمُ الرياءِ مخصوصٌ بحكمِ العادةِ بطلبِ المنزلةِ في القلوبِ بالعباداتِ وإظهارِها.

فالْمُرائِي هو العابِدُ، والمراءَى هو النَّاسُ المطلوبُ رؤيتهم بطلب المنزلة في قلوبهم، والمراءَى به هو الخصالُ التي قَصَدَ المرائِي إظهارَها، والرياءُ هو قَصدُهُ إظهار ذلك»[(٤)].

---

(١) «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ١١٧)، والحديث أخرجه أحمد في «المسند» (٦٥٠٩، ٦٩٨٦، ٧٠٨٥) طبعة الشيخ شاكر.

(٢) «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ١١٨).

(٣) «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ١١٨).

(٤) «تهذيب إحياء علوم الدين» للأستاذ عبد السلام هارون (٢/ ١١٣).

وقال الخطيبُ البغداديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ينبغي لِمَنِ اتَّسَعَ وقتُه، وأصلح اللَّهُ له جسمَهُ، وحبَّب إليه الخروجَ عن طبقةِ الجاهلين، وألقى في قلبِه العزيمةَ على التفقُّهِ في الدين أن يغتنمَ المبَادَرَةَ إلى ذلك خوفًا من حدوثِ أمر يقطعه عنه، وتجدُّدِ حالٍ تمنعه منه.

ولْيَسْتَعْمِلِ الجِدَّ في أمرِه وإخلاصَ النية في قصدِهِ، والرغبَةَ إلى اللَّهِ في أن يرزقَهُ علمًا يوفِّقه فيه، ويعيذَه من علمٍ لا ينتفعُ به.

ولْيَحْذَر أن يكونَ قَصدُه فيما يطلب: المجادلَة به، والمماراةَ فيه، وصرفَ الهممِ إليه، وأخذَ الأعواضِ عليه»[١].

ولو أنَّ الأمرَ مَرَّ كَفَافًا لا له ولا عليه، لكان هيِّنًا وكان مُحْتَمَلًا، ولكنَّ العقابَ مُرٌّ أليمٌ، والعذابَ مهينٌ عظيمٌ.

وهاك صوتَ النبيِّ ﷺ يتحدَّرُ إلى الأسماعِ في ظلال وندًى، يرشدُ ويحذِّرُ، ويوضِّحُ ويُذَكِّرُ فهل من مُتذكِّرٍ؟!

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ اللَّه ﷺ يقولُ: «**إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَومَ القِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ، فَعَرَفَهَا، قال: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ. قالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لأنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ. فَقَدْ قِيلَ. ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ؛ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ.**

وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ، وَقَرَأَ الْقُرآنَ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ، فَعَرفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ. وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ. فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ.

وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ، فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إلا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ.

---

(١) «الفقيه والمتفقه» للخطيب البغدادي (٢/ ٨٧).

قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ. فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ»[1].

ذكر الرسولُ ﷺ في هذا الحديثِ: الغازي والعالِمَ والجوادَ، الذين يُراؤون بأعمالهم، ولا يبتغون بها وَجْهَ اللَّهِ تعالى.

وقال النوويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ **في شرح الحديثِ**: «قولُهُ ﷺ في الغَازِي والعالمِ والجوادِ، وعقابِهِم على فعلهم ذلك لغيرِ وجهِ اللَّه، وإدخالِهم النَّارَ، دليلٌ على تغليظ تحريم الرياءِ وشدَّةِ عقوبتِهِ، وعلى الحثِّ على وجوب الإخلاصِ في الأعمالِ، كما قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]. وفيه أنَّ العموماتِ في فضلِ الجهاد إنَّما هي لِمَنْ أرادَ اللَّهَ تعالى بذلك مُخْلِصًا، وكذلك الثناء على العلماء، وعلى المنفقين في وجوهِ الخيرِ، كلُّه محمولٌ على مَنْ فعَلَ ذلِكَ للَّه تعالى مُخْلِصًا»[2].

فَتَعَلُّمُ العلمِ لغيرِ وجهِ اللَّه تعالى، ابتغاءَ لشُهْرَةٍ فارغةٍ، وطلبًا لشهوة عاجلةٍ، وسعيًا وراءَ تقديرٍ يصيرُ إلى عَدَمٍ، وعَدْوًا خَلْفَ فَرَحٍ يئولُ إلى نَدَمٍ، كَلُّ ذلك ممَّا يُدْخِلُ في دائرةِ الوعيدِ، ويَنْظِمُ في سِلْكِ التحريمِ الشديد.

عن كَعْبِ بنِ مَالكٍ رضي الله عنه قالَ: سَمِعْتُ رسولَ اللَّه ﷺ يقولُ: «**مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ النَّارِ**». رواه الترمذيُّ (**٢٦٥٤**)، وحسَّنه الألبانيُّ في: «صحيح سنن الترمذي» (**٢/ ٣٣٧**)، وابنُ أبي الدنيا في «كتاب الصمت» (**١٤١**)، والحديث صحَّحه الألبانيُّ في: «صحيح الترغيب والترهيب» (**١/ ٤٦**).

قال القاضي أبو بكر بن العربيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قد يكون العلمُ هلاكًا على صاحبِهِ إذا طَلَبَهُ لِغَيْرِ وَجْهِ اللَّهِ، والمعنى في الحديثِ أنَّ النيةَ هي ركنُ العملِ أو شرطُهُ الذي لا يُعْتَدُّ به إلا بها، فإذا عُدِمَتْ لم يكن شيئًا، فإذا أُفْسِدَتْ فَسَدَ الهوى، ويكون فسادُهُ على قدْرِ مُفسِدِه،

---

(١) رواه مسلم (١٩٠٥).

(٢) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٣/ ٥٠).

فإن أرادَ مجاراةَ العلماءِ دخلَ في بابِ الحسدِ للظهورِ والمباهاة على الأقرانِ فَقَلَبَ ما للآخرةِ للدنيا، وإن أرادَ مماراةَ السفهاء فهو مثلُهُمْ، وإن أرادَ صَرْفَ وجوهِ النَّاسِ ليكتسِبَ الحُطَامَ فقد باعَ دينَهُ بعَرَضٍ من الدنيا، فهو عاصٍ فاسقٌ تحت رجاءِ الخاتمةِ في الموتِ على الشهادة، فيكون في المشيئة، أو في تزعزع العقيدةِ يضعفها عند الموت وقوَّةِ الفتنةِ، أو ذهابها فيكون من أصحابِ النَّارِ»[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قالَ: قالَ رسول اللَّه ﷺ: «**مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا ممَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللَّهِ، لا يتَعَلَّمُهُ إلا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنيا، لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**». يعني: ريحَهَا.

رواه أبو داود (٤٦٦٣)، وصحَّحه الألباني في: «صحيح سنن أبي داود» (٢/ ٤١٢)، وابن ماجه (٢٥٢)، وصحَّحه في: «صحيح سنن ابن ماجه» (١/ ٤٨)، وابن حبان في «صحيحه» (٧٧)، والحاكم (١/ ٨٥)، وقال: «حديثٌ صحيحٌ، سندُهُ ثقاتٌ، رواته علَى شرطِ الشيخين». ووافقه الذهبيُّ.

قال محمد فؤاد عبد الباقي رحمه الله: «**عَرَضًا**». أي: مَتَاعًا. و«**مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللَّهِ**». بيانٌ للعلمِ الذي يُطلَبُ به رضا اللَّه، وهو العلمُ الدينيُّ، فلو طَلَبَ الدنيا بعلمِ الفلسفةِ ونحوه فهو غيرُ دَاخِلٍ في أهلِ هذا الوعيدِ»[٢].

قلتُ: وينبغي أن يقيَّدَ هَذَا الكلامُ بما إذا كانَ العلمُ في ذاتِهِ مشروعًا غير ممنوعٍ، وأمَّا إِذَا كانَ العلمُ الَّذِي تُبْتَغَى بِهِ الدنيا محظورًا، فالوعيدُ محيطٌ بِمَنْ طَلَبَ الدنيا بِهِ، وإن كانَ مِمَّا لا يُبتغى بِهِ وجهُ اللَّهِ.

وعن جابرٍ رضي الله عنه قالَ: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَا تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ لِتُبَاهُوا بِهِ العُلَمَاءَ، وَلا لِتُمَارُوا بِهِ السُّفَهَاءَ، وَلا تَخَيَّرُوا بِهِ الْمَجَالسَ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَالنَّارُ النَّارُ**».

أخرجه ابن ماجه (٢٥٤)، وصحَّحه الألباني في: «صحيح سنن ابن ماجه» (١/

(١) «عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي» لابن العربي المالكي (١٠/ ١٢١).
(٢) «سنن ابن ماجه» تحقيق وتعليق محمد فؤاد عبد الباقي (١/ ٩٣).

٤٨)، وابن حبان (٧٦)، والحاكم (١/ ٨٦)، وذكره المنذريُّ في «الترغيب والترهيب» (١/ ١٢٩)، وقال: «رواه ابن ماجه، وابن حبان في «صحيحه»، والبيهقي، كلُّهم مِنْ رواية يحيى بن أيوب الغافقي عَن ابن جريج عَن أبي الزبير عَنْهُ، ويحيى هَذَا ثقةٌ احتجَّ بِهِ الشيخان وغيرُهمَا، ولا يُلتفت إلى مَنْ شَذَّ فِيهِ».

قال الألبانيُّ في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ٤٧): «ومِنْ هذا الوجهِ أخرجه الحاكمُ أيضًا (١/ ٨٦)، وابن عبد البر (١/ ١٨٧)، وصحَّحه الحاكمُ ووافقه الذهبيُّ، وصحَّحه أيضًا الحافظُ العراقيُّ (١/ ٥٢)، وهو كما قالوا إنْ سَلِمَ من الانقطاعِ، فإنَّ ابن جريجٍ وشيخَه أبا الزبير مُدَلِّسانِ معروفان بذلك، وقد عنعناه، غيرَ أنَّ الحديثَ صحيحٌ على كلِّ حالٍ، فإنَّ له شواهدَ في البابِ يتقوَّى بها، وتتقوَّى به».

وقوله ﷺ: «**لا تَعَلَّمُوا**». أي: لا تتعلَّموا، بحذف إحدى التاءَين، و«**لا تَخَيَّرُوا**». أي: لا تختاروا به خيارَ المجالسِ وصدورها، «**فالنَّارُ**». أي: فَلَهُ النَّارُ، أو: فيستحقُّ النَّارَ، و«**النَّار**». مرفوعٌ على الأولِ، منصوبٌ على الثاني[1].

وعن ابن عمرَ رضي الله عنهما قالَ: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، أَوْ لِيُبَاهِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، أَوْ لِيَصرِفَ وَجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ فَهُوَ فِي النَّارِ**». رواه ابن ماجه (٢٥٣)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ٤٨).

قال الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي رحمه الله في «سنن ابن ماجه» (١/ ٩٣): «في الزوائد: إسنادُهُ ضعيفٌ لضعفِ حَمَّادٍ وأبي كَرِبَ». والحديثُ صحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ٤٧).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَنْ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ لِيُبَاهِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ وَيُجَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، وَيَصْرِفَ بِهِ وَجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ جَهَنَّمَ**». رواه ابن ماجه (٢٦٠)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح سنن ابن ماجه» (١/ ٤٨)، وصحَّحه في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ٤٧).

---

(١) «سنن ابن ماجه» (١/ ٩٣).

ذَكَرَ الذهبيُّ عن عبد الرحمن بنِ مهديٍّ، عن طالوت: سمعتُ إبراهيمَ بنَ أدهم يقول: ما صدقَ اللَّهَ عبدٌ أحبَّ الشُّهْرَةَ.

قال الذهبيُّ: علامةُ المخلِصِ الذي قد يُحبُّ شهرةً، ولا يشعُرُ بها، أنَّه إذا عُوتِبَ في ذلك، لا يحرَدُ ولا يُبَرِّئُ نفسَه، بل يعترفُ، ويقول: رَحِمَ اللَّهُ مَنْ أهدى إليَّ عيوبي، ولا يكون مُعْجَبًا بنفسِهِ؛ لا يشعرُ بعيوبِها، بل لا يشعر أنَّه لا يشعر، فإنَّ هذا داءٌ مُزْمِنٌ»[١].

وروى عبدُ الرَّزَّاقِ في «مصنَّفِهِ» (١١/ ٣٦٠) موقوفًا، عن سليم بنِ قيسٍ الحنظليِّ[٢] قال: خَطَبَ عُمَرُ فَقَالَ: «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَتَخَوَّفُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي: أَنْ يُؤخَذَ الرَّجُلُ مِنْكُمُ البَرِيءُ فَيُؤْشَرُ كَمَا يُؤْشَرُ الْجَزُورُ، وَيُشَاطُ لَحْمُهُ كَمَا يُشَاطُ لَحْمُهَا، وَيُقَالُ: عَاصٍ، وَلَيْسَ بِعَاصٍ، قَالَ: فَقَالَ عَلِيٌّ وَهُوَ تَحْتَ الْمِنْبَرِ: وَمَتَى ذَلِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟! أَوَ بِمَ تَشْتَدُّ الْبَلِيَّةُ، وَتَظْهَرُ الْحَمِيَّةُ، وَتُسْبَى الذُّرِّيَّةُ، وَتَدقُّهُمُ الفِتَنُ كَمَا تَدُقُّ الرَّحَا ثِفْلَهَا، وكَمَا تَدُقُّ النَّارُ الحَطَبَ؟ قَالَ: وَمَتَى ذَلِكَ يَا عَلِيُّ؟ قَالَ: إِذَا تُفُقِّهَ لِغَيْرِ الدِّينِ، وَتُعُلِّمَ لِغَيرِ العَمَلِ، وَالْتُمِسَتِ الدُّنيا بِعَمَلِ الآخِرةِ». رواه الحاكم أيضًا من طريق «المصنَّف»، وصحَّح الألبانيُّ في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ٤٨).

* **غريبُ الحديثِ**:

يُؤْشَرُ: يُنْشَرُ، يُقالُ: أَشَرْتُ الْخَشَبَةَ أَشْرًا، ووشَرْتُهَا وَشْرًا، إذَا شققتُها، مثلُ: نَشَرْتُهَا نَشْرًا.

الْجَزُورُ: النَّاقَةُ الْمَجْزُورَةُ، والجمعُ: جَزَائِرُ وجُزُرٌ، وجُزُراتٌ جَمْعُ الجمعِ، كَطُرُقٍ وطُرُقاتٍ، والجَزُورُ يَقعُ على الذَّكَرِ والأنثى، وهو يُؤَنَّثُ لأنَّ اللفظةَ مؤنَّثةٌ، تقول: هذه الجزورُ، وإن أردتَ ذَكَرًا.

---

(١) «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٧/ ٣٩٣).

(٢) قال الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي: هو عندي سليم بني قيس العامري، ذكره أبو حاتم مرَّةً منسوبًا إلى أبيه، وأخرى غير منسوبٍ، وذكره البخاريُّ أيضًا غير منسوبٍ إلى أبيه ونَسَبَهُ عامريًّا، وقد حرَّف ناشرو «المستدرك» فأثبتوا: أبان بن سليم «مصنف عبد الرزاق» (١١/ ٣٦٠).

يُشَاطُ: شَيَّطَ فلانٌ اللَّحْمَ إِذَا دَخَّنَهُ ولم يُنْضِجْهُ، والتشيطُ: لَحْمٌ يُصْلَحُ للقومِ ويُشْوَى لهم.

الثِّفَالُ: بالكسرِ، الجِلْدُ الذي يُبْسَطُ تحت رَحَى اليدِ ليقِيَ الطحينَ من الترابِ.

والمعنى: أنَّها تدُقُّهُمْ دَقَّ الرَّحَا إذا كانت مُثَقَّلةً، ولا تُثَقَّلُ إلا عند الطحنِ.

قال الشيخ محمد خليل هرَّاس رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله: «إِذَا تُفُقِّهَ لِغَيرِ الدِّينِ». أي: إذا تَعَلَّمَ النَّاسُ الفقهَ لا من أجلِ العمل به وتعليمِهِ، ولكن لأجلِ الحصولِ على مناصبِ الفُتْيَا والقضاءِ والتَّزَلُّفِ إلى الأمراءِ»[(١)].

وعن عبد اللَّه بن مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: «كَيْفَ بِكُمْ إِذَا لَبِسَتْكُمْ فِتْنَةٌ، يَرْبُو فِيها الصَّغِيرُ، وَيَهْرَمُ فِيهَا الكَبيرُ، وَتُتَّخَذُ سُنَّةً، فَإِنْ غُيِّرَتْ يومًا قِيلَ: هَذا مُنْكَرٌ. قِيلَ: وَمَتَى ذَلِكَ؟ قَالَ: إِذَا قَلَّتْ أُمَنَاؤُكُمْ، وَكَثُرَتْ أُمَرَاؤُكُمْ، وَقَلَّتْ فُقَهَاؤُكُمْ، وَكَثُرَتْ قُرَّاؤُكُمْ، وَتُفُقِّهَ لِغَيرِ الدِّينِ، والتُمِسَتِ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الآخِرَةِ». رواه الدَّارِميُّ (١/ ٧٥، ٧٦). وصحَّح الألبانيُّ إسنادَ الدارميِّ في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ٤٨)، ورواه عبد الرَّزَّاقِ في «مصنَّفه» (١١/ ٣٥٩) موقوفًا على عبد اللَّه بإسنادٍ منقطعٍ.

* **تفسيرُ الغريبِ**[(٢)]:

«لَبِسَتْكُمْ فِتْنَةٌ». يعني: غَشِيَتْكُمْ وأحاطت بكم كما يُحيطُ الثوبُ بلابِسِه.

«يَرْبُو»: يزيدُ وينمو.

«يَهْرَمُ»: يُقَال: هَرِمَ يَهْرَمُ. مِنْ بابِ تَعِبَ، إذا شَاخَ وتقدَّمت به السِّنُّ.

«تُتَّخَذُ سُنَّةً» أي: طريقةً مُتَّبَعَةً ومنهجًا مسلوكًا.

«هَذا مُنْكَرٌ» أي: مَعِيبٌ قبيحٌ.

---

(١) «الترغيب والترهيب» للمنذري. ط، د. محمد خليل هراس (١/ ١٣١).

(٢) انظر: «الترغيب والترهيب» تعليق الشيخ محمد خليل هراس (١/ ١٣١).

«فُقَهَاؤُكُمْ» -جمعُ فقيهٍ-: وهو المشتغلُ بفهم النصوص.

«قُرَّاؤُكُمْ»: الذين يُحسنون القراءَةَ تجويدًا وأداءً.

«الْتُمِسَتِ الدُّنيا بِعَمَلِ الآخِرَةِ» يعني: جُعِلَ الدينُ وسيلةً إلى تحصيلِ الدنيا، وقد قيل لبعض السَّلفِ: مَن السِّفْلَةُ؟ قال: «الذين يأكلون الدنيا بالدِّينِ».

وللخطيبِ البغداديِّ رَحِمَهُ اللَّهُ في «الجامع» بابٌ معقودٌ في بيانِ النِّيَّةِ في طلبِ الحديث، قال فيه رَحِمَهُ اللَّهُ: «يجبُ على طالبِ الحديثِ أن يُخْلِصَ نِيَّتَهُ في طَلبِهِ، ويكونَ قَصدُهُ بذلك وجهَ اللَّهِ تعالى.

ولْيَحْذَرْ أن يجعلَه سبيلًا إلى نَيْلِ الأعراضِ، وطريقًا إلى أَخْذِ الأعواضِ، فقد جاءَ الوَعيدُ لِمَن ابتغى ذلك بعلمِهِ.

وَلْيَتَّقِ المفاخرةَ والمباهاةَ به، وأن يكون قصدُهُ في طلبِ الحديثِ نيلَ الرئاسةِ، واتخاذَ الأتباعِ وعَقْدَ المجالسِ، فإنَّ الآفةَ الداخلةَ على العلماءِ أكثرُها من هذا الوجهِ.

وَلْيَجْعَلْ حفظَهُ للحديثِ حفظَ رعايةٍ، لا حفظَ روايةٍ، فإنَّ رواةَ العلومِ كثيرٌ، ورعاتَها قليلٌ، ورُبَّ حاضرٍ كالغائبِ، وعالمٍ كالجاهلِ، وحاملٍ للحديث ليس معه منه شيءٌ، إذ كان في اطِّرَاحِهِ لحُكْمِهِ بمنزلةِ الذاهبِ عن معرفَتِهِ وعلمِهِ.

وَلْيَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ تعالى سائلُهُ عن علمِهِ، فِيمَ طلبَهُ؟ ومجازيه على عملهِ بِهِ»[1].

قلتُ: وينبغي أن يُعْلَمَ أنَّ طَلَبَ الدنيا بالآخرةِ عقوبةٌ في الدنيا عاجلةٌ، ومَحْقٌ لِبَرَكَةِ الْعمرِ وذهابٌ لخيرِهِ، وفي الآخرة عذابٌ شديدٌ وعقابٌ أليمٌ.

قال الحسنُ: «عقوبةُ العالِمِ: موتُ القلب. قيل له: وما موتُ القلبِ؟قال: طَلَبُ الدنيا بعملِ الآخرةِ».

وقال جعفرُ بن محمد: «إذا رأيتم العالِمَ محبًّا لدنياه فاتَّهموه على دينكم؛ فإنَّ كُلَّ

---

(١) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» للخطيب البغدادي (١/ ٨١).

مُحِبٍّ لشيءٍ يحوطُ ما أحبَّ».

وقال سفيانُ الثوريُّ: «إنَّما يُتَعَلَّمُ العلمُ ليُتَّقى به اللَّه، وإنَّمَا فُضِّلَ العلمُ على غيرِهِ؛ لأنَّه يُتَّقَى بِه اللَّهُ».

وقال أيضًا: «زَيِّنُوا العلمَ ولا تَزيَّنُوا بِهِ»[1].

وأذكر- بحول اللَّهِ وقوته- مثالًا يكون- إن شاء اللَّه- كالتطبيق لِما مرَّ ذِكْرُهُ مِنْ وجوبِ الإخلاصِ في الطَّلَبِ، والبعدِ عَن الرياء والسمعةِ، وفيه مِنْ محاسبةِ النَّفْسِ وتدقيقِ التفتيشِ عَنْ بواعثِ العملِ ودوافعِ الطَّلَبِ مَا يَجْمُلُ بطالبِ العلمِ أَنْ يتأمَّلَه حتى لا يلحقَه في طلبِهِ رياءٌ ولا سُمعةٌ.

قَالَ الإمامُ الذهبيُّ في ترجمة هشامٍ الدَّسْتوائي: «هو الحافظُ، الحجَّةُ، الإمامُ، الصادقُ، أَبُو بكر، هشام بن أبي عبد اللَّه البصري الرَّبَعي، صاحبُ الثيابِ الدَّسْتُوائية، كَانَ يَتَّجِر في القماشِ الَّذِي يُجلب مِنْ دَسْتُوا، ودستُوا بُلَيْدَةٌ مِنْ أعمالِ الأهْواز.

قالَ عَوْن بن عُمارة: «سمعتُ هشامًا الدَّسْتُوائي يقول: واللَّه مَا أستطيع أَنْ أقول: إني ذهبتُ يومًا قطُّ أطلبُ الحديث أريدُ بِهِ وجهَ اللَّه ﷻ. قَالَ الذهبيُّ: واللَّه وَلا أنا، فقد كَانَ السَّلَفُ يطلبون العلمَ للَّهِ فَنَبُلوا، وصاروا أئمةً يُقتدى بهم، وطَلَبَهُ قومٌ منهم أولًا لا للَّه، وحصَّلُوه، ثُمَّ اسْتَفاقُوا، وحاسبوا أنفسَهم، فجرَّهم العلمُ إلى الإخلاص في أثناءِ الطريقِ، كما قالَ مجاهدٌ وغيرهُ: طلبنا هَذَا العلمَ وما لنا فيهِ كبيرُ نيَّةٍ، ثُمَّ رزق اللَّهُ النيةَ بعدُ. وبعضُهم يقول: طلبنا هَذَا العلمَ لغيرِ اللَّهِ، فأبى أن يكون إلا للَّه».

فهذا أيضًا حَسَنٌ، ثُمَّ نشروه بنيَّةٍ صالحةٍ.

وقومٌ طلبوه بنيَّةٍ فاسدةٍ لأجلِ الدنيا، وليُثْنَى عليهم، فلهم مَا نووا، وترى هَذَا الضربَ لم يستضيئوا بنور العلمِ، وَلا لهم وقعٌ في النفوسِ، وَلا لعلمهم كبيرُ نتيجةٍ مِن العملِ، وإنما العالِمُ مَنْ يخشى اللَّه تعالى.

---

(١) «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر (١/ ١٩١).

وقومٌ نالوا العلمَ، ووَلُوا بِهِ المناصبَ، فظلموا، وتركوا التَّقَيُّد بالعلم، وركبوا الكبائر والفواحش، فتبًّا لهم، فما هؤلاء بعلماء.

وبعضُهم لم يتَّق اللَّه في علمه، بل ركب الحيلَ، وأفتى بالرُّخَص، وروى الشَّاذَّ مِن الأخبارِ، وبعضُهم اجترأَ عَلَى اللَّهِ ووضعَ الأحاديثَ، فهتَكَه اللَّهُ، وذهب علمُه، وصار زادَه إلى النارِ.

وهؤلاء الأقسامُ كلُّهم رَوَوا مِن العلمِ شيئًا كبيرًا، وتضلَّعوا مِنْهُ في الجملة، فَخَلَفَ مِنْ بعدهم خَلْفٌ بان نقصُهم في العلم والعمل، وتلاهم قومٌ انتموا إلى العلم في الظاهر، ولم يُتْقِنُوا مِنْهُ سوى نزْرٍ يسيرٍ، أَوْهَمُوا بِهِ أَنَّهُم علماءُ فضلاءُ، ولم يَدُرْ في أذهانهم قطُّ أنهم يتقرَّبون بِهِ إلى اللَّهِ، لأنهم مَا رأوا شيخًا يُقتدى بِهِ في العلم، فصاروا همجًا رَعاعًا، غايةُ المدَرِّسِ منهم أَنْ يُحَصِّلَ كتبًا مُثَمَّنةً يخزنُها وينظر فيها يومًا مَا، فيصحِّف مَا يُورده وَلا يُقرِّره، فنسأل اللَّه النجاةَ والعفوَ، كما قَالَ بعضُهم: مَا أنا عالمٌ وَلا رأيتُ عالمًا»[1].

والعلمُ مفتاحُ العملِ ورائدُهُ، وهو الأصلُ الذي يُبنى عليه، فينبغي أن تَخْلُصَ فيه النيةُ للَّهِ تعالى، حتَّى يزكوَ فيثمرَ عملًا على رجاء القبولِ وعلى رجاء الثوابِ.

وفي الحثِّ عَلَى الإخلاصِ، والتنفيرِ مِن الرياءِ، وردت جملةٌ وافرةٌ مِنْ الأحاديثِ، تُرهِّبُ وتُرَغِّبُ، وتباعدُ وتُقرِّبُ.

ومنها حديثُه ﷺ العظيمُ الَّذِي هو مِنْ جوامعِ كَلِمِهِ وفرائِدِ بيانِهِ ﷺ. قَالَ ﷺ: «**إِنَّما الأعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّما لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إلى مَا هَاجَرَ إِلَيهِ**»[2].

قَالَ النوويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَجْمَعَ المسلمون عَلَى عِظَمِ موقعِ هَذَا الْحَدِيثِ وَكَثْرَةِ فوائِدِه وصحَّتِهِ؛ قَالَ الشافعيُّ وآخرون: هو رُبُعُ الإسلامِ. وقال عبد الرحمن بنُ مهديٍّ وغيرُهُ:

(١) «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٧/ ١٥٢).
(٢) «البخاري» (١)، و«مسلم» (١٩٠٧).

ينبغي لِمَنْ صَنَّفَ كتابًا أَنْ يبدأ فيهِ بهذا الحديثِ؛ تنبيهًا للطالبِ عَلَى تصحيحِ النيةِ، ونَقَلَ الخطَّابيُّ هَذَا عن الأئمة مطلقًا، وقد فَعَلَ ذلك البخاريُّ وغيرُهُ فابتدءوا بِهِ قبل كلِّ شيءٍ، وذكره البخاريُّ في سبعةِ مواضعَ مِنْ كتابِهِ»[1].

فيجب الإخلاصُ في طلبِ العلمِ للَّهِ تعالى، بأن ينويَ الطالبُ في طلبِ العلمِ وَجْهَ اللَّهِ ﷻ، وأن ينويَ بطلبِ العلمِ رفعَ الجهلِ عَنْ نفسِهِ وعن غيره، وأن ينويَ بطلب العلم الدفاعَ عَن الشريعةِ ضدَّ هجماتِ التغريبِ والتشويه، وحملاتِ الزيفِ والتشويشِ؛ لأنَّ الدفاعَ عَن الشريعة لا يكون إلا برجالها.

ذَكَرَ الذهبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في «السِّيَرِ»، في ترجمةِ الإمامِ، العلَّامةِ، الحافظِ، شيخِ الحَرَمِ، عبدِ الملكِ بنِ عبدِ العزيزِ بنِ جُرَيْجٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال الوليدُ بنُ مسلمٍ: سألتُ الأوزاعيَّ، وسعيدَ بنَ عبدِ العزيزِ، وابنَ جُرَيْجٍ: لِمَنْ طَلَبْتُمُ العلمَ؟ كلُّهم يقول: لنفسي، غير ابن جُريجٍ، فإنَّه قال: طلبتُهُ للناسِ.

قلتُ: ما أحسنَ الصدقَ! واليوم تسألُ الفقيهَ الغبيَّ: لمَنْ طلبتَ العلمَ؟ فَيُبَادِرُ ويقولُ: طلبتُهُ للَّهِ، ويكذبُ إنَّما طلبه للدنيا، ويا قلَّةَ ما عَرَفَ مِنْهُ.»[2].

وذكر رَحِمَهُ اللَّهُ في «السِّيَرِ»، في ترجمةِ الإمامِ الحافظِ، أميرِ المؤمنين في الحديثِ، أبي بِسْطَامٍ، شعبةَ بن الحجَّاجِ بنِ الوَرْدِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال أبو قطن: سمعتُ شعبةَ يقول: ما شيءٌ أخوَفَ عندي من أن يُدْخِلَنِي النَّارَ من الحديث.

وعنه قال: وَدِدتُ أنِّي وقَّادُ حَمَّامٍ[3]، وأنِّي لم أعرِف الحديثَ.

قلتُ -القائلُ: الذهبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: كلُّ مَنْ حَاقَقَ نفسَه في صحَّةِ نيَّتِهِ في طلبِ العلمِ يخافُ من مِثْلِ هذا، ويودُّ أن ينجو كفافًا.»[4].

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٣/ ٥٣).
(٢) «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٦/ ٣٢٨).
(٣) وقَّادُ الحمَّام: هوَ مَنْ يُشْعِلُ النارَ لتسخينِ الماءِ في الحمَّامِ العامِّ.
(٤) «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٧/ ٢١٣).

٢- كِتْمَانُ الْعِلْمِ

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٥٩، ١٦٠].

قال القرطبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أخبرَ اللَّهُ تعالى أنَّ الذي يكتُمُ ما أنزلَ من البينات والهُدى ملعونٌ.

واختلفوا في المراد بذلك؛ فقيل: أحْبارُ اليهودِ ورُهْبَانُ النَّصارى الذين كتموا أمرَ محمد ﷺ، وقد كَتَمَ اليهودُ أمرَ الرَّجْمِ.

وقيل: المرادُ: كلُّ مَنْ كَتَمَ الحقَّ، فهي عامَّةٌ في كلِّ مَنْ كَتَمَ علمًا من دينِ اللَّهِ يُحْتَاجُ إلى بَثِّهِ.

وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ﴾. الكنايةُ في: ﴿بَيَّنَّٰهُ﴾. ترجع إلى ما أنزلَ من البيناتِ والْهُدَى، و﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾. اسمُ جنسٍ، والمرادُ: جميعُ الكتبِ المنزلة.

وقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾. أي: يتبرَّأُ منهم ويُبعدهم من ثوابِهِ، ويقولُ لهم: عليكم لعنتي، كما قال للَّعينِ- أي: إبليس-: عليك لعنتي. وأصلُ اللَّعنِ في اللغةِ: الإبعادُ والطردُ.

وقوله تعالى: ﴿وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾. قال قتادةُ والربيعُ: المرادُ بـ ﴿ٱللَّٰعِنُونَ﴾: الملائكةُ والمؤمنون. قال ابن عطية: وهذا واضحٌ جارٍ على مقتضى الكلامِ»[(١)].

وقال في «عُمْدَةِ التفسير»: «هذا وعيدٌ شديدٌ لِمَنْ كَتَمَ ما جاءت به الرُّسُلُ من الدلالات البيِّنةِ على المقاصدِ الصحيحةِ والهُدَى النافعِ للقلوب، من بعد ما بَيَّنَهُ اللَّهُ تعالى لعبادِهِ في كُتُبِهِ التي أنزلها على رُسُلِهِ.

(١) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي بعناية د. محمد إبراهيم الحفناوي، و د. محمود عثمان. (٢/ ١٨٩).

قال أبو العاليةِ: نزلتْ في أهلِ الكتابِ، كتموا صفةَ محمدٍ ﷺ ثمَّ أخبر أنَّهم يلعنهم كلُّ شيءٍ على صنيعهم ذلك، فكما أنَّ العالِمَ يستغفرُ له كلُّ شيءٍ حتى الحوتُ في الماءِ والطيرُ في الهواء، فهؤلاء بخلافِ العلماءِ، فيلعنهم اللَّهُ ويلعنهم اللاعنون.

وجاء في هذه الأيةِ أنَّ كاتمَ العلمِ يلعنهُ اللَّهُ والملائكةُ والنَّاسُ أجمعون. واللاعنون- أيضًا- هم كلُّ فصيحٍ وأعجميٍّ، إمَّا بلسانِ المقالِ أو الحالِ، أو لو كان له عقلٌ، أو يومَ القيامةِ. واللَّهُ أعلم.

ثمَّ استثنى اللَّهُ تعالى من هؤلاءِ مَنْ تابَ إليه فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ﴾. أي: رجعوا عمَّا كانوا فيه وأصلحوا أعمالَهم وبيَّنوا للنَّاسِ ما كانوا كتموه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾. وفي هذا دَلالةٌ على أنَّ الداعيةَ إلى كفرٍ أو بدعةٍ إذا تابَ إلى اللَّه تابَ اللَّهُ عليه، وقد وَرَدَ أنَّ الأممَ السابقةَ لم تكن التوبةُ تُقْبَلُ من مثلِ هؤلاء منهم، ولكنَّ هذا من شريعةِ نبيِّ التوبةِ ونبيِّ الرحمةِ، صلواتُ اللَّه وسلامُهُ عليه»[1].

وقال السعديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذه الآيةُ وإن كانت نازلةً في أهل الكتابِ، وما كتموا من شأن الرسول ﷺ وصفاتِهِ، فإنَّ حكمَهَا عامٌّ لكلِّ مَن اتصف بكتمانِ ما أنزلَ اللَّهُ ﴿مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾. الدَّالات على الحقِّ المظهراتِ له، ﴿وَٱلۡهُدَىٰ﴾. وهو العلمُ الذي تحصلُ به الهدايةُ إلى الصراطِ المستقيم، ويُتبيَّن به طريقُ أهلِ النعيم من طريقِ أهلِ الجحيم، فإنَّ اللَّهَ أخذَ الميثَاقَ على أهلِ العلمِ بأن يُبيِّنوا للنَّاسِ ما مَنَّ اللَّهُ به عليهم من علمِ الكتابِ ولا يكتموه، فَمَنْ نَبَذَ ذلك وجمعَ بين المفسدتين: كَتْمِ ما أنزل اللَّهُ، والغشِّ لعبادِ اللَّه فأولئك ﴿يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾. أي: يبعدُهم ويطردُهم عن قُرْبِهِ ورحمتِهِ، ﴿وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾. وهم جميعُ الخليقةِ، فتقعُ عليهم اللَّعنةُ من جميعِ الخليقةِ لسعيهم في غِشِّ الْخَلْقِ وفساد أديانهم وإبعادهم من رحمةِ اللَّهِ، فَجُوزُوا من جنسِ عملهم، كما أنَّ مُعَلِّمَ النَّاسِ الخيرَ يصلِّي اللَّهُ عليه وملائكتُه حتى الحوتُ في الماءِ لسعيه في مصالحِ الخَلْقِ وإصلاحِ أديانِهِم، وقربِهِم من رحمةِ اللَّهِ، فجُوزي من جنسِ عملِهِ، فالكاتمُ لما أنزلَ اللَّهُ مضادٌّ

(١) «عمدة التفسير» وهو مختصر «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير، اختصار الشيخ أحمد شاكر (١/ ٢٧٩).

لأمرِ اللَّه مُشَاقٌّ للَّهِ، يبينُ اللَّهُ الآياتِ للنَّاسِ ويوضِّحها وهذا يسعى في طمسِها وإخفائها، فهذا عليه هذا الوعيدُ الشديدُ.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾. أي: رجعوا عمَّا هم عليه من الذنوبِ ندمًا وإقلاعًا، وعزمًا على عدم المعاودَةِ، ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾. ما فَسَدَ من أعمالهم، فلا يكفي تركُ القبيحِ حتَّى يحصلَ فعلُ الحَسَنِ، ولا يكفي ذلك في الكاتم- أيضًا- حتَّى يبيِّنَ ما كَتَمَهُ ويُبديَ ضدَّ ما أخفى، فهذا يتوبُ اللَّهُ عليه؛ لأنَّ توبةَ اللَّهِ غير محجوبٍ عنها، فَمَنْ أتى بسببِ التوبةِ تابَ اللَّهُ عليه؛ لأنَّه ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾. أي: الرَّجَّاعُ على عبادِهِ بالعفوِ والصفحِ بعد الذنبِ إذا تابوا، وبالإحسانِ والنِّعَمِ بعد المنع إذا رجعوا، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾. الذي اتصفَ بالرحمةِ العظيمةِ التي وَسِعَتْ كلَّ شيءٍ»[1].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٧٤، ١٧٥].

قال القرطبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ ... الآية. هذه الآيةُ وإن كانت في الأحبارِ، فإنَّها تتناولُ من المسلمين مَنْ كَتَمَ الحقَّ مختارًا لذلك بسببِ دنيا يصيبها.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾. يعني: علماءَ اليهودِ، كتموا ما أنزلَ اللَّهُ في التوراةِ من صفةِ محمد ﷺ وصحَّةِ رسالتِهِ، ومعنى ﴿أُنزِلَ﴾: أظهر. كما قال تعالى: ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣]. أي: سأظهرُ. وقيل: هو على بابه من النزول. أي: أنزلَ به ملائكتهُ على رسلِهِ ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ﴾. أي: بالمكتومِ ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾. يعني: أَخْذَ الرِّشاءِ، وسمَّاه قليلًا؛ لانقطاع مدَّتِهِ وسوءِ عاقبتِهِ،

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص٥٩).

وقيل: لأنَّ ما كانوا يأخذونه من الرِّشَاءِ كان قليلًا[١].

وقال السعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا وعيدٌ شديدٌ لِمَنْ كَتَمَ ما أنزلَ اللَّهُ على رسلِهِ من العلمِ الذي أخذَ اللَّهُ الميثاقَ على أهلِهِ أن يبيِّنوه للنَّاسِ ولا يكتموه، فمَنْ تَعَوَّضَ عنه بالحُطَامِ الدنيويِّ ونَبَذَ أمرَ اللَّهِ فأولئك ﴿مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾. لأنَّ هذا السببَ الذي اكتسبوه إنَّما حصلَ لهم بأقبحِ المكاسبِ وأعظمِ المحرَّماتِ، فكان جزاؤُهم من جنسِ عملهم.

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾. بل قد سَخِطَ عليهم وأعرضَ عنهم، فهذا أعظمُ عليهم من عذابِ النَّارِ، ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾. أي: لا يُطَهِّرهم من الأخلاقِ الرذِيلةِ، وليس لهم أعمالٌ تصلُحُ للمدحِ والرضا والجزاءِ عليها، وإنَّما لم يزكِّهم؛ لأنَّهُمْ فعلوا أسبابَ عدمِ التزكيةِ التي أعظمُ أسبابِها العملُ بكتابِ اللَّهِ والاهتداءُ به والدعوةُ إليه، فهؤلاء نبذوا كتابَ اللَّهِ وأعرضوا عنه واختاروا الضلالةَ على الهُدَى والعذابَ على المغفرةِ، فهؤلاء لا يصلُحُ لهم إلا النَّار، فكيف يصبرون عليها؟! وأنَّى لهم الجَلَدُ عليها؟!»[٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

قال ابن كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا توبيخٌ من اللَّهِ وتهديدٌ لأهلِ الكتابِ الذين أخَذَ اللَّهُ عليهم العهدَ على ألسنة الأنبياءِ أن يؤمنوا بمحمدٍ ﷺ، وأن يُنَوِّهوا بذكرِهِ في النَّاسِ فيكونوا على أُهْبَةٍ من أمرِهِ، فإذا أرسلَه اللَّهُ تابعوه، فكتموا ذلك وتعوَّضوا عمَّا وُعِدوا عليه من الخيرِ في الدنيا والآخرةِ بالدُّونِ الطفيفِ، والحظِّ الدنيويِّ السخيفِ، فبئست الصفقةُ صفقتُهم، وبئست البيعةُ بيعتُهم.

وفي هذا تحذيرٌ للعلماءِ أن يسلكوا مَسْلَكَهُم فيصيبَهُم ما أصابهم، ويُسْلَكَ بهم مَسلَكُهم، فعلى العلماءِ أن يبذلوا ما بأيديهم من العلمِ النافعِ، الدَّالِّ على العملِ

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٢/ ٢٣٩).
(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (ص٦٥).

الصالحِ، ولا يكتموا منه شيئًا»[١].

وقال القرطبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾. هذا متصلٌ بذكرِ اليهودِ، فإنَّهم أُمروا بالإيمانِ بمحمَّدٍ ﷺ وبيانِ أمرِه، فكتموا نعتَهُ، فالآيةُ توبيخٌ لهم، ثمَّ مع ذلك هو خبرٌ عامٌّ لهم ولغيرهم.

قال الحسنُ وقَتَادَةُ: هي في كلِّ مَنْ أُوتِيَ علمَ شيءٍ من الكتابِ، فمَنْ عَلِمَ شيئًا فليُعَلِّمه، وإيَّاكم وكتمانَ العلمِ فإنَّه هَلَكَةٌ.

وقال محمَّدُ بن كعبٍ: لا يحِلُّ لعالمٍ أن يسكتَ على علمِهِ، ولا للجاهلِ أن يسكتَ على جهلِهِ»[٢].

وقال السعديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الميثاقُ: هو العهدُ الثقيلُ المؤكَّدُ، وهذا الميثاقُ أخذه اللَّهُ تعالى على كل مَنْ أعطاه اللَّهُ الكُتُبَ وعلَّمه العلمَ أن يبيِّنَ للنَّاسِ ما يحتاجون إليه ممَّا علَّمه اللَّهُ ولا يكتمَهُم ذلك ويبخَل عليهم به، خصوصًا إذا سألوه أو وقعَ ما يُوجب ذلك، فإنَّ كلَّ مَن عنده علمٌ يجبُ عليه في تلك الحالِ أن يبيِّنَه ويُوَضِّحَ الحقَّ من الباطلِ.

فأمَّا الموفَّقُون فقاموا بهذا أتمَّ القيامِ، وعلَّموا النَّاسَ ممَّا علَّمهم اللَّهُ ابتغاءَ مرضاةِ ربِّهم وشفقةً على الخلقِ وخوفًا من إثمِ الكتمانِ.

وأمَّا الذين أُوتوا الكتابَ من اليهودِ والنَّصارى ومَنْ شابههم فنبذوا هذه العهودَ والمواثيقَ وراءَ ظهورِهم فلم يَعْبَئُوا بها فكتموا الْحَقَّ وأظهروا الباطلَ، وتَجَرَّءوا على مَحَارِمِ اللَّه، وتهاوَنَوا بحقوقِهِ تعالى وحقوقِ الخَلْقِ، واشتروا بذلك الكتمانِ ثمنًا قليلًا، وهو ما يحصلُ لهم -إن حَصَلَ- من بعضِ الرياساتِ والأموال الحقيرةِ من سِفْلَتِهِم المتَّبعين أهواءَهم، المقدمين شهواتِهم على الحقِّ، ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾. لأنَّه أخَسُّ العِوَضِ، والذي رغبوا عنه، وهو بيانُ الحقِّ الذي فيه السعادةُ الأبديةُ والمصالحُ الدينيةُ والدنيويةُ، أعظمُ المطالبِ وأجَلُّها، فلم يختاروا الدُّونَ الخسيسَ ويتركوا العاليَ النفيسَ

(١) «تفسير القرآن العظيم» (١/ ٤٣٦).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٤/ ٣١٣).

إلا لِسُوءِ حظِّهم وهوانِهم وكونِهم لا يصلُحون لغيرِ ما خُلقوا له»[(١)].

وقال تعالى مخاطبًا نبيَّه ﷺ ومُؤَدِّبًا أمَّته ﷺ: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧].

قال القرطبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: المعنى: بَلِّغْ جميعَ ما أُنْزِلَ إليْكَ من رَبِّكَ، فإن كتمتَ شيئًا منه فما بلَّغْتَ رسالتَه، وهذا تأديبٌ للنبيِّ ﷺ، وتأديبٌ لحَمَلَةِ العلمِ من أُمَّتِهِ ألَّا يكتموا شيئًا من أمرِ شريعتِهِ، وقد علمَ اللَّهُ تعالى من أمرِ نبيِّه أنَّه لا يكتم شيئًا من وحيه»[(٢)].

أخرج مسلمٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بسندِهِ عن مَسْرُوقٍ عن عائِشَةَ رضي الله عنها قالت: «مَنْ زَعَمَ أنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَتَمَ شَيْئًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ، وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ﴾»[(٣)].

وأخرجَ البخاريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بسندِهِ عن مَسْرُوقٍ عن عائِشةَ رضي الله عنها قالت: «مَنْ حَدَّثَكَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ كَتَمَ شَيْئًا مِنَ الْوَحْيِ فَلا تُصَدِّقه، إنَّ اللَّهَ تعالى يقولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ﴾»[(٤)].

تلك آياتٌ بيِّناتٌ في الترهيبِ من كتمانِ العلمِ وفي الأمرِ بتبليغِهِ، فَهِمَهَا الصَّحَابَةُ رضي الله عنهم، ومن تَبِعَهُمْ بإحسانٍ على وَجْهِهَا، وأَعْطَوْهَا حَقَّها فلم يُفَرِّطُوا وما كانوا متخاذلين، بل عملوا على وَفْقِ الذي علموا فكانوا بفضلِ اللَّه سابقين.

ومن نماذجِ فهمهم وعملهم أبو هريرة وأبو ذَرٍّ رضي الله عنهما فيما يُحَدِّثَانِ به، فقد أخرج البخاريُّ بسندِهِ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص١٢٧).
(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٢٣٠).
(٣) «مسلم» (١٧٧).
(٤) «البخاري» (٤٣٣٦).

«إِنَّ النَّاسَ يَقُولُونَ: أَكْثَرَ أَبُو هُرَيْرَةَ، وَلَوْلَا آيَتَانِ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا حَدَّثْتُ حَدِيثًا، ثُمَّ يَتْلو: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٥٩، ١٦٠]»[١].

قال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قولُهُ: «وَلَوْلا آيَتَانِ». معناه: لولا أنَّ اللَّه ذَمَّ الكاتمين للعلم ما حَدَّثَ أصلًا، ولكن لَمَّا كان الكتمانُ حَرَامًا وَجَبَ الإظهارُ، فلهذا حصلت الكثرةُ لكثرةِ ما عنده»[٢].

وأخرج البخاريُّ تعليقًا مجزومًا به عن أبي ذَرٍّ رضي الله عنه قال: «لَوْ وَضَعْتُم الصَّمْصَامَةَ عَلَى هَذِه- وَأَشَارَ إلى قَفَاهُ- ثُمَّ ظَنَنْتُ أَنِّي أُنْفِذُ كَلِمَةً سَمِعْتُهَا مِنَ النَّبيِّ ﷺ قَبْلَ أَن تُجِيزُوا عَلَيَّ لأَنْفَذْتُهَا»[٣].

قال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله: «وقال أبو ذَرٍّ . . .» إلخ هذا التعليقُ رويناه موصولًا في مسندِ الدارميِّ وغيره من طريق الأوزاعيِّ، حدثني أبو كثيرٍ- يعني: مالك بن مرثد- عن أبيه قال: أتيتُ أبا ذَرٍّ وهو جالسٌ عند الجمرةِ الوسطى، وقد اجتمع عليه النَّاسُ يستفتونه، فأتاه رجلٌ فوقف عليه ثم قال: أَلَمْ تُنْهَ عن الفُتيا؟ فرَفع رأسَه فقال: أَرَقِيبٌ أنتَ عليَّ؟ لو وضَعْتُم . . . فذكر مثلَه.

ورويناه في «الحِلية» من هذا الوجهِ، وَبَيَّنَ أنَّ الذي خاطبه رجلٌ من قريشٍ، وأنَّ الذي نهاه عن الفُتيا عثمانُ رضي الله عنه، وكان سببُ ذلك أنَّه كان بالشام فاختلف مع معاويةَ في تأويلِ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾ [التوبة: ٣٤]. فقال معاويةُ: نزلت في أهلِ الكتابِ خاصَّةً، وقال أبو ذر: نزلت فيهم وفينا، فكتب معاويةُ إلى عثمان، فأرسل إلى أبي ذرٍّ، فحصلت منازعةٌ أدَّت إلى انتقالِ أبي ذَرٍّ عن المدينةِ فسكن الرَّبَذَةَ

(١) «البخاري» (١١٨).
(٢) «فتح الباري» (١/ ٢٥٩).
(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه»، في كتاب العلم، باب العلم قبل القول والعمل، «صحيح البخاري» (١/ ٣٨).

-بفتحِ الراءِ والموحدةِ والذالِ المعجمة- إلى أن مات. رواه النسائي.

وفيه دليلٌ على أنَّ أبا ذرٍّ كان لا يرى طاعةَ الإمامِ إذا نهاه عن الفُتيا؛ لأنَّه كان يرى أنَّ ذلك واجبٌ عليه لأمرِ النبيِّ ﷺ بالتبليغِ عنه، ولعلَّه- أيضًا- سَمِعَ الوعيدَ في حقِّ مَنْ كَتَمَ علمًا يعلمه.

«**وَالصَّمْصَامَةُ**» -**بمهملتين الأولى مفتوحةٌ**-: هو السيفُ الصارمُ الذي لا ينثني، وقيل: الذي له حَدٌّ واحدٌ.

قوله: «هَذِهِ»، إشارةٌ إلى القَفَا، هو يذكَّرُ ويؤَنَّثُ، و«أُنْفِذُ» أي: أُمضِي، و«تُجيزُوا» -بضمِّ المثناةِ وكسرِ الجيمِ وبعد الياءِ زايٌ-، أي: تكملوا قتلي، ونكَّر «كلمةً» ليشملَ القليلَ والكثيرَ، والمرادُ به: يُبَلِّغ ما تحمَّله في كلِّ حالٍ ولا ينتهي عن ذلك ولو أشرفَ على القتلِ.

وفيه الحَثُّ على تعليمِ العلمِ واحتمالِ المشقَّةِ فيه، والصبرِ على الأذى طلبًا للثواب[(١)].

وقد حَرِصَ الأئمةُ- رحمهم اللَّهُ- على أن يذكِّروا الطلابَ في آدابِ الطلب ضَرورةَ التبليغِ، ويحذِّروهم خَطَرَ الكتمانِ، يقول ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَلْيُفِدْ- أي: طالبُ العلم- غيرَهُ من الطَّلَبَةِ، ولا يكتم شيئًا من العلمِ، فقد جاءَ الزَّجْرُ عن ذلك»[(٢)].

ومِمَّا جاءَ في الزجرِ عن ذلك ما سَلَفَ من آياتِ اللَّه تعالى، وهذه الأحاديثُ:

عن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِن نَارٍ**». رواه أبو داود (**٣٦٥٨**)، وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (**٢/ ٤١١**)، والترمذي (**٢٦٤٩**)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح سنن الترمذي» (**٢/ ٣٣٦**)، وابن ماجه (**٢٦٦**)، وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (**١/ ٤٩**).

---

(١) «فتح الباري» (١/ ١٩٤).

(٢) «الباعث الحثيث» (ص١٣٣).

وعن عبد اللَّه بن عمرو رضي الله عنهما أنَّ رسولَ اللَّه ﷺ قال: «**مَنْ كَتَمَ عِلْمًا أَلْجَمَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِن نَارٍ**». رواه ابنُ حِبَّان (٩٦)، والحاكم (١/ ١٠٢)، وقال: «هَذَا إسنادٌ صحيحٌ مِنْ حديث المصريين عَلَى شرطِ الشيخين وليس لَهُ علَّةٌ». ووافقه الذهبيُّ، وقال الشَّيْخُ أحمد شاكر في تعليقه عَلَى «صحيح ابن حبان» (١/ ٢٥٧)، ونأخذ عليهما - أي: الحاكم والذهبي - أنَّ عبد اللَّه بن عَيَّاشٍ لم يخرج لَهُ البخاريُّ شيئًا، وإنَّما أخرج لَهُ مسلمٌ، فالحديثُ عَلَى شرطِه وحده، والحديثُ ذكره المنذريُّ في «الترغيب» ونسبه لابن حبان والحاكم فقط، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٦٣)، وقال: رواه الطبراني في «الكبير»، و«الأوسط»، ورجالُهُ موثقون.

وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**مَثَلُ الَّذِي يَتَعَلَّمُ الْعِلْمَ ثُمَّ لا يُحَدِّثُ بِهِ، كَمَثَلِ الَّذِي يَكْنِزُ الْكَنْزَ فلا يُنْفِقُ مِنْهُ**». رواه الطبرانيُّ في «الأوسط»[1]، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الترغيب والترهيب»[2]. وفي «السلسلة الصحيحة» (٣٤٧٩).

قال الخطابيُّ رحمه الله: «الممسِكُ عن الكلامِ مُمَثَّلٌ بمَنْ أَلْجَمَ نَفْسَهُ، كما يُقَالَ: التَّقيُّ مُلْجَمٌ»[3]. وكقولِ النَّاس: كلَّم فلانٌ فلانًا فاحتجَّ عليه بحجَّةٍ ألجمته، أي: أسكتته.

والمعنى: أنَّ الملجِمَ لسانَه عن قولِ الحقِّ والإخبارِ عن العلمِ والإظهارِ له؛ يعاقبُ في الآخرةِ بلجامٍ من نارٍ.

وخرج هذا على معنى مشاكلة العقوبةِ للذنبِ، كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

وهذا في العلمِ الذي يلزمُه تعليمُهُ إيَّاه، ويتعيَّنُ عليه فرضُه، كمَنْ رأى كافرًا يريد الإسلامَ، ويقول: علِّموني ما الإسلامُ، وما الدينُ؟ وكَمَنْ رأى رجلًا حديثَ العهد بالإسلامِ لا يُحْسنُ الصلاةَ، وقد حَضَرَ وقتُها، يقول: علِّموني كيف أُصلِّي، وكمَنْ جاء

(١) «المعجم الأوسط» للطبراني ط. دار الحرمين (١/ ٢١٣) رقم (٦٨٩).
(٢) «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ١٦٠).
(٣) أي: تُلجمه تقواه، فهي له لجامٌ ممسكٌ عن الباطلِ واللَّغْوِ.

مستفتيًا في حلالٍ أو حرامٍ يقول: أفتوني، أرشدوني، فإنَّه يلزم في مثلِ هذه الأمورِ ألا يُمنعوا الجوابَ عمَّا سَألوا عنه من العلمِ، فَمَنْ فعل ذلك كان آثمًا مستحقًّا للوعيدِ والعقوبَةِ[١]، وليس كذلك الأمرُ في نوافلِ العلمِ التي لا ضرورةَ بالنَّاسِ إلى معرفتها.

وسُئِلَ الفضيلُ بن عياضٍ رَحِمَهُ اللَّهُ عن قوله ﷺ: «**طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ**»[٢]. فقال: «كلُّ عملٍ كان عليك فَرْضًا فطلبُ علمِهِ عليك فرضٌ، وما لم يكن العملُ به عليك فرضًا فليس طلبُ علمِهِ عليك واجبًا»[٣].

وأخرج ابنُ عبد البرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ **بسندِهِ عن سليم بن عامر قال:** «كان أبو أُمامةَ يحدِّثنا فيُكثرُ، ثمَّ يقول: عَقَلْتُم؟ فنقول: نعم، فيقول: بلِّغوا عنَّا فقد بلَّغناكم.

وعن ابن القاسم قال: كنَّا إذا ودَّعنا مالكًا يقول لنا: اتقوا اللَّهَ وانشروا هذا العلمَ وعلِّموه ولا تكتُموه»[٤].

ولكنَّ تبليغَ العلمِ إنَّما يكون لِمَنْ هو له أهلٌ، وأمَّا مَنْ ليس له بأهلٍ فيجوزُ كتمانُ العلمِ عنه.

قال الشيخُ أحمد شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ: «تبليغُ العلمِ واجبٌ ولا يجوزُ كتمانُه، ولكنَّهم خَصَّصوا ذلك بأهلِه، وأجازوا كتمانَه عَمَّنْ لا يكون مستعدًّا لأخذِهِ، وعمَّن يُصِرُّ على الخطأ بعد إخبارِهِ بالصوابِ.

---

(١) **قال الشيخ حامد الفقي** رَحِمَهُ اللَّهُ **في تعليقه**: «وكذلك إذا عمَّ الناسَ الجاهليةُ، وغلبت عليهم الخرافاتُ والبدع والعقائد الفاسدةُ، والعاداتُ الخبيثةُ -كشأنِ الناسِ اليوم فقد غلبت عليهم تقاليدُ الفرنجةِ وعقائدُ الكفرةِ وعاداتُهم ومبادئُهم الهادمةُ للدينِ والخُلقِ والكرامةِ- فإنَّ من أوجبِ الواجبِ على أهلِ العلمِ الموروثِ عن النبي ﷺ أن يبذلوا أقصى جهدهم في نشره وتعليمه أهليهم وإخوانهم وعشيرتهم وأممهم، لعلَّ اللَّه ينقذ الناس مما هم فيه من ضلالٍ وغضبٍ، واللَّه المستعان وحده».

(٢) حديثٌ صحيحٌ أخرجه ابن ماجه عن أنسٍ رضي الله عنه (٢٢٤)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح سنن ابن ماجه» (١/ ٤٤).

(٣) «مختصر سنن أبي داود» و«معالم السنن»، و«تهذيب ابن القيم»، تحقيق الشيخ أحمد شاكر، والشيخ حامد الفقي (٥/ ٢٥١).

(٤) «جامع بيان العلم» (١/ ١٢٣).

سُئِلَ بعضُ العلماءِ عن شيء من العلم، فلم يُجِبْ، فقال السائلُ: أمَا سَمِعْتَ الحديثَ: «**مَنْ عَلِمَ عِلْمًا فَكَتَمَهُ أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ من نَارٍ**»؟! فقال: اترك اللِّجَامَ واذهب، فإن جاء مَنْ يفقَهُ وكتمتُه فليلجمني به.

وقال بعضُهم: تصفَّحْ طُلاب علمِك، كما تتصفَّح طُلابَ حُرُمِكَ»[1].

* * *

(١) «الباعث الحثيث» (ص١٣٣).

٣- الْقَوْلُ عَلَى اللَّهِ بِلَا عِلْمٍ

القولُ على اللَّهِ بلا علمٍ هو عينُ الكَذِبِ عليه تعالى، ولم يُبح اللَّهُ ﷻ لأحدٍ أن يتقوَّلَ عليه، ولا أن يرفعَ إليه ما لم يَقُلْه، حتَّى قال عن خليلِهِ وصفيِّهِ محمدٍ ﷺ وقد عَصَمَهُ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤- ٤٧].

قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يقولُ تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا﴾. أي: محمد ﷺ لو كان -كما يزعمون- مُفتريًا علينا فزاد في الرسالةِ أو نَقص منها أو قال شيئًا من عنده فَنَسَبَهُ إلينا وليس كذلك؛ لعاجلناه بالعقوبة، ولهذا قال تعالى: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾. قيل معناه: لانتقمنا منه باليَمِين لأنَّها أشدُّ في البطشِ، وقيل: لأخذنا منه بيمينه، ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾. قال ابن عباس: هو نِيَاطُ القلبِ، وهو العِرْقُ الذي القلبُ معلَّقٌ فيه.

وقولهُ تعالى: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾. أي: فما يقدرُ أحدٌ منكم على أن يحجزَ بيننا وبينه إذا أردنا به شيئًا من ذلك.

والمعنى في هذا: بل هو صادقٌ بارٌّ راشدٌ؛ لأن اللَّه تعالى مُقَرِّرٌ له يبلِّغه عنه ومؤيِّدٌ له بالمعجزاتِ الباهراتِ والدلالاتِ القاطعات»[(١)].

وقال القاسميُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ﴾. أي: افترى علينا. وسمَّى الكذبَ تقوُّلًا؛ لأنَّه قولٌ مُتَكَلَّفٌ، كما تُشْعِرُ به صيغةُ التفعُّلِ.

و﴿الْأَقَاوِيلِ﴾. إمَّا جمعُ (قولٍ) على غيرِ قياسٍ، أو جمعُ الجمعِ كالأناعيم، جمعُ أقوالٍ وأنعامٍ، قيل: تسميةُ الأقوالِ المفتراةِ أقاويلَ تحقيرٌ لها، كأنَّها جمعُ أُفْعُولَةٍ من القول، كالأضاحيكِ.

﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾. قال ابنُ جريرٍ: أي: لأخذنا منه بالقوةِ

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٤/ ٤١٥).

منَّا والقدرةِ، ثمَّ لقطعنا منه نِياطَ القلبِ. وإنما يعني بذلك أنَّه كان يعاجله بالعقوبةِ، ولا يؤخِّره بها.

وقد قيل: إنَّ معنى قوله: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾. لأخذنا مِنهُ باليدِ اليمنى من يديه، قال: وإنَّما ذلك كقولِ ذي السلطانِ إذا أرادَ الاستخفافَ ببعضِ مَنْ بين يديه لبعضِ أعوانِه: خذ بيديه، فأقمه، وافعل به كذا وكذا، قالوا: وكذلك معنى قوله: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾. أي: لأهنَّاه، كالذي يفعلُ بالذي وَصَفْنَا حالَهُ.

قولُه تعالى: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾. أي: ليس أحدٌ منكم يحجزنا عنه، ويحول بيننا وبين عقوبتِهِ، لو تقوَّل علينا»[١].

وقال الزمخشريُّ: «المعنى: لو ادَّعى علينا شيئًا لم نقله لقتلناه صَبْرًا[٢]، كما يفعل الملوكُ بمَنْ يتكذَّبُ عليهم، معاجَلةً بالسخط والانتقام، فصوَّر قتلَ الصَّبْرِ بصورتِهِ ليكونَ أهولَ، وهو أن يُؤخذَ بيدِهِ، وتُضربَ رقبتُه، وخَصَّ اليمينَ عن اليسارِ؛ لأنَّ القاتلَ إذا أرادَ أن يُوقعَ الضربَ في قفاه أخذَ بيسارِهِ، وإذا أرادَ أن يُوقعَهُ في جِيدِهِ، وأن يَكْفَحَهُ بالسيفِ، وهو أشدُّ على المصبورِ، لنظرِهِ إلى السيفِ، أخذ بيمينِهِ.

فمعنى ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾: لأخذنا بيمينِهِ، كما أنَّ قولَه: ﴿لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾. لقطعنا وتينَهُ، وهذا بيِّنٌ»[٣].

قال القاسميُّ: «ما قرَّره الزمخشريُّ أبلغُ في المرادِ، وهو بيانُ المعاقبةِ بأشدِّ العقوبةِ، إذ على الأولِ يفوت التصويرُ والتفصيلُ والإجمالُ؛ لأنَّ قولَه: ﴿بِٱلْيَمِينِ﴾ بعد ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ﴾ بيانٌ بعد الإبهامِ، ويصيرُ قوله: ﴿مِنْهُ﴾ زائدًا من غيرِ فائدةٍ، ويرتكب المجاز من غير فائدةٍ أيضًا»[٤].

---

(١) «محاسن التأويل» للقاسمي (٩/ ٣١٤).

(٢) القتل صبرًا: كقتل الأسير المقدور عليه ونحوه. «معجم لغة الفقهاء» للدكتور محمد روَّاس، والدكتور حامد صادق. (ص٣٥٧).

(٣) «الكشاف» للزمخشري (٤/ ١٥٥).

(٤) «محاسن التأويل» للقاسمي (٩/ ٣١٥).

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

قال القرطبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قولُه تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ ابتداءٌ وخبرٌ، أي: لا أحدَ أظلمُ، ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ أي: اختلقَ، على اللَّهِ كَذِبًا، ﴿أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ﴾ فزعم أنَّه نبيٌّ، ﴿وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾.

قال القرطبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: ومن هذا النَّمَطِ مَنْ أعْرَضَ عن الفقهِ والسُّننِ وما كان عليه السَّلَفُ من السُّنَنِ فيقول: وَقَعَ في خاطري كذا، أو: أخبرني قَلْبِي بكذا. فيحكمون بما يقع في قلوبهم ويغلب عليهم من خواطرهم، ويزعمون أنَّ ذلك لصفائِهَا من الأكْدَارِ وخُلوِّها عن الأغيار، فتتجلَّى لهم العلومُ الإلهيةُ والحقائق الربَّانيَّةُ، فيقفون على أسرارِ الكلياتِ ويعلمون أحكامَ الجزئياتِ فيستغنون بها عن أحكامِ الشرائِع الكلياتِ، ويقولون: هذه الأحكامُ الشرعيةُ العامَّةُ، إنَّما يُحْكَمُ بها على الأغبياءِ والعامَّةِ، وأمَّا الأولياءُ وأهلُ الخصوصِ، فلا يحتاجون لتلك النصوصِ»[١].

وقال السعديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يقول تعالى: لا أحدَ أعظمُ ظلمًا ولا أكبرُ جُرْمًا ممَّن كَذَبَ على اللَّهِ بأن نَسَبَ إلى اللَّهِ قولًا أو حُكْمًا وهو تعالى بريءٌ منه، وإنَّما كان هذا أظلمَ الخلْقِ؛ لأنَّ فيه من الكذبِ وتغيير الأديانِ أصولِها وفروعها ونسبةِ ذلك إلى اللَّهِ تعالى ما هو من أكبرِ المفاسدِ»[٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَـٰذَا حَلَـٰلٌ وَهَـٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ١١٦، ١١٧].

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (٧/ ٤١).
(٢) «تيسير الكريم الرحمن» للسعدي (ص٢٢٦).

قالَ ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «نهى تعالى عن سلوكِ سبيلِ المشركين، الذي حلَّلوا وحرَّموا بمجردِ ما وصفوه واصطلحوا عليه من الأسماءِ بآرائهم.

ويدخل في هذا كلُّ مَنْ ابتدعَ بِدْعَةً ليس له فيها مُسْتَنَدٌ شرعيٌّ، أو حلَّلَ شيئًا ممَّا حرَّمَ اللَّهُ، أو حرَّمَ شيئًا ممَّا أباحَ اللَّهُ بمجرَّدِ رأيِهِ أو تشهِّيه. ثمَّ توعَّد على ذلك فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ﴾. أي: في الدنيا وفي الآخرة، أمَّا في الدنيا فمتاعٌ قليلٌ، وأمَّا في الآخرةِ فلهم عذابٌ أليمٌ»[1].

ويدخلُ في الكذبِ على اللَّهِ تعالى والقولِ عليه بلا علمٍ: الكذبُ على رسولِهِ ﷺ؛ لأن النبيَّ ﷺ لا ينطق عن الهوى، وإنَّما هو مُبَلِّغٌ عن ربِّه سبحانه، فمَنْ كَذَبَ على النبيِّ ﷺ فكأنَّما كذبَ على اللَّهِ تعالى.

وقد حذَّرَ النبيُّ ﷺ من الكذبِ عليه، وبيَّن أنَّ الكذبَ عليه ﷺ لَيْسَ كالكذبِ على غيرِهِ؛ لأنَّ الكذبَ عليه ﷺ يجعل دينًا مَا لَيْسَ بدينٍ، وينفي عن الدين مَا هو منه، ويحلُّ الحرامَ، ويُحرِّم الحلالَ، وكفى بذلك إثمًا مبينًا وإفكًا عظيمًا.

قَالَ ﷺ فيما يرويه عنه المغيرةُ بن شُعبةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبٍ عَلَى أَحَدٍ، مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِن النَّارِ**». متفقٌ عليه[2].

«**لَيْسَ كَكَذِبٍ عَلَى أَحَدٍ**»: لأنَّه كذبٌ في التشريعِ، وأثرُهُ عامٌّ على الأمَّةِ، فإثمُهُ أكبرُ وعقابُهُ أشدُّ، «**فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ**»: فليتخذ لنفسهِ مسكنًا[3].

وقد وَرَدَ حديثُ التحذيرِ من الكذب عليه ﷺ متواترًا عنه، وفي هذا إقامةٌ للحُجَّةِ على كلِّ مَنْ سَوَّلت لَهُ نفسُه أن يُسْنِدَ إلى النبيِّ ﷺ مَا هو منه بريءٌ، أو يُقَوِّله مَا لم يقله.

والخبرُ المتواترُ هو: مَا رواه عددٌ كثيرٌ تُحيل العادةُ تواطؤهم واتفاقهم على الكذبِ؛ أي: هو الحديثُ أو الخبرُ الذي يرويه في كلِّ طبقةٍ من طبقاتِ سندِهِ رواةٌ كثيرون يحكم العقلُ

(١) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٢/ ٥٩٠).
(٢) رواه البخاري (١٢٢٩)، ومسلم (٤).
(٣) انظر: تعليق د. مصطفى البغا، على «صحيح البخاري» (١/ ٤٣٤).

عادة باستحالةِ أن يكون أولئك الرواةُ قد اتفقوا على اختلاقِ هذا الخبر.

والمتواترُ يفيد العلمَ الضروريَّ، أي: اليقيني الذي يضطر الإنسانُ إلى التصديقِ به تصديقًا جازمًا كمن يشاهد الأمرَ بنفسِه، كيف يتردَّدُ في تصديقه؟ فكذلك الخبر المتواترُ؛ لذلك كَانَ المتواترُ كلُّه مقبولًا، ولا حاجةَ إلى البحثِ عن أحوالِ رواتِهِ[1].

عن عليٍّ رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رسولَ اللَّه ﷺ يقول: «**لا تكذِبُوا عَلَيَّ؛ فإنَّه مَنْ يكذِبْ عَلَيَّ فلْيَلِجِ النَّارَ**». متفقٌ عليه[2].

قال الحافظُ رحمه الله: «قولُه: «**لا تَكْذِبُوا عَلَيَّ**». هو عامٌّ في كلِّ كاذبٍ، مُطْلَقٌ في كلِّ نوعٍ من الكذبِ، ومعناه: لا تنسبوا الكذبَ إليَّ.

ولا مفهومَ لقولِهِ: «**عليَّ**». لأنَّه لا يُتَصَوَّرُ أن يُكْذَبَ له؛ لنهيه عن مُطْلَقِ الكذبِ.

وقد اغترَّ قومٌ من الجهلةِ فوضعوا أحاديثَ في الترغيبِ والترهيبِ وقالوا: نحن لم نكذب عليه، بل فعلنا ذلك لتأييدِ شريعتِهِ، وما دَرَوْا أنَّ تقويلَهُ ﷺ ما لم يقل يقتضي الكذبَ على اللَّهِ تعالى؛ لأنه إثباتُ حكمٍ من الأحكامِ الشرعيةِ سواءٌ كان في الإيجابِ أم في الندبِ، وكذا مقابلهما وهو الحرامُ والمكروه.

ولا يُعْتَدُّ بمَنْ خالفَ ذلك من الكَرَّامِيَّةِ حيث جَوَّزُوا وضعَ الكذبِ في الترغيبِ والترهيبِ في تثبيتِ ما وَرَدَ في القرآنِ والسنَّةِ واحتجَّ بأنَّه كَذِبٌ له لا عليه، وهو جهلٌ باللغةِ العربيةِ.

وقوله: «**فَلْيَلِجِ النَّارَ**». جعل الأمرَ بالولوجِ مُسَبَّبًا عن الكذبِ؛ لأنَّ لازمَ الأمرِ الإلزامُ، والإلزامُ بولوجِ النَّار سببُه الكذبُ عليه، أو هو بلفظِ الأمرِ ومعناه الخبرُ، ويؤيده روايةُ مسلمٍ من طريقِ غُنْدَرٍ عن شعبةَ بلفظِ: «**مَنْ يَكْذِبْ عَلَيَّ يَلِجِ النَّارَ**»[3][4].

---

(١) انظر: «تيسير مصطلح الحديث». د. محمود الطحان (ص١٧).
(٢) رواه البخاري (١٠٦)، ومسلم (١).
(٣) مقدمة صحيح مسلم (١/ ٩).
(٤) رواه البخاري (١٠٨)، ورواه مسلمٌ في مقدمة صحيحه (١/ ١٠).

وعن أنسٍ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «مَنْ تَعَمَّدَ عَلَيَّ كَذِبًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» متفقٌ عليه[1].

قال الحافظُ رحمه الله: «قولُه: «فَلْيَتَبَوَّأْ». أي: فليتخذ لنفسِهِ منزلًا، يقال: تَبَوَّأَ الرجلُ المكانَ. إذا اتخذه سَكَنًا، وهو أمرٌ بمعنى الخبرِ، أو بمعنى التهديد، أو بمعنى التهكُّم، أو دعاءٌ على فاعلِ ذلك، أي: بَوَّأَهُ اللَّهُ ذلك. وقال الكِرْمَانيُّ: يحتملُ أن يكون الأمرُ على حقيقتِهِ، والمعنى: مَنْ كذب عليَّ فيأمر نفسَهُ بالتَّبَوُّءِ، قال- أي الحافظُ-: وأوَّلُها -أي: أولُ هذه الأقوالِ- أَوْلاهَا»[2].

وقال النوويُّ رحمه الله: «قوله ﷺ: «فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ». قال العلماءُ: معناه: فلينزل. وقيل: فليتخذ منزلَه من النَّارِ. وقال الخطابيُّ: أصلُهُ من مَبَاءَةِ الإبلِ وهي أعطانُهَا، ثُمَّ قيل: إنَّه دعاءٌ بلفظِ الأمرِ، أي: بَوَّأَهُ اللَّهُ ذلك، وكذا «فَلْيَلِجِ النَّارَ». وقيل: هو خبرٌ بلفظِ الأمرِ، أي معناه: فقد استوجب ذلك، فليوطِّن نفسَه عليه.

ومعنى الحديثِ: أنَّ هذا جزاؤُه، وقد يُجازَى به وقد يعفو اللَّهُ الكريمُ عنه، ولا يُقطع عليه بدخولِ النَّارِ، وهكذا سبيلُ كلِّ ما جاءَ من الوعيدِ بالنَّارِ لأصحابِ الكبائرِ، فكلُّها يُقالُ فيها: هذا جزاؤه، وقد يُجازى وقد يُعفى عنه، ثمَّ إن جُوزيَ وأُدخلَ النَّار فلا يَخْلُدُ فيها، بل لابدَّ من خروجِهِ منها بفضلِ اللَّهِ ورحمتِهِ، ولا يخلدُ في النَّارِ أحدٌ مات على التوحيدِ، وهذه قاعدةٌ متفقٌ عليها عند أهل السنَّةِ»[3].

وقد حرَّمَ اللَّه ﷻ القولَ عليه بلا علم تحريمًا صريحًا، فقال بعد أن بيَّنَ أنواعَ المحرَّمات، وبعضُهَا أغلظُ من بعض: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

قال ابنُ القيِّم رحمه الله: «القولُ على اللَّهِ بلا علم، هو أشدُّ هذه المحرَّماتِ تحريمًا، وأعظمُهَا إثمًا، ولهذا ذُكر في المرتبةِ الرابعةِ من المحرَّمات التي اتفقت عليها الشرائع

(١) «فتح الباري» (١/ ٢٤٣).
(٢) «فتح الباري» (١/ ٢٤١).
(٣) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١/ ٦٨).

والأديانُ، ولا تُباح بحالٍ، بل لا تكون إلا محرَّمةً، وليست كالميتةِ والدمِ ولحمِ الخنزيرِ، الذي يُباح في حالٍ دون حالٍ.

فإنَّ المحرَّماتِ نوعان:

- محرَّمٌ لذاتِهِ لا يُباحُ بحالٍ.

- ومحرَّمٌ تحريمًا عارضًا في وقتٍ دون وقتٍ.

قال اللَّهُ تعالى في المحرَّمِ لذاتِهِ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾. ثمَّ انتقل منه إلى ما هو أعظمُ منه فقال: ﴿وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾. ثمَّ انتقل منه إلى ما هو أعظمُ منه فقال: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾. ثمَّ انتقل منه إلى ما هو أعظمُ منه فقال: ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. فهذا أعظمُ المحرَّماتِ عند اللَّهِ وأشدُّها إثمًا، فإنَّه يتضمَّنُ الكذبَ على اللَّهِ، ونسبتَه إلى ما لا يليقُ به، وتَغييرَ دينِه وتَبديلَه، ونفيَ ما أثبتَهُ وإثباتَ ما نفاه، وتحقيقَ ما أَبْطَلَهُ وإبطالَ ما حقَّقَهُ، وعداوةَ مَنْ والاه وموالاةَ مَنْ عاداه، وحبَّ ما أبغضه وبغضَ ما أحبَّه، ووصفَه بما لا يليقُ به في ذاتِهِ وصفاتِهِ وأقوالِهِ وأفعالِهِ.

فليس في أجناسِ المحرَّماتِ أعظمُ عند اللَّهِ منه، ولا أشدُّ إثمًا، وهو أصلُ الشركِ والكفرِ، وعليه أُسِّسَتِ البدعُ والضلالاتُ، فكلُّ بدعةٍ مُضِلَّةٍ في الدينِ أساسُها القولُ على اللَّهِ بلا علمٍ.

ولهذا اشتدَّ نكيرُ السَّلَفِ والأئمةِ لها، وصاحوا بأهلِهَا من أقطارِ الأرضِ، وحذَّروا فتنتَهُم أشدَّ التحذيرِ، وبالغوا في ذلك ما لم يبالغوا مثلَه في إنكارِ الفواحشِ، والظلمِ والعدوانِ، إذ مَضَرَّةُ البدعِ وهدمُها للدينِ ومنافاتُها له أشدُّ.

وقد أنكر اللَّهُ تعالى على مَنْ نسبَ إلى دينِهِ تحليلَ شيءٍ أو تحريمَه من عنده بلا برهانٍ من اللَّه، فقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦].

فكيف بمَنْ نَسَبَ إلى أوصافِه ﷻ ما لم يصف به نفسهُ؟ أو نفى عنه منها ما وصفَ بهِ نفسَه؟!

قال بعضُ السَّلَفِ: لِيَحْذَر أحدُكم أن يقول: أحلَّ اللَّهُ كذا، وحرَّمَ اللَّهُ كذا، فيقول اللَّهُ: كذبتَ، لم أُحِلَّ هذا، ولم أُحَرِّمْ هذا.

يعني التحليلَ والتحريمَ بالرأي المجرَّدِ، بلا برهانٍ من اللَّهِ ورسولِهِ.

وأصلُ الشركِ والكفرِ: هو القولُ على اللَّهِ بلا علمٍ؛ فإنَّ المشركَ يزعُمُ أنَّ مَن اتخذَهُ معبودًا من دون اللَّهِ يقرِّبُهُ إلى اللَّهِ، ويشفعُ له عنده، ويقضي حاجتَهُ بواسِطَتِهِ، كما تكون الوسائطُ عند الملوكِ، فكلُّ مشركٍ قائلٌ على اللَّهِ بلا علمٍ، دون العكس، إذ القولُ على اللَّهِ بلا علمٍ قد يتضَّمنُ التعطيلَ والابتداعَ في دينِ اللَّهِ، فهو أعمُّ من الشركِ، والشركُ فردٌ من أفرادِهِ.

ولهذا كان الكذبُ على رسولِ اللَّهِ ﷺ موجبًا لدخولِ النَّارِ، واتخاذِ منزلِهِ منها مُبَوَّأً، وهو المنزلُ اللازمُ الذي لا يفارقُهُ صاحبُه؛ لأنَّه مُتَضَمِّنٌ للقولِ على اللَّهِ بلا علمٍ، كصريحِ الكذبِ عليه؛ لأنَّ ما انضافَ إلى الرسولِ فهو مَضافٌ إلى المرسِلِ، والقولُ على اللَّهِ بلا علمٍ صريحُ افتراءِ الكذبِ عليه، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: ٩٣]؟!

فذنوبُ أهلِ البدعِ كلُّها داخلةٌ تحت هذا الجنسِ، فلا تتحقَّقُ التوبةُ منه إلا بالتوبةِ من البدعِ، وأنَّى بالتوبةِ منها لِمَنْ لم يعلم أنَّها بدعةٌ، أو يظنُّها سنَّةً، فهو يدعو إليها، ويحضُّ عليها؟ فلا تنكشفُ لهذا ذنوبُهُ التي تجب عليه التوبةُ منها إلا بتضلُّعِهِ من السنَّةِ، وكثرةِ اطلاعِهِ عليها، ودوامِ البحثِ عنها والتفتيشِ عليها، ولا ترى صاحبَ بدعةٍ كذلك أبدًا»[1].

«وقد حَرَّمَ اللَّه- سبحانه- القولَ عليه بغيرِ علمٍ في الفُتيا والقضاءِ، وجَعَلَهُ من أعظمِ المحرَّماتِ، بل جَعَلَهُ في المرتبةِ العُليا منها، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

فَرَتَّبَ المحرَّماتِ أربعَ مراتبَ، وبدأ بأسهلِهَا وهو الفواحشُ، ثمَّ ثنَّى بما هو أشد

(١) «مدارج السالكين» لابن القيم، تحقيق محمد حامد الفقي (١/ ٣٧٢).

تحريمًا منه وهو الإثمُ والظلمُ، ثمَّ ثَلَّثَ بما هو أعظمُ تحريمًا منهما وهو الشركُ به سبحانه، ثمَّ رَبَّعَ بما هو أشدُّ تحريمًا من ذلك كلِّه وهو القولُ على اللَّهِ بلا علمٍ، وهذا يعمُّ القولَ عليه سبحانه بلا علمٍ في أسمائِهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ وفي دينِه وشرعِهِ.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ١١٦، ١١٧].

فتقدَّمَ إليهم سبحانه بالوعيد على الكذبِ عليه في أحكامِهِ، وقولِهِم لما لم يحرِّمه: هذا حرامٌ، ولما لم يحلَّه: هذا حلالٌ، وهذا بيانٌ منه سبحانه أنَّه لا يجوز للعبدِ أن يقولَ هذا حلالٌ وهذا حرامٌ إلا بما عَلِمَ أنَّ اللَّهَ سبحانه أحلَّه وحرَّمه.

وقال بعضُ السَّلَف: ليتَّقِ اللَّهَ أحدُكم أن يقولَ: أَحَلَّ اللَّهُ كذا، وحَرَّمَ كذا، فيقول اللَّهُ له: كذبتَ، لم أُحِلَّ كذا، ولم أُحَرِّم كذا.

فلا ينبغي أن يقول لما لم يعلم ورودَ الوحي المبينِ بتحليلِهِ وتحريمِهِ: أحلَّه اللَّهُ وحرَّمه اللَّهُ، لمجرَّدِ التقليدِ أو بالتأويلِ.

وقد نهى النَّبيُّ ﷺ في الحديث الصحيح أميرهُ بُرَيْدَةَ أن يُنْزِلَ عدوَّه إذا حَاصَرَهُمْ على حُكْمِ اللَّه، وقال: «**فَإِنَّكَ لا تَدْرِي أَتُصيبُ حُكمَ اللَّهِ فيهمْ أَمْ لا، وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلى حُكْمِكَ وَحُكْمِ أَصْحابِكَ**»[1].

فتأمَّل كيف فرَّقَ بين حُكْمِ اللَّهِ وحُكْمِ الأميرِ المجتهدِ، ونهى أن يسمَّى حكمُ المجتهدين حكمَ اللَّهِ.

ومن هذا لَمَّا كتبَ الكاتبُ بين يدي أميرِ المؤمنين عمرَ بنِ الخطابِ رضي الله عنه حكمًا حكمَ بهِ، فقال: هذا ما أرى اللَّهُ عمرَ أميرَ المؤمنين، فقال: لا تقل هكذا، ولكن قل: هذا ما رأى أميرُ المؤمنين عمرُ بنُ الخطابِ.

وقال ابنُ وهبٍ سمعتُ مالكًا يقول: لم يكن من أمرِ النَّاسِ ولا مَنْ مضى مِنْ سَلَفِنَا ولا

(١) رواه مسلم (١٧٣١).

أدركْتُ أحدًا اقْتُدِيَ به يقولُ في شيْءٍ: هذا حلالٌ، وهذا حرامٌ، وما كانوا يجترئون على ذلك، وإنَّما كانوا يقولون: نَكْرَهُ كذا، ونرى هذا حسنًا، فينبغي هذا، ولا نرى هذا.

ورواه عنه عتيقُ بنُ يعقوب، وزاد: ولا يقولون: حلالٌ وحرامٌ، أمَا سمعتَ قولَ اللَّهِ تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩]. الحلالُ ما أحلَّهُ اللَّهُ ورسولُه، والحرامُ ما حرَّمه اللَّهُ ورسولُه»[١].

وقال الشيخ حامد الفقي رَحِمَهُ اللَّهُ **في هذا المعنى نفسِهِ**: «إنَّ أوَّلَ خُطوةٍ إلى الشركِ: هي القولُ على اللَّهِ بلا علمٍ، وذلك بزعمِ أنَّ اللَّهَ -سبحانه- قد سدَّ بابَ الفقهِ في كلامِهِ ورسالةِ رُسُلِهِ على العامَّةِ، وفَتَحَهُ لطائفةٍ خاصةٍ أو لقلَّةٍ من النَّاسِ، زعموهم رجالَ الدين المحتكرين له صناعةً، وأنَّ فرضًا على العامَّة تقليدُ هؤلاء بلا علمٍ ولا بصيرةٍ في الدين، فلمَّا زَيَّنَ الشيطانُ لهم هذا، وقَبِلُوهُ، أثمر اتخاذَ أحبارِهِم ورهبانِهم أربابًا من دون اللَّه، فشرعوا لهم من الدينِ ما لم يأذن به اللَّهُ، وسَوَّوْهُم بربِّ العالمين في حقِّ التشريعِ لما يُصْلِحُ النَّاسَ، ويهديهم في معاشِهم ومعادهم إلى التي هي أقومُ.

وما زالوا يقولون في اللَّهِ وعلى اللَّهِ بلا علمٍ؛ حتى اعتقدوا لبعضِ البشرِ القداسةَ الذاتيةَ، وأنَّ فيهم شيئًا من خواصِّ الرَّبِّ وصفاتِهِ -سبحانه- سمَّاه الشيطانُ لهم نورًا.

فأثمر ذلك اتخاذَ موتاهم أولياءَ من دون اللَّه، يقيمون على قبورهم وآثارهم القِبَابَ والأصنامَ والأوثانَ؛ يعبدونَهُم من دونِ اللَّهِ بجميعِ أنواعِ العباداتِ التي شَرَعَهَا لهم أربابُهم من الأحبارِ والرهبانِ، فهما متلازمان.

والطريقُ تبدأ من التقليدِ الأعمى للآباء والشيوخِ، واستحسانِ الرأي والهوى، وتمشي حتى تَرُوجَ البدعُ، ثمَّ القول في اللَّهِ وعلى اللَّهِ بغير علم، ثمَّ اتخاذ الموتى آلهةً من دونه، وأبناءَه؛ لأنَّهم نورٌ انبثقَ منه، فتعطيهم من القلوبِ والأعمالِ ما لا يليقُ إلا بالقويِّ العزيز»[٢].

---

(١) «إعلام الموقعين عن رب العالمين» لابن القيم (١/ ٣٨).
(٢) «مدارج السالكين» (ج١) هامش (ص٣٧٣).

٤- الدَّعْوَى فِي الْعِلْمِ وَالْقُرْآنِ

العلمُ مِنْحَةٌ مِنَ اللَّهِ ﷻ لأصحابِ القلوبِ النَّقِيَّةِ الذين لا يريدون عُلُوًّا في الأرض ولا فسادًا.

وهو محنةٌ للذين يبتغون بأعمالِهم غيرَ وجهِ اللَّهِ، ويريدون بسعيهم غيرَ مقصدِهِ، لذلك تكْثُرُ منهمُ الدَّعَاوَى ويتأَتَّى منهمُ الفخرُ، ولو فطنوا لعادوا إلى أنفسهم فعلموا أنَّ الأمرَ كلَّه للَّهِ، وأنَّ اللَّهَ أخرجَ النَّاسَ من بطونِ أُمَّهاتِهِم لا يعلمون شيئًا، ثمَّ هو علَّمهم بما جعل لهم من أدواتِ العلمِ، وبما رزقهم من منحةِ الفهم، وبما مَنَّ عليهم بعد ذلك من تذليلٍ للعوائقِ القائمةِ في سبيلِ الطَّلَبِ، ومن صَرْفٍ للموانعِ الشاغلةِ عن التحصيلِ.

ذَكَرَ تعالى مِنَّتَهُ على عبادِهِ في إخراجِهِ إياهم من بطونِ أمَّهاتِهِم لا يعلمون شيئًا، ثمَّ بعد هذا يرزقهم السمعَ الذي يُدركون به، والأبصارَ التي بها يحسُّون المرئياتِ، والأفئدةَ وهي العقولُ، وهذه القُوى، والحواسُّ تحصلُ للإنسانِ على التدرِيجِ قليلًا قليلًا، كلَّما كَبُرَ زيدَ في سمعِهِ وبصرِهِ وعقلِهِ حتى يبلغَ أشدَّه.

وإنَّما جعل اللَّه تعالى هذه في الإنسانِ ليتمكَّنَ بها من عبادةِ ربِّه تعالى، فيستعينَ بكلِّ جارحةٍ وعضوٍ وقوَّةٍ على طاعةِ مولاه[1].

فينبغي للمسلم أن يزدادَ قربًا من ربِّه كلَّما ازدادَ علمًا، وهذا من أدبِ العالِمِ، وحقيقٌ به أن يكونَ كذلك؛ إذ العلمُ داعيةٌ إلى الخضوعِ للَّه، وتركِ الدعوى، وعَدَمِ ذَوْقِ طَعْمِ النَّفْسِ.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

قال القرطبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ذكر تعالى أنَّ مِنْ نعمِهِ أن أخرجكم من بطون أمَّهاتِكم أطفالًا

---

(١) انظر: «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٢/ ٥).

لا علمَ لكم بشيءٍ، ثمَّ ابتدأ فقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾. أي: التي تعلمون بها وتُدركون»[١].

قال أبو عمر بنُ عبد البرِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من أدبِ العالمِ تَرْكُ الدعوى لما لا يُحسنُه، وتَرْكُ الفخرِ بما يُحسنه، إلا أن يضطر إلى ذلك، كما اضطر يوسفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حين قال: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥]. وذلك أنَّه لم يكن بحضرته مَنْ يعرف حقَّه فَيُثني عليه بما هو فيه ويعطيه بقسطِهِ، ورأى أنَّ ذلك المقعدَ لا يقعدهُ غيرُهُ من أهلِ وقتِهِ إلا قَصَّرَ عمَّا يجبُ للَّهِ من القيام به من حقوقِهِ، فلم يسعه إلا السعي في ظهورِ الحقِّ بما أمكنه، فإذا كان ذلك فجائزٌ للعالِمِ حينئِذٍ الثناءُ على نفسِهِ والتنبيهُ على موضعِهِ، فيكون حينئذٍ يُحَدِّثُ بنعمةِ ربِّه عنده على وجهِ الشكرِ لها.

وأفضحُ ما يكون للمرءِ دعواه بما لا يقوم به، وقد عاب العلماءُ ذلك قديمًا وحديثًا، وقالوا فيه نظمًا ونثرًا»[٢].

وفي تأويلِ قولِهِ تعالى: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾.

قال القرطبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «دلَّت الآيةُ على جوازِ أن يَخْطُبَ الإنسانُ عملًا يكون له أهلًا، فإن قيل: فقد روى مسلمٌ عن عبدِ الرحمنِ بنِ سَمُرَةَ قالَ: قالَ لي رسولُ اللَّهِ ﷺ: **«يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ، لا تَسْأَلِ الإِمَارَةَ؛ فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا، وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَن غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا»**[٣].

فالجوابُ:

أولًا: أنَّ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ إنَّما طلبَ الوَلايَةَ؛ لأَنَّه عَلِمَ أنَّه لا أحدَ يقومُ مقامَهُ في العدلِ والإصلاحِ وتوصيلِ الفقراءِ إلى حقوقهم، فرأى أنَّ ذلك فرضٌ متعيَّنٌ عليه، فإنَّه لم يكن هناك غيره، وكذا الحكمُ اليوم، لو علم إنسانٌ من نفسِهِ أنَّه يقومُ بالحقِّ في القضاءِ أو

(١) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (١٠/ ١٥٨).
(٢) «جامع بيان العلم» (١/ ١٤٥).
(٣) رواه البخاري (٦٢٤٨)، ومسلم (١٦٥٢)، و«**وُكِلْتَ إليها**»: أُسْلِمْتَ إليها، ولم يكن معك إعانةٌ.

الحِسْبَةِ ولم يكن هناك مَنْ يصلحُ ويقومُ مقامه تعيَّنَ ذلك عليه، وَوَجَبَ أن يتولاها ويسألَ ذلك، ويُخبرَ بصفاتِهِ التي يستحقُّهَا بها من العلمِ والكفايةِ وغيرِ ذلك، كما قال يوسفُ عليه السلام، فأمَّا لو كان هناك مَنْ يقومُ بها ويصلحُ لها وَعَلِمَ بذلك فالأولَى ألا يطلبَ، لقوله ﷺ لعبدِ الرحمنِ: «**لا تَسْأَلِ الإمَارَةَ**». فإنَّ في سؤالِها والحرصِ عليها مع العلمِ بكثرةِ آفاتِها وصعوبةِ التخلُّصِ منها دليلٌ على أنَّه يطلُبُها لنفسِهِ ولأغراضِهِ، ومَنْ كان هكذا يوشِكُ أن تغلبَ عليه نفسُهُ فيهلِكَ، وهذا معنى قولِهِ ﷺ: «**وُكِلَ إِلَيْهَا**». ومَنْ أباها لعلمِهِ بآفاتِها، ولخوفِهِ من التقصيرِ في حقوقِها فَرَّ منها، ثمَّ إن ابْتُلِيَ بها فَيُرْجَى له التخلُّصُ منها، وهو معنى قوله: «**أُعِينَ عَلَيْهَا**».

الثاني: أنَّه لم يقل: إني حسيبٌ كريمٌ، وإن كان كما قال النبيُّ ﷺ: «**الْكَرِيمُ ابنُ الكَرِيمِ ابْنِ الكَرِيمِ ابْنِ الْكَرِيمِ: يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْراهِيمَ** عليهم السلام»[1]. ولا قال: إنِّي جميلٌ مليحٌ، وإنَّما قال: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾. فسألها بالحفظ والعلم، لا بالنَّسَبِ والجمالِ.

الثالث: إنَّما قال ذلك عند مَنْ لا يعرفه فأراد تعريفَ نفسِهِ، وصار ذلك مستثنًى من قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ [النجم: ٣٢].

الرابع: أنَّه رأى ذلك فَرْضًا متعيَّنًا، لأنَّه لم يكن هنالك غيرُهُ. وهو الأظهرُ، واللَّهُ أعلمُ.

ودلَّت الآيةُ -أيضًا- على أنَّه يجوز للإنسانِ أن يصفَ نفسَه بما فيه من علمٍ وفضلٍ.

قال الماورديُّ: وليس هذا على الإطلاقِ في عمومِ الصفاتِ، ولكنَّه مخصوصٌ فيما اقترنَ بِوصْلَةٍ، أو تعلَّقَ بظاهرٍ من مكسبٍ، وممنوعٌ فيما سواه، لما فيه من تزكيةٍ ومُراءاةٍ»[2].

وقال الزمخشريُّ- عفا اللَّه عنه-: «قوله: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ﴾. وَلِّنِي

(١) رواه البخاري (٣٢١٠).
(٢) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (٩/ ٢٢١).

خَزَائِنَ أرضِكَ، ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾. أمينٌ أَحْفَظُ ما تستحفِظُنيه، عالمٌ بوجوهِ التصرُّفِ؛ وصفًا لنفسِهِ بالأمانةِ والكفايةِ اللَّتين هما طِلبَةُ الملوكِ ممَّنْ يولُّونه، وإنَّما قال ذلك ليتوصَّلَ إلى إمضاءِ أحكامِ اللَّه تعالى وإقامةِ الحقِّ، وبسْطِ العدلِ، والتمكُّنِ ممَّا لأجلِهِ تُبْعَثُ الأنبياءُ إلى العبادِ، ولعلمِهِ أن أحدًا غيره لا يقوم مقامَهُ في ذلك، فطلبَ التوليةَ ابتغاءَ وجهِ اللَّهِ لا لِحُب الملْكِ والدنيا»[1].

فيوسفُ نبيٌّ من أنبياء اللَّهِ المكرَّمين- صلواتُ اللَّهِ وسلامُهُ عليهم أجمعين-، يريدُ أن يُمضيَ حُكْمَ اللَّهِ، ويقيمَ الحقَّ، ويبسطَ العدلَ، ولم يكن هناك مَنْ يقومُ مقامه في ذلك، فَطَلَبَ التوليةَ لذلك لا لحظِّ نفسِهِ.

وقد أدَّبَ اللَّهُ تعالى نبيَّهُ وكليمَهُ منه إليه؛ موسى ﷺ، بالأدبِ العالي الشريف، وعَتَبَ عليه أنَّه لم يَرُدَّ العلمَ إليه، فكان من شأنِهِ وشأنِ الخَضِرِ ما قصَّه اللَّهُ تعالى في كتابِهِ، وبيَّنَهُ النبيُّ ﷺ ببيانِهِ.

بوَّبَ البخاريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيحه»، باب: «مَا يُسْتَحَبُّ لِلْعَالِمِ إذا سُئِلَ أيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ فَيَكِلُ الْعِلْمَ إِلَى اللَّهِ».

وأخرج بسندِهِ- وكذا مسلمٌ رَحِمَهُ اللَّهُ- عن أُبَيِّ بنِ كَعْبٍ رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: **«قَامَ مُوسَى النَّبِيُّ خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَسُئِلَ: أيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فَقَالَ: أَنَا أَعْلَمُ. فَعَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ؛ إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هَوَ أَعْلَمُ مِنْكَ. قَالَ: يَا رَبِّ، وَكَيْفَ بِهِ؟ فَقِيلَ لَهُ: احْمِلْ حُوتًا فِي مِكْتَلٍ، فَإِذَا فَقَدْتَهُ فَهُوَ ثَمَّ.**

فَانْطَلَقَ وَانْطَلَقَ بِفَتَاهُ يُوشَعَ بْنِ نُون، وَحَمَلَا حُوتًا فِي مِكْتَلٍ، حَتَّى كَانَا عِنْدَ الصَّخْرَةِ وَضَعَا رُءُوسَهُمَا وَنَامَا، فانْسَلَّ الْحُوتُ مِنَ الْمِكْتَلِ فاتَّخَذَ سَبيلَهُ في البَحْرِ سَرَبًا، وكانَ لِمُوسَى وَفَتَاهُ عَجَبًا، فَانْطَلَقَا بَقِيَّةَ لَيْلَتِهِمَا وَيَوْمَهُمَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ قال مُوسى لفَتَاهُ: آتِنَا غَدَاءَنَا؛ لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا. وَلَمْ يَجِدْ مُوسى مَسًّا مِنَ النَّصَبِ حَتَّى جَاوَزَ الْمَكَانَ الَّذِي أُمِرَ بهِ. فَقَالَ لَهُ فَتَاهُ: أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسيتُ الْحُوتَ. قالَ مُوسَى:

(١) «الكشاف» للزمخشري (٢/ ٣٢٨).

ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِي، فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا، فَلَمَّا انْتَهَيَا إِلَى الصَّخْرَةِ إِذَا رَجُلٌ مُسَجًّى بِثَوْبٍ -أو قال: تسجى بثوبه- فَسَلَّمَ مُوسَى، فَقَال الْخَضِرُ: وَأَنَّى بِأَرْضِكَ السَّلامُ؟ فَقَالَ: أَنَا مُوسَى. فَقَال: مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا؟ قَالَ: إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا. يا مُوسَى، إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْم اللَّهِ عَلَّمَنِيهِ لا تَعْلَمُهُ أَنْتَ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ عَلَّمَكَهُ لا أَعْلَمُهُ. قَالَ: سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا، فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ لَيْسَ لَهُمَا سَفِينَةٌ، فَمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ، فَكَلَّمُوهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمَا، فَعُرِفَ الْخَضِرُ فَحَمَلُوهُمَا بِغَيْرِ نَوْلٍ، فَجَاءَ عُصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينةِ، فَنَقَرَ نَقْرَةً أَوْ نَقْرَتَيْنِ في البحرِ، فَقَال الْخَضِرُ: يَا مُوسَى، مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ إِلا كَنَقْرَةِ هَذَا العُصْفُورِ في البَحْرِ، فَعَمَدَ الْخَضِرُ إِلَى لَوْحٍ مِنْ أَلْوَاحِ السَّفِينَةِ فَنَزَعَهُ، فَقَالَ مُوسَى: قَوْمٌ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ عَمَدْتَ إِلَى سَفِينتِهِمْ فَخَرَقْتَها لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا؟ قَالَ: أَلَمْ أَقُلْ: إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْرًا؟ قَالَ: لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ- فَكَانتْ الأُولَى مِنْ مُوسَى نِسْيَانًا- فَانْطَلَقَا فَإِذَا غُلَامٌ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ، فَأَخَذَ الْخَضِرُ بِرَأْسِه مِنْ أَعْلاهُ فَاقْتَلعَ رَأسَهُ بِيَدِهِ، فَقَالَ مُوسَى: أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ؟ قَالَ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ: إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْرًا؟ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا، فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا، فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ، قَالَ الْخَضِرُ بِيَدِهِ فَأَقَامَهُ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا. قَالَ: هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ». قَالَ النبيُّ ﷺ: «يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى، لَوَدِدْنَا لَوْ صَبَرَ حَتَّى يَقُصَّ عَلَيْنَا من أمْرِهِمَا»[1].

*** غريبُ الحديث:**

«**أيُّ النَّاسِ أعلم**» أي: منهم، على حدِّ «اللَّه أكبر»، أي: من كلِّ شيءٍ.

«**أنا أعلمُ**» أي: في اعتقادِهِ.

«**فَعَتَبَ اللَّهُ عليه**»: لم يَرْضَ منه بذلك، وأصلُ العُتْبِ المؤاخذةُ.

«**لم يردَّ العلمَ إليه**» أي: كَانَ حقَّه أن يقول: «اللَّه أعلم».

---

(١) رواه البخاري في مواضع: (٧٨، ١٢٢، ٢١٤٧، ٢٥٧٨) وغيرها، ومسلم (٢٣٨٠).

«**بِمَجْمَع البحرين**»: ملتقى البحرين.

«**حُوتًا**»: الحوتُ: السمكةُ، وكانت سمكةً مالحةً، كما صرَّح به في روايةٍ أخرى.

«**مِكْتَلٍ**»: وعاءٌ يُشْبِهُ الزنبيلَ، يَسَعُ خمسةَ عَشَرَ صاعًا.

«**فَهُوَ ثَمَّ**» أي: فالعبدُ الأعلمُ منك هناك.

«**فَتَاهُ**»: صاحبُهُ.

«**فانسَلَّ**»: خرج برفقٍ وخفَّةٍ.

«**فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ**»: طريقه.

«**سَرَبًا**»: مَسْلَكًا يَسْلُكُ فِيهِ.

«**نَصَبًا**»: تعبًا.

«**مَسًّا**»: أثرًا.

«**مُسَجًّى**»: مغطًّى كلُّه.

«**وأَنَّى بأرضِكَ السَّلام؟**» أي: من أين السلامُ في هذه الأرض التي لا يُعرف فيها السلامُ؟

«**رَشَدًا**» أي: علمًا ذا رَشَدٍ أرشد به في ديني.

«**النَّولُ**»: الأُجرةُ.

«**فَعَمَدَ**»: قَصَدَ.

«**إمرًا**»: عَظيمًا.

«**زكيَّة**»: طاهرةٌ من الذنوبِ، وهي أبلغ من زاكية.

«**بغير نَفْسٍ**»: بغير قصاصٍ لك عليها.

«**نُكرًا**»: منكرًا.

«**يريدُ أن يَنْقَضَّ**»: يكاد يسقط.

«**قالَ الخضرُ بيده**»: أشار بها.

قال النوويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قولُهُ ﷺ: «**فَعَتَبَ اللَّهُ عليْهِ إِذْ لم يَرُدَّ العلمَ إِلَيْه**». أي: كان حقّه أن يقولَ: اللَّهُ أعلمُ. فإنَّ مخلوقاتِ اللَّه تعالى لا يعلمها إلا هو؛ قال اللَّه تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]»[١].

وقال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قولُ البخاريِّ: «باب ما يستحبُّ للعالم إذا سُئِلَ: أيُّ النَّاسِ أعلمُ؟» أي: مِنْ غيره، والفاء في قوله: «فَيَكِلَ» تفسيريةٌ بناءً على أنَّ فعلَ المضارعِ بتقديرِ المصدرِ، أي: ما يُسْتَحَبُّ عند السؤالِ هو الوكولُ، وفي روايةٍ: «أن يَكِلَ». وهو أوضحُ.

قوله ﷺ: «**أَنَا أَعْلَمُ**». في جوابِ: «**أيُّ النَّاس أعلمُ؟**». قيل: إنَّه مخالفٌ لقوله في الروايةِ الأخرى في باب «الخُرُوجُ في طَلَبِ العِلْمِ». قال: «**هل تعلمُ أحدًا أعلمَ منكَ؟**». وعندي لا مخالفةَ بينهما؛ لأنَّ قولَه هنا: «**أنا أعلم**». أي: فيما أعلم، فيطابق قوله: «لا» في جوابِ مَنْ قال له: «**هل تعلم أحدً أعلم منكَ؟**» في إسناد ذلك إلى علمه لا إلى ما في نفسِ الأمرِ.

وعند مسلمٍ من وجهٍ آخر عن أبي إسحاق بلفظ: «**ما أعلمُ في الأرضِ رَجلًا خيرًا** -أو: **أعلمَ**- **مِنِّي**».

قال ابنُ المنيِّرِ: ظنَّ ابنُ بطَّالٍ أنَّ تركَ موسى الجوابَ عن هذه المسألة كان أَوْلَى. قال: وعندي أنَّه ليس كذلك، بل رَدُّ العلمِ إلى اللَّه تعالى مُتَعَيِّنٌ أجابَ أو لم يُجبْ، فلو قال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أنا، واللَّهُ أعلمُ» لم تحصل المعاتبةُ، وإنَّما عُوتِبَ على اقتصارِه على ذلك، أي: لأنَّ الجزمَ يُوهم أنَّه كذلك في نفسِ الأمرِ، وإنَّما مرادُه الإخبارُ بما في علمِهِ كما قدَّمناه، والعُتْبُ من اللَّهِ تعالى محمولٌ على ما يليق به لا على معناه العُرْفِيِّ في الآدميين كنظائِرِه.

---

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٥/ ١٣٧).

وتعقَّبَ ابنُ المنيِّرِ على ابن بطالٍ إيرادَهُ في هذا الموضعِ كثيرًا من أقوالِ السَّلَفِ في التحذير من الدعوى في العلم، والحثِّ على قول العالم: لا أدري، بأنَّ سياق مثل ذلك في هذا الموضع غيرُ لائقٍ، وهو كما قال رَحِمَهُ اللَّهُ. قال: وليس قولُ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: أنا أعلم. كقول آحادِ النَّاسِ مثلَ ذلك، ولا نتيجةُ قوله كنتيجة قولهم، فإنَّ نتيجةَ قولِهم العُجْبُ والكِبْرُ، ونتيجةَ قولِهِ المزيدُ من العلم والحثُّ على التواضِع والحرصُ على طلبِ العلم»[1].

قُلْتُ: وما سُقْتُ حديثَ موسى والْخَضِرِ في آفةِ «الدعوى في العلمِ والقرآنِ» من آفاتِ العلم؛ لأنَّ موسى ﷺ وقعت منه الدعوى، حَاشَى وكلَّا، بل هو أرفع مقامًا، وأرسخُ علمًا، وأعلى كعبًا، وأبرُّ نفسًا، وأتقى قلبًا من هذا، بل هو معصومٌ من هذا كلِّه. وإنَّما سُقْتُه؛ لأنَّ اللَّهَ- سبحانه- عَتَبَ عليه أنَّه لم يَرُدَّ العلمَ إليه ولم يقع منه ادِّعاءٌ، فكيف بمن لم يردَّ العلمَ إليه سبحانه ووقع منه الادِّعاءُ؟!

وقد كان علماؤنا السابقون- رحمهم اللَّهُ- أبرَّ النَّاس قلوبًا، وأوسعَهم حِلْمًا، وأغزَرَهم علمًا، وما كان أحدُهم يستحي أن يقول لما لا يعلمه: لا أعلمه، ولا لما لا يدريه: لا أدريه. كيف والملائكةُ لم تستحِ أن تقول لما لم تعلم: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢].

أخرج ابنُ عبدِ البرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ بسنده عن عبدِ الرحمن بنِ مهديٍّ رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «كنَّا عند مالكِ بنِ أنسٍ فجاءَه رَجُلٌ فقال: يا أبا عبدِ اللَّهِ، جِئْتُكَ من مسيرةِ ستَّةِ أشهرٍ، حَمَّلَنِي أهلُ بَلَدي مسألةً أسألُكَ عنها. قال: سَلْ. فسأله الرَّجُلُ عن المسألةِ، فقال: لا أُحسِنُها. قال: فَبُهِتَ الرَّجُلُ كأنَّه قد جاء إلى مَنْ يَعْلَمُ كلَّ شيءٍ، فقال: أيَّ شيءٍ أقولُ لأهلِ بلدِي إذا رجعتُ إليهم؟ قال: تقولُ لهم: قال مالكٌ: لا أُحْسِنُ.

وقال ابنُ وهبٍ: سمعتُ مالكًا وذَكَرَ قولَ القاسمِ بنِ محمدٍ: لأَنْ يعيشَ الرجلُ جاهلًا خيرٌ من أن يقولَ على اللَّهِ ما لا يعلمُ. ثم قال: هذا أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ، وقد خصَّه اللَّه بما خصَّه به من الفَضْلِ، يقول: لا أدري.

(١) «فتح الباري» (١/ ٢٦٤).

وقال ابنُ وهبٍ: حدَّثني مالكٌ، قال: وكان رسولُ اللَّهِ ﷺ إمامَ المسلمين، وسيِّدَ العالمين، يُسألُ عن الشيءِ فلا يجيبُ حتى يأتيَهُ الوحيُ.

وعن عبدِ الرَّزَّاقِ قال: قال مالكٌ: كان ابنُ عباسٍ يقول: إذا أخطأ العالمُ: «لا أدري» أُصيبتْ مَقَاتلُه»[(١)].

قلتُ: وهذا منقطعٌ من هذا الوجه؛ فإنَّ مالكًا لم يُدْرِك ابنَ عباسٍ، ولكنَّه وصلَه من وجهٍ آخر، عن يحيى بن سعيد قال: قال ابن عباس: إذا تركَ العالمُ «لا أعلم» فقد أُصيبت مقاتله، ويحيى بن سعيدٍ هو الأنصاريُّ، روى عنه مالكٌ، ولكنَّ الرازي لم يذكر له روايةً عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما [الجرح والتعديل (٩/ ١٤٩)].

فهذا شأنُ العلماءِ من سَلَفِ الأمَّةِ، في تركِ الدعوى لما لا يحسنونه، وفي هَضْمِ النَّفسِ، وبَذْلِ النُّصْحِ، حتَّى إنَّ الشافعيَّ رحمه الله يقولُ: «مَا نَاظَرتُ أَحَدًا، فَأَحْبَبْتُ أن يُخْطِئَ، وَمَا في قلبي مِن عِلمٍ، إلا وَدِدْتُ أنَّه عندَ كُلِّ أَحَدٍ، ولا يُنْسَب إِلَيَّ».

وعن الربيعِ قال: سمعتُ الشَّافعيَّ، ودخلتُ عليه وهو مريضٌ، فَذَكَرَ ما وضعَ مِنْ كُتُبِهِ، فقال: «لَوَدِدْتُ أنَّ الْخَلْقَ تَعَلَّمَهُ، ولم يُنْسَبْ إليَّ منه شيءٌ أبدًا».

وعن حَرْمَلَةَ بنِ يحيى قال: سمعتُ الشَّافعي يقول: «وَدِدْتُ أنَّ كُلَّ عِلْمٍ أعلمُهُ، تَعَلَّمَهُ النَّاسُ: أوجَرُ عليهِ، ولا يَحْمَدُوني»[(٢)].

وقد توعَّد النبيُّ ﷺ أهلَ الدعوى في العلمِ والقرآنِ بالنَّارِ، وبئسَ القرارُ.

فَعَنْ عمرَ بنِ الخطَّابِ رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**يَظْهَرُ الإسْلامُ حتَّى تختلفَ التُّجَّارُ في البِحَارِ، وَحَتَّى تَخُوضَ الخَيْلُ في سبيلِ اللَّه، ثُمَّ يَظْهَرُ قَوْمٌ يَقْرَءُونَ القُرْآنَ، يقولون: مَنْ أَقْرَأُ منَّا؟ مَنْ أَعْلَمُ مِنَّا؟ مَنْ أَفْقَهُ مَنَّا؟**». ثم قال لأصحابه: «**هَلْ فِي أُولَئِكَ مِنْ خَيْرٍ؟**». قالوا: اللَّه ورسوله أعلمُ. قالَ: «**أُولئِكَ مِنْكُمْ مِنْ هَذِهِ الأَمَّةِ، وَأُولَئِكَ هُمْ**

(١) «جامع بيان العلم» (٢/ ٥٣).
(٢) «آداب الشافعي ومناقبه» (ص٩١).

وَقُودُ النَّارِ» . قال المنذريُّ: رواه الطبرانيُّ في «الأوسط»، والبَزَّارُ بإسنادٍ لا بأسَ به، ورواه أبو يعلى والطبرانيُّ أيضًا من حديث العباسِ بنِ عبد المطلب. وحسَّن الألبانيُّ روايةَ عمر ﷺ، وكذا روايةَ العباسِ ﷺ في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ٥٨).

«**تَخْتَلِفُ التُّجَّارُ في الْبَحْرِ**»: يكثُرُ ذهَابُهم ومجيئُهم فِيهِ للتجارةِ.

«**تخُوضُ الْخَيْلُ في سَبِيلِ اللَّهِ**» يعني: تعبُرُ لُجَّةَ الماءِ غازيةً في سبيلِ اللَّهِ.

«... **من أَفْقَهُ مِنَّا؟**»: يُعجبون بتفوُّقهم في ذلك حتى يفسدَهم العُجبُ ويُحبط عملَهم.

«**وَقُودُ النَّارِ**»: الوَقودُ -بفتحِ الواو-: ما تُوقد به النَّارُ من حَطَبٍ أو حجارةٍ، وأمَّا الوُقُودُ -بالضمِّ- فمصدرٌ[1].

وهذا الحديثُ من دلائلِ النبوَّةِ؛ فقد وَقَعَ مَا أخبر عنه ﷺ ممَّا يتعلَّق بعالَم الشَّهَادَةِ، كما أخبر عنه، فلم يتخلَّف منه شيء، وأمَّا مَا يتعلَّقُ بعالَم الغيبِ ممَّا أخبر بوقوعِهِ في الآخرة، فآتٍ لا محالةَ، نسأل اللَّهَ السلامةَ والعافيةَ.

وعن عبدِ اللَّهِ بنِ عبَّاسٍ ﷺ عن رسولِ اللَّهِ ﷺ، أَنَّهُ قَامَ لَيْلَةً بِمَكَّةَ مَنَ اللَّيلِ فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟**» ثلاث مراتٍ، فَقَامَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ- وَكَانَ أَوَّاهًا- فَقَالَ: اللَّهُمَّ نَعَم، وَحَرَّضْتَ، وَجَهَدْتَ، وَنَصَحْتَ. فَقَالَ: «**لَيَظْهَرَنَّ الإيمَانُ حَتَّى يُرَدَّ الكُفْرُ إِلَى مَواطِنِهِ، وَلَتُخَاضَنَّ الْبِحَارُ بِالإِسْلَام، وَلَيَأْتِيَنَّ على النَّاسِ زَمَانٌ يَتَعَلَّمُونَ فِيه الْقُرْآنَ، يَتَعَلَّمُونَهُ وَيَقْرَءُونَهُ، ثُمَّ يَقُولُونَ: قَدْ قَرَأْنَا وَعَلِمْنَا، فَمَنْ ذَا الَّذِي هُوَ خَيْرٌ مِنَّا؟ فَهَلْ في أُولَئِكَ مِنْ خَيْرٍ؟**» قالوا: يَا رسولَ اللَّهِ مَن أُولَئِكَ؟ قالَ: «**أُولَئِكَ مِنْكُمْ، وأُولَئِكَ هَمْ وَقُودُ النَّارِ**».

قال المنذريُّ: رواه الطبرانيُّ في «الكبير»، وإسنادُهُ حسنٌ، إن شاء اللَّه تعالى. وحسَّنه الألبانيُّ -أيضًا- في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ٥٨).

«**أَوَّاهًا**» المتأوِّهُ: المتضرِّعُ. وقيل: هو الكثيرُ البكاءِ، وقيل: الكثيرُ الدعاءِ، كما

---

(١) انظر: «الترغيب والترهيب»، تعليق الدكتور محمد خليل هرَّاس (١/ ١٥٣).

في «النهاية». والقولُ الأخيرُ هو أحدُ الأقوالِ التي قيلت في تفسيرِ قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤]. وهو الذي اختاره ابنُ جريرٍ»[١].

«اللَّهُمَّ نَعَمْ» يعني: أنَّ عمرَ شَهِدَ له بذلك وصدَّقَه، وهي منقبةٌ عظيمةٌ لعمرَ رضي الله عنه.

«**لَيَظْهَرَنَّ الإِيمَانُ**»: من الظُّهورِ بمعنى العُلُوِّ والغَلَبَةِ، كما قال تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤]. أي: غالبين.

«**حَتَّى يُرَدَّ الْكُفْرُ إِلَى مَوَاطِنِه**» يعني: ينخذلُ أمام الإيمان ويتقهقرُ حتى يرجع من حيث جاء.

«**وَلَتُخَاضَنَّ الْبِحَارُ بِالإِسْلامِ**» أي: ليركبنَّ جنودُ المسلمين البحارَ غازين فاتحين.

«**يَتَعَلَّمُونَهُ وَيَقْرَءُونَهُ**» يعني: تروجُ سوقُ العلمِ والقراءةِ بسببِ وفرةِ الطمأنينةِ وكثرةِ المالِ.

«**فَهَلْ فِي أُولَئِكَ مِنْ خَيْرٍ؟**» يعني: أنَّه لا خير فيهم أصلًا، فإنَّ العُجْبَ قد أتى على ذلك كلِّه وأفسدَهُ كما يُفْسِدُ الخَلُّ العسلَ[٢].

قال القاضي عبدُ الوهاب بنُ عليِّ بنِ نصرٍ المالكيُّ:

متى يصلُ العِطَاشُ إلى ارتواءٍ ... إذا استقت البحارُ من الركايا
ومَنْ يثني الأصاغر عن مرادٍ ... إذا جلسَ الأكابرُ في الزوايا
وإنَّ تَرَفُّعَ الوضعاءِ يومًا ... على الرُّفَعَاءِ من إحدى الرزايا
إذا استوتِ الأسافلُ والأعالي ... فقد طابت منادمةُ المنايا

وقال أبو الحسن الفَالي:

لمَّا تبدَّلت المجالسُ أوجُهًا ... غيرَ الذي عَهِدَتْهُ من علمائِهَا

(١) انظر: «الترغيب والترهيب» (١/ ٥٨).
(٢) انظر: «الترغيب والترهيب»، تعليق د. محمد خليل هرَّاس (١/ ١٥٤).

ورأيتُهَا محفوفَةً بسوى الأُلى ... كانوا ولاةَ صدورِها وفنائِهَا

أنشدتُ بيتًا سائرًا متقدِّمًا ... والعينُ قد شَرِقَتْ بجاري مائِهَا

أمَّا الخيامُ فإنَّها كخيامهم ... وأرى نساءَ الحيِّ غيرَ نسائِهَا

وقال الفالي أيضًا:

تَصَدَّرَ للتدريس كُلُّ مُهَوسٍ ... بليدٍ تسمَّى بالفقيهِ المدَرِّسِ

فَحُقَّ لأهلِ العلمِ أن يَتمثَّلُوا ... بِبَيْتٍ قديمٍ شَاعَ فِي كلِّ مجلسِ

لقد هَزُلَتْ حتى بدا من هُزَالِها ... كُلَاها وحتى سامها كلُّ مُفْلِسِ

* * *

٥- إِذْلَالُ أَهْلِ الْعِلْمِ لِلْعِلْمِ

لقد قَعَّدَ السَّلَفُ- رضوانُ اللَّهِ عليهم- قاعدةً مَنَ القواعِدِ الجامعةِ، فقالوا: «الْعِلْمُ يُؤْتَى إِلَيهِ، وَلا يَأْتِي إِلَى أَحَدٍ».

لما قَدِمَ هارونُ الرشيدُ -أميرُ المؤمنين- بعث إلى مالكٍ فلم يأته، فقال له أبو يوسف: يبلغ أهلَ العراقِ أنَّك بعثتَ إلى مالكٍ فلم يأتك، ابعث إليه مَنْ يأتيك به كَرهًا، فبعث إليه الرشيد مرةً ثانيةً، فأتاه مالكٌ، فقال له الرشيدُ: يا بن أبي عامرٍ، أبعث إليك فتخالفني! فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرني الزهري عن خارجة بن زيد بن ثابتٍ، عن أبيه، قال: كنتُ أكتب الوحي بين يدي رسولِ اللَّهِ ﷺ فنزلت: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ٩٥]. وابنُ أمِّ مكتومٍ عند النبي ﷺ فقال: يا رسولَ اللَّهِ إنِّي رجلٌ ضريرٌ، وقد أنزلَ اللَّهُ تعالى في فضلِ الجهادِ ما قد علمتَ. فقالَ النبيُّ ﷺ: «**لا أدري**». وقلمي رطبٌ ما جَفَّ، حتى وقع فَخِذُ النبيِّ ﷺ على فَخِذِي، فَثَقُلَتْ عليَّ حتَّى خِفْتُ أَنْ تَرُضَّ فَخِذِي، ثُمَّ سُرِّيَ عَنْهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾[1]. يا أميرَ المؤمنين، حرفٌ واحدٌ بُعِثَ به جبريلُ والملائكةُ من مسيرةِ خمسةِ آلافِ عام، أَلا ينبغي أن أُعِزَّه وأُجِلَّه؟!

إنَّ اللَّهَ تعالى رَفَعَكَ وَجَعَلَكَ في هذا الموضعِ بعلمك، فلا تكن أولَ مَنْ يضع عزَّ العلمِ فيضع اللَّهُ عِزَّك.

فقال له الرشيدُ: تأتينا حتى نتعلَّم عليك ونسمعَ منك.

قال: أصلحك اللَّهُ، **إِنَّ الْعِلْمَ يُؤْتَى وَلا يَأْتِي**. قال: نأتي وتمنع الناسَ حتى ننصرف. قال: **إِذَا مُنِعَ العلمُ من العامةِ لم ينفعِ اللَّهُ بِهِ الخاصة ولا العامةَ.**

قال له: فتقرأ عليَّ إذا أتيت. قال له: ما قرأتُ على أحدٍ منذ كذا وكذا، ولا أقرأ على أحدٍ بعد ذلك. قال: فتجعل من يقرأ ونحن نسمع. قال: ذلك لك.

---

(١) «البخاري» (٢٦٧٧)، و«مسلم» (١٨٩٨). وتَرُضُّ: تدقُّ.

فذهب الرشيدُ إلى منزلِ مالكٍ، وأجلس مالكًا على المنصَّة التي يجلس عليها حتى يسمع الحديثَ، فقال له مالكٌ: يا أمير المؤمنين، ما أدركتُ أهلَ بلدنا إلا وهم يحبُّون أن يتواضعوا للَّهِ، فنزل الرشيدُ عن المنصَّة، وجلس بين يدي مالك رَحِمَهُ اللَّهُ؛ تواضعًا لعلمه وانقيادًا لقوله.

وهكذا ذهب الرشيدُ إلى منزلِ مالكٍ، وتعلَّم منه، وسمع عليه، وكان القارئ مَعْنَ ابن عيسى الفزاري[1].

ما كانت طائفةٌ من طوائف الأمَّةِ أعزَّ من العلماءِ يومًا من الدَّهْرِ، الملوكُ حكامٌ على النَّاسِ، والعلماءُ حكامٌ على الملوكِ، وكيف لا وعندهم ميراثُ النُّبُوَّةِ، وسَبَبُهُم إلى النبي ﷺ وثيقٌ متينٌ؟!

أخرج ابنُ عبد البرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ بسنده عن سفيانَ الثوريِّ رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «كان خيارُ النَّاسِ وأشرافُهم والمنظورُ إليهم في الدين، الذين يقومون إلى هؤلاء -يعني: ولاةَ أمورِهم- فيأمرونهم وينهونَهم، وكان آخرون يَلْزَمُون بيوتَهم ليس عندهم ذلك، فكانوا لا يُنتفعُ بهم ولا يُذكرون، ثمَّ بقينا حتَّى صار الذين يأتونهم فيأمرونَهم شرارَ النَّاسِ، والذين لَزِمُوا بيوتَهم ولم يأتوهم خِيَارَ النَّاسِ»[2].

ومعلومٌ أنَّ كلَّ فضيلةٍ إنَّما هي وسطٌ بين رذيلتين، وإعزازُ العلمِ وسطٌ بين إذلالِهِ والتجبُّرِ به.

وقد تشتبهُ المهانةُ بالتواضعِ، والمذلَّةُ بالخشوعِ، كما قد يشتبه التكبُّرُ بالصيانةِ والتجبُّرُ بالإباءِ، فاحتاجَ الأمرُ إلى بيانٍ وتوضيحٍ.

*** الفَرْقُ بينَ التَّواضُعِ والْمَهَانَةِ:**

قال ابنُ القيمِ: «الفَرْقُ بين التواضعِ والمهانةِ: أنَّ التواضعَ يتولَّدُ من بين العلمِ باللَّهِ

(١) انظر: «الإمام مالك» للدكتور محمود عبد المتجلي خليفة (ص٥٠).
(٢) «جامع بيان العلم» (١/ ١٨٤).

سبحانه، ومعرفةِ أسمائِهِ وصفاتِهِ ونعوتِ جلالِهِ وتعظيمِهِ ومحبَّتِهِ وإجلالِهِ، ومن معرفتِهِ بنفسِهِ وتفاصيلِهَا وعيوبِ عملِهَا وآفاتِهَا، فيتولَّدُ من بين ذلك كلِّه خُلُقٌ هو التواضعُ.

وهو: انكسارُ القلبِ للَّهِ، وخفضُ جَنَاحِ الذُّلِّ والرحمةِ لعبادِهِ، فلا يَرَى له على أحدٍ فضلًا، ولا يَرَى له عند أحدٍ حقًّا، بل يَرَى الفضلَ للنَّاسِ عليه، والحقوقَ لهم قِبَلَهُ، وهذا خُلُقٌ إنَّما يعطيه اللَّهُ ﷻ مَنْ يحبُّه ويكرمُهُ ويُقَرِّبُهُ.

وأَمَّا المهانَةُ: فهي الدَّنَاءَةُ والخِسَّةُ، وبَذْلُ النَّفْسِ وابتذالُها في نَيْلِ حظوظِها وشهواتِها، كتواضعِ السُّفَّلِ في نَيْلِ شهواتهم، وتواضعِ المفعولِ به للفاعلِ، وتواضعِ طالبِ كلِّ حظٍّ لمنْ يرجو نَيْلَ حظِّه منه، فهذا كلُّه ضَعَةٌ لا تواضعٌ، واللَّهُ- سبحانه- يحبُّ التواضعَ ويُبغِضُ الضَّعَةَ والمهانةَ.

وفي «الصحيح» عنه ﷺ: **«وَأُوحِيَ إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلى أَحَدٍ، وَلا يَبْغِيَ أَحَدٌ علَى أَحَدٍ»**[١].

*** والتَّوَاضُعُ الْمَحْمُودُ عَلَى نَوْعَينِ:**

النَّوْعُ الأَوَّلُ: تواضعُ العبدِ عند أمرِ اللَّهِ امتثالًا وعند نهيه اجتنابًا، فإنَّ النَّفْسَ لِطَلَبِ الرَّاحَةِ تتلَكَّأُ في أمرِهِ، فيبدو منها إباءٌ وشِرَادٌ هَرَبًا من العبوديةِ، وتثبتُ عند نهيه طلبًا للظَّفَرِ بما مَنَعَ منه، فإذا تواضعَ العبدُ نفسُه لأمرِ اللَّهِ ونهيه فقد تَوَاضَعَ للعبوديةِ.

والنَّوْعُ الثَّانِي: تواضعُهُ لعظمةِ الرَّبِّ وجلالِهِ، وخضوعُهُ لعزَّتِهِ وكبريائِهِ، فكلَّما شَمَخَتْ نفسُهُ ذَكَرَ عظمةَ الرَّبِّ وتفرُّدَه بذلك وغَضَبَهُ الشديدَ على مَنْ نازَعَهُ ذلك، فتواضعت إليه نفسُه وانكسرَ لعظمةِ اللَّهِ قلبُهُ، واطمأن لهيبتِهِ، وأَخْبَتَ لسلطانِهِ، فهذا غايةُ التواضعِ، وهو يستلزمُ الأولَ من غيرِ عكسٍ، والمتواضِعُ حقيقةً مَنْ رُزِقَ الأمرين»[٢].

(١) رواه مسلم (٢٨٦٥).
(٢) «الروح» لابن القيم (ص٣١٣).

وليس أدلُّ على عِزِّ العلم ونفور العلماء من إذلاله من محنة الإمام أحمد بن حنبل -رحمه اللَّه تعالى- .

فإن المسلمين ما زالوا على قانونِ السَّلَفِ من أنَّ القرآنَ كلامُ اللَّه تعالى ووحيُهُ وتنزيلُه غير مخلوق، حتى نَبَغَت المعتزلةُ والجهميةُ، فقالوا في صفاتِ اللَّهِ- سبحانه- ما قالوا، وقيل بِخَلْقِ القرآنِ، ولكنْ مقالةٌ تحت سِتْرٍ مادامت دولةُ الرشيدِ.

وقد كان الرشيدُ رَحِمَهُ اللَّهُ عندما بَلَغَهُ أنَّ بِشْرَ بن غِيَاثٍ يقول: القرآنُ مخلوقٌ، قال: للَّهِ عليَّ إن أظفرني به لأقتلنَّه، فكان بِشْرٌ متواريًا أيامَ الرشيدِ، فلمَّا مات ظهرَ بِشْرٌ ودعا إلى الضلالةِ.

قال الذهبيُّ: «ثمَّ إنَّ المأمونَ نَظَرَ في الكلامِ، وباحَثَ المعتزلةَ، وبقي يقدمُ رِجْلًا ويُؤَخِّرُ أخرى في دعاء النَّاسِ إلى القولِ بخَلْقِ القرآنِ، إلى أن قوي عزمُهُ على ذلك في السَّنَةِ التي ماتَ فيها.

قال صالحُ بنُ أحمد بن حنبل: حُمِلَ أبي ومحمَّدُ بنُ نوحٍ مُقَيَّدَيْنِ، فَسِرنَا معهما إلى الأنْبَارِ، فسأل أبو بكر الأحولُ أبي، فقال: يا أبا عبد اللَّهِ، إن عُرِضْتَ على السيفِ تجيبُ؟ قال: لا. ثمَّ سُيِّرا، فسمعتُ أبي يقول: صرنا إلى الرَّحْبَةِ[1] ورحلنا منها، وذلك في جوفِ الليلِ، فعرض لنا رَجُلٌ، فقال: أيُّكم أحمد بن حنبل؟ فقيل له: هذا. فقال للجمَّالِ: على رِسْلِكَ. ثمَّ قال: يا هذا، ما عليك أن تُقتَلَ هاهنا وتدخلَ الجنَّةَ. ثمَّ قال: أستودعُك اللَّهَ. ومضى، فسألتُ عنه، فقيل لي: هذا رجلٌ من العربِ من ربيعةَ، يعملُ الشَّعَرَ[2] في الباديةِ، يُقال له جابرُ بنُ عامرٍ، يُذْكَرُ بخيرٍ.

يقول أحمدُ رَحِمَهُ اللَّهُ: ما سمعتُ كلمةً منذ وقَعْتُ في هذا الأمرِ أقوى من كلمةِ أعرابيٍّ كلَّمني بها في رَحْبَةِ طوقٍ، قال: يا أحمدُ، إن يقتلك الحقُّ مُتَّ شهيدًا، وإن عِشْتَ عِشْتَ حميدًا. فقوي قلبي.

(١) هي رَحْبَةُ مالكِ بنِ طَوْق، تقع بين الرقة وبغداد، على شاطئ الفرات، تبعد عن بغداد مائة فرسخ، وعن الرق نيفًا وعشرين فرسخًا.

(٢) في رواية حنبل: يعمل الصوف.

وثبتَ محمَّدُ بنُ نوحٍ رَحِمَهُ اللَّهُ مع أحمد ثَبَاتًا عظيمًا، يقول أحمدُ رَحِمَهُ اللَّهُ: ما رأيتُ أحدًا على حَدَاثَةَ سِنِّهِ وقَدْرِ علمِهِ أقومَ بأمرِ اللَّهِ من محمَّدِ بن نوحٍ، وإنِّي لأرجو أن يكون قد خُتم له بخيرٍ، قال لي ذات يومٍ: يا أبا عبد اللَّه، اللَّهَ اللَّهَ، إنَّك لستَ كمثلي، إنَّك رجلٌ يُقْتَدَى بكَ، قَدْ مَدَّ الخَلْقُ أعناقَهم إليك لما يكون منك، فَاتَّقِ اللَّهَ واثْبُتْ لأمرِ اللَّهِ. أو نحو هذا، فماتَ وَصَلَّيتُ عليه ودفنتُهُ.

ومكث أحمدُ في السجنِ نحوًا من ثلاثين شهرًا، ثمَّ دُعي بين يدي المعتصمِ، قال صالحُ بن أحمد: فجعل أحمد بن أبي دُوَاد ينظرُ إلى أبي كالمغضَبِ، قال أبي: وكان هذا يتكلَّمُ فأردُّ عليه، ويتكلَّمُ هذا فأردُّ عليه، فإذا انقطع الرجلُ منهم اعترض ابن أبي دُوَاد فيقول: يا أمير المؤمنين، هو واللَّه ضَالٌّ مبتدِعٌ! فيقول: كلِّموه، ناظِروه. فيكلِّمني هذا فأردُّ عليه، ويكلِّمني هذا فأردُّ عليه، فإذا انقطعوا يقول لي المعتصمُ: ويحك يا أحمد، ما تقول؟ فأقول: يا أمير المؤمنين، أعطوني شيئًا من كتابِ اللَّهِ أو سنَّةِ رسولِ اللَّهِ حتى أقولَ به.

ويُقبلُ ابن أبي دُوَادٍ على أحمد يكلِّمه، فلا يلتفتُ إليه، حتى يقول المعتصمُ: يا أحمدُ، ألَا تكلِّم أبا عبد اللَّه- يقصد ابن أبي دُوَادٍ-؟ فيقول أحمدُ: لستُ أعرفه من أهلِ العلمِ فأكلِّمه!

يقولُ ابن أبي دُوَادٍ للمعتصم: يا أمير المؤمنين، إن أَجَابَكَ لَهُوَ أحبُّ إليَّ من مائةِ ألفِ دينارٍ ومائةِ ألف دينارٍ. فَيَعُدَّ من ذلك ما شاء اللَّهُ أَنْ يَعُدَّ، فيقول المعتصمُ: واللَّهِ لَئِنْ أجابني لأُطْلِقَنَّ عنه بيدي، ولأركبنَّ إليه بجندي، ولأَطَأَنَّ عَقِبَه.

ثمَّ قال: يا أحمدُ، واللَّهِ إنِّي عليك لشفيقٌ، وإنِّي لأُشْفِقُ عليك كشفقتي على ابني هارون، ما تقول؟ فأقول: أعطوني شيئًا من كتابِ اللَّهِ وسُنةِ رسولِهِ.

وأمر المعتصمُ بضربِ الإمامِ، فقُدِّمَ فضُربَ تسعةَ عَشَرَ سَوطًا، قال أحمد: فلمَّا ضُربتُ تسعةَ عشَر سوطًا قام إليَّ -يعني المعتصم- وقال: يا أحمد، عَلامَ تقتلُ نفسَك؟ إني واللَّه عليك لشفيقٌ. قال: فجعل عُجَيْفٌ ينخسني بقائمةِ سيفه، وقال: أتريد أن تغلبَ

هؤلاء كلّهم؟ وجعل بعضُهم يقولُ: ويلك، الخليفةُ على رأسِك قائم! وقال بعضُهم: يا أمير المؤمنين، دمُه في عنقي، اقتله! وجعلوا يقولون: يا أمير المؤمنين، أنت صائمٌ، وأنت في الشمسِ قائم! فقال لي: ويحك يا أحمدُ، ما تقول؟ فأقول: أعطوني شيئًا من كتاب اللَّهِ أو سُنةِ رسولِ اللَّه ﷺ أقولُ به، فرجعَ وجلسَ، وقال للجلَّاد: تقدَّمْ وأوْجِعْ، قطعَ اللَّهُ يدك! ثمَّ قامَ الثانيةَ، فجعلَ يقولُ: ويحك يا أحمد، أجبني، فجعلوا يُقبلون عليَّ ويقولون: يا أحمدُ، إِمَامُكَ على رأسِك قائمٌ! وجعل عبد الرحمن يقول: مَن صنعَ مِنْ أصحابِك في هذا الأمرِ ما تصنعُ؟ وجعل المعتصمُ يقول: ويحك، أجبني إلى شيء لك فيه أدنى فَرَجٍ، أطلق عنك بيدي، فقلتُ: يا أمير المؤمنين، أعطوني شيئًا من كتابِ اللَّهِ أقولُ به، فيرجع، وقال للجلَّادين: تقدَّموا. فجعلَ الجلَّادُ يتقدَّمُ ويضربني سوطين ويتنحى، وهو في خلالِ ذلك يقولُ: شُدَّ، قطعَ اللَّهُ يَدَكَ. وقال أحمدُ: فذهبَ عقلي، فأفقتُ بعد ذلك فإذا الأقيادُ قد أُطلقت عنِّي، فقال لي رجلٌ ممَّن حضر إنَّا كَبَبْنَاك على وجهِك، وطرحنا على ظهرِك باريَّة[1] ودُسْناك! قال أحمدُ: فما شعرتُ بذلك.

حَدَّثَ عبدُ اللَّهِ بن محمد بن الفضلِ الأسديِّ قال: لمَّا حُمِلَ أحمدُ ليُضْربَ، جاءوا إلى بِشْرِ بن الحارثِ، فقالوا: قد حُمل أحمدُ بن حنبل، وحُملت السِّيَاطُ، وقد وجبَ عليك أن تتكلَّمَ، فقال: أتريدون مني مقامَ الأنبياء؟! ليس ذا عندي، حَفِظَ اللَّهُ أحمدَ من بين يديه ومن خلفه.

قال صالحُ بن أحمد: صار أبي إلى المنزلِ، ووُجِّه إليه من السَّحَرِ مَنْ يُبْصِرُ الضَّربَ والجِرَاحَاتِ، ويعالجُ منها، فنظر إليه، فقال لنا: واللَّهِ لقد رأيتُ مَنْ ضُرِبَ ألفَ سوطٍ، ما رأيتُ ضربًا أشدَّ من هذا، لقد جُرَّ عليه من خَلْفِهِ ومن قُدَّامِهِ، ثمَّ أدخل مِيلًا[2] في بعض تلك الجِرَاحَاتِ، وقال: لم يَنْقَبْ، فجعلَ يأتيه ويعالجه، وكان قد أصابَ وجهَهُ غيرُ ضربةٍ، ثمَّ مَكَثَ يعالجه إلى ما شاء اللَّهُ، ثمَّ قال: إنَّ هاهنا شيئًا أريدُ أن أقطعه، فجاء بحديدةٍ فجعل يُعَلِّقَ اللَّحْمَ بها ويَقطعهُ بالسكين، وهو- أي: أحمدُ- صابرٌ يحمدُ اللَّه،

(١) بكسر الراءِ، وفتح الياء المشدَّدة: الحصير المنسوج، يُبسط ويجلس عليه، وهي فارسية الأصل.
(٢) مِيلُ الجراحة: هو ما يُسْبَرُ به عُمقُ الجرحِ.

فبرأ، ولم يزل يتوجَّعُ من مواضِعَ فيه، وكان أثرُ الضَّرْبِ بَيِّنًا في ظهرِهِ إلى أن تُوفِّي رَحِمَهُ اللَّهُ»[1].

قلتُ: هذه أطرافٌ من قصَّة «المحنةِ» كما رواها الإمامُ الذهبيُّ، فيها من ظلال الرهبةِ والخوفِ ما فيها، وكأنَّ المحنةَ كونٌ كاملٌ، وعالَمٌ شاملٌ، فيه الليلُ والنَّهَارُ يتقابلان ولا يتعاقبان.

فيها الليلُ بظلمتِهِ ورهبتِهِ وسترِهِ على الخيانةِ والغدرِ، فذلك مَثَلُ أعداءِ أحمد، وفيها الصبحُ بإشراقِهِ ووداعَتِهِ ورقَّةِ حاشيتِهِ، وذلك مَثَلُ الإمامِ أحمد.

لقد ثَبَتَ أحمدُ حتَّى استحقَّ الإمامةَ فأصبحت عَلَمًا عليه، فإذا ذُكِرَ الإمامُ انصرفَ اللفظُ إليه، وما كان أحمدُ إمامًا بإذلالِهِ لِعلمِه أمامَ جبروتِ السلطة الغاشمة، وإنَّما بإعزازِ علمِهِ وإعزازِ المحلِّ الذي أحلَّه اللَّهُ فيه، فرحمةُ اللَّهِ تعالى عَلَى الإمامِ أحمدَ.

قال الذهبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال ابنُ عقيلٍ: من عجيبِ ما سمعتُهُ عن هؤلاء الأحداثِ الجهَّالِ، أنهم يقولون: أحمدُ ليس بفقيهٍ، لكنَّه مُحَدِّثٌ.

قال: وهذا غايةُ الجهلِ، لأنَّ له اختياراتٍ بناها على الأحاديثِ بناءً لا يعرفه أكثرُهم، وربَّما زاد على كبارِهم.

قلتُ: أحسبهم يَظُنُّونَه كان محدِّثًا وبَسْ[2]، بل يَتَخَيَّلُونَهُ من بابةِ محدِّثي زماننا. واللَّهِ لقد بلغَ في الفقهِ خاصَّةً رُتْبَةَ اللَّيثِ، ومالكٍ، والشافعيِّ، وأبي يوسف، وفي الزهد والورع رُتْبَةَ الفُضيلِ، وإبراهيمَ بنِ أدهم، وفي الحفظِ رتبةَ شُعبةَ، ويحيى القطان، وابن المديني، ولكنَّ الجاهلَ لا يعلمُ رُتبةَ نفسِهِ، فكيف يعرفُ رتبةَ غيره؟!»[3].

ومن صيانةِ أهلِ العلمِ له ما رواه الخطيبُ رَحِمَهُ اللَّهُ بسنده عن حمدانَ بن الأصبهاني قال: «كنتُ عند شريكٍ، فأتاه بعضُ وَلَدِ المهديِّ، فَاستندَ إلى الحائطِ، وسأله عن

(١) «تاريخ الإسلام» للذهبي (٧/ ١٢٦)، و«سير أعلام النبلاء» (١١/ ١٧٧).
(٢) بَسْ: بمعنى حَسْب. (فارسيةٌ). «المعجم الوسيط» (١/ ٥٥).
(٣) «سير أعلام النبلاء» للذهبي (١١/ ٣٢١).

حديث، فلم يلتفت إليه، فأعاد عليه، فلم يلتفت إليه، فقال: كأنَّك تستخِفُّ بأولادِ الخلافةِ. قال: لا، ولكنَّ العلمَ أَزْيَنُ عند أهلِه من أن يضيِّعوه. قال: فجثا على ركبتيه، ثمَّ سأله، فقال شريكٌ: هكذا يُطْلَبُ العلمُ».

وأخرج الخطيبُ -أيضًا- عن إبراهيم بن إسحاق الحربيِّ قال: «كان عطاءُ بن أبي رَبَاحٍ عبدًا أسودَ لامرأةٍ من مكَّةَ، وكان أَنْفُهُ كَأَنَّه باقِلَّاةٌ[1].

قال: وجاء سليمان بن عبد الملك أميرُ المؤمنين إلى عطاء هو وابناه فجلسوا إليه وهو يُصَلِّي، فلمَّا صلَّى انفتل إليهم، فما زالوا يسألونه عن مناسِكِ الحجِّ، وقد حوَّلَ قفاه إليهم، ثمَّ قال سليمان لابْنَيْهِ: قُومَا. فقامَا. وقال: يا ابنيَّ، لا تَنِيَا في طلبِ العلمِ، فإنِّي لا أنسى ذلَّنا بين يَدَي هذا العبد الأسودِ»[2].

ومن أجودِ ما جادتْ به قرائحُ أهلِ العلمِ والأدبِ في بيانِ صيانةِ أهلِ العلمِ للعلمِ، ورعايتهم جَانبَهُ، وركونهم إلى صَرْحِ عِزِّهِ: قصيدةُ القاضي أبي الحَسَنِ عليَّ بن عبد العزيز الجرجانيِّ رَحِمَهُ اللهُ، وهي قصيدةٌ عصماءُ في وَصْفِ «العالمِ الأبِيِّ»، والاعتزاز بالعلمِ، وسُمُوِّ الهمَّةِ[3]، ذكر التاجُ السبكيُّ منها عشرةَ أبياتٍ في «طبقات الشافعية الكبرى» (٣/ ٤٦٠)، هذه الأبياتُ هي:

يَقُولُونَ لِي: فِيكَ انْقِبَاضٌ وَإِنَّمَا ... رَأَوْا رَجُلًا عَنْ مَوْقِفِ الذُّلِّ أَحْجَمَا
أَرَى النَّاسَ مَنْ دَانَاهُمُ هَانَ عِنْدَهُمْ ... وَمَنْ أَكْرَمَتْهُ عِزَّةُ النَّفْسِ أُكْرِمَا
وَمَا كُلُّ بَرْقٍ لَاحَ لِي يَسْتَفِزُّنِي ... وَلا كُلُّ مَنْ لاقَيْتُ أَرْضَاهُ مُنْعِمَا
وَإِنِّي إِذَا مَا فَاتَنِي الأَمْرُ لَمْ أَبِتْ ... أُقَلِّبُ كَفِّي إِثْرَهُ مُتَنَدِّمَا
وَلَمْ أَقْضِ حَقَّ الْعِلْمِ إِنْ كَانَ كُلَّمَا ... بَدَا طَمَعٌ صَيَّرْتُهُ لِي سُلَّمَا
إِذَا قِيلَ هَذَا مَنْهَلٌ قُلْتُ قَدْ أَرَى ... وَلَكِنَّ نَفْسَ الْحُرِّ تَحْتَمِلُ الظَّمَا

(١) الباقلاء: الفُولُ، واحِدَتُهُ: باقِلاةٌ، وبَاقِلَّاءةٌ.
(٢) «الفقيه والمتفقه» للخطيب البغدادي (١/ ٣١).
(٣) انظر: «صفحات من صبر العلماء» لأبي غدة (ص٣٥٢).

وَلَمْ أَبْتَذِلْ فِي خِدْمَةِ الْعِلْمِ مُهْجَتِي ... لأَخْدُمَ مَنْ لَاقَيْتُ لَكِنْ لأُخْدَمَا
أَأَشْقَى بِهِ غَرْسًا وَأَجْنيه ذِلَّةً ... إِذَنْ فَاتِّبَاعُ الْجَهْلِ قَدْ كَانَ أَحْزَمَا
وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ صَانُوهُ صَانَهُمْ ... وَلَوْ عَظَّمُوهُ فِي النُّفُوسِ لَعُظِّمَا
وَلَكِنْ أَهَانُوهُ فَهَانَ وَدَنَّسُوا ... مُحَيَّاهُ بِالأَطْمَاعِ حَتَّى تَجَهَّمَا

ولم يملك السبكيُّ -بعد إذ ساق القصيدةَ- نفسَه فاندفع مثنيًا عليها بكلامٍ إلى الشعرِ أقربُ منه إلى النثرِ، والحقُّ أنَّ القصيدةَ كما قال، وفوق ما قال.

قال التاجُ السبكيُّ في الطبقات (٣/ ٤٦١): «للَّه هذا الشعرُ! ما أبلغَهُ وأصنَعَهُ! وما أعلى على هامِ الجوزاءِ موضِعَهُ! وما أنفعَهُ لو سَمِعَهُ مَنْ سَمِعَه! وهكذا فليكن، وإلا فلا، أدبُ كلِّ فقيه، ولمثْلِ هذا الناظمِ يحسُنُ النَّظْمُ الذي لا نظيرَ له ولا شبيه، وعند هذا ينطِقُ المنصف بعظيم الثناءِ على ذهنِهِ الخالي، لا بالتمويه».

وفي «صفحات من صبر العلماء» (ص٣٥٢) استقصاءٌ لأبياتها، وتتبُّعٌ لها في مظانِّهَا، في كتبِ الأدبِ، وكتب الأخلاقِ والتعليمِ، وقد بلغت عِدَّتُها في المصدر المذكورِ أربعةً وعشرين بيتًا، أسوقها هنا- إن شاء اللَّه- رغبةً فيها، ودلالةً عليها:

يَقُولُونَ لِي: فِيكَ انْقِبَاضٌ وَإِنَّمَا ... رَأَوْا رَجُلًا عَنْ مَوْطن الذُّلِّ أَحْجَمَا
أَرَى النَّاسَ مَنْ دَانَاهُمُ هَانَ عِنْدَهُمْ ... وَمَنْ أَكْرَمَتْهُ عِزَّةُ النَّفْسِ أُكْرِمَا
وَلَمْ أَقض حَقَّ الْعِلْمِ إِنْ كَانَ كُلَّمَا ... بَدَا مَطْمَعٌ صَيَّرْتُهُ لِي سُلَّمَا
وَمَا زِلْتُ مُنْحَازًا بِعِرْضِي جَانِبًا ... عَنِ الذُّلِّ أَعْتَدُّ الصِّيَانَةَ مَغْنَمَا
إِذَا قِيلَ هَذَا مَنْهَلٌ قُلْتُ قَدْ أَرَى ... وَلَكِنَّ نَفْسَ الْحُرِّ تَحْتَمِلُ الظَّمَا
أُنَزِّهُهَا عَنْ بَعْضِ مَا لا يَشِينُهَا ... مَخَافَةَ أَقْوَالِ العِدَا: فِيمَ أو لِمَا؟
فَأُصْبِحُ عَنْ عَيبِ اللَّئِيمِ مُسَلَّمًا ... وَقَدْ رُحْتُ فِي نَفْسِ الْكَرِيمِ مُعَظَّمَا
وَإِنِّي إِذَا فَاتَنِي الأَمْرُ لَمْ أَبِتْ ... أُقَلِّبُ كَفِّي إِثْرَهُ مُتَنَدِّمَا
وَلَكِنَّهُ إِنْ جَاءَ عَفْوًا قَبِلْتُهُ ... وَإِنْ مَالَ لَمْ أُتْبِعْهُ: هَلَّا وَلَيْتَمَا

وَأَقْبِضُ خَطْوِي عَنْ حُظُوظٍ كَثيرةٍ ... إِذَا لَمْ أَنَلْهَا وَافِرَ الْعِرْضِ مُكْرَمَا
وَأُكْرِمُ نَفْسِي أَنْ أُضَاحِكَ عَابِسًا ... وَأَنْ أَتَلَقَّى بِالْمَدِيحِ مُذَمَّمَا
وَكَمْ طَالبٍ رِقِّي بِنُعْمَاهُ لَمْ يَصِلْ ... إِلَيهِ وَإِنْ كَانَ الرَّئِيسَ الْمُعَظَّمَا
وَكَمْ نِعْمَةٍ كَانَتْ عَلَى الْحُرِّ نِقْمَةً ... وَكَمْ مَغْنَمٍ يَعْتَدُّهُ الْحُرُّ مَغْرَمَا
وَلَمْ أَبْتَذِلْ فِي خِدْمَةِ الْعِلْمِ مُهْجَتي ... لأَخْدُمَ مَنْ لاقَيْتُ لَكِنْ لأُخْدَمَا
أَأَشْقَى بِهِ غَرْسًا وَأَجْنِيهِ ذِلَّةً ... إِذَنْ فَاتِّبَاعُ الْجَهْلِ قَدْ كَانَ أَحْزَمَا
وَإِنِّي لَرَاضٍ عَنْ فَتًى مُتَعَفِّفٍ ... يَرُوحُ وَيَغْدُو لَيْسَ يَمْلِكُ دِرْهَمَا
يَبِيتُ يُراعِي النَّجْمَ منْ سُوءِ حَالِهِ ... وَيُصْبِحُ طَلْقًا ضَاحِكًا مُتَبَسِّمَا
وَلا يَسْأَلُ الْمثْرِينَ مَا بِأَكُفِّهِمْ ... وَلَوْ مَاتَ جُوعًا عِفَّةً وَتَكَرُّمَا
فَإِنْ قُلْتَ: زَنْدُ الْعِلْم كَابٍ، فَإِنَّما ... كَبَا حِينَ لَمْ تَحْرُسْ حِمَاهُ وَأَظْلَمَا
وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ صَانُوهُ صَانَهُمْ ... وَلَو عَظَّمُوهُ فِي النُّفُوسِ لَعَظَّمَا
وَلَكِنْ أَهَانُوهُ فَهَانوا وَدَنَّسُوا ... مُحَيَّاهُ بِالأَطْمَاعِ حتَّى تَجهَّمَا[1]
وَمَا كُلُّ بَرْقٍ لَاحَ لِي يَسْتَفِزُّنِي ... وَلا كُلُّ مَنْ لَاقَيْتُ أَرْضَاهُ مُنْعِمَا
وَلكِنْ إِذَا مَا اضْطَرَّنِي الضُّرُّ لَمْ أَبِتْ ... أُقَلِّبُ فِكْرِي مُنْجِدًا ثُمَّ مُتْهِمَا[2]
إِلَى أَنْ أَرى مَا لا أَغَصُّ بِذِكْرِهِ ... إِذَا قُلْتُ: قَدْ أَسْدَى إِلَيَّ وَأَنْعَمَا

أخرج الدارميُّ في «سننه» (١/ ١٦٣) بإسناده عن الضَّحاكِ بن موسى، قال: «مرَّ سليمانُ بنُ عبد الملكِ بالمدينةِ، وهو يريدُ مكةَ فأقام بها أيامًا، فقال: هل بالمدينة أحدٌ أدرك أحدًا من أصحابِ النبيِّ ﷺ؟ فقالوا له: أبو حازمٍ[3]. فأرسل إليه فلمَّا دخل عليه قال له: يا أبا حازم، ما هذا الجفاءُ؟ قال أبو حازم: يا أمير المؤمنين، وأيُّ جفاءٍ رأيت

(١) مُحَيَّاهُ: وجهُهُ. تجهَّم: صار جَهْمًا، وهو الكريه المنظر.
(٢) الضرُّ: شدةُ الإملاقِ والفاقةِ. منجدًا: متجهًا جهةَ نجد، ومُتهِمًا: متَّجهًا جهة تهامة.
(٣) سلمة بن دينار، الإمام القدوة، الواعظ، شيخ المدينة النبوية، أبو حازم المديني المخزومي، مولاهم الأعرج، كان ثقة كثير الحديث، مات سنة أربعين ومائة، وقيل غير ذلك، «سير أعلام النبلاء» (٦/ ٩٦).

مني؟ قال: أتاني وجوهُ أهل المدينةِ ولم تأتني؟ فقال: يا أمير المؤمنين، أعيذك باللَّهِ أن تقولَ ما لم يكن، ما عرفتني قبلَ هذا اليوم، ولا أنا رأيتُك.

قال: فالتفت سليمانُ إلى محمدِ بن شهابٍ الزُّهري، فقال: أصاب الشيخُ وأخطأتُ.

قال سليمانُ: يا أبا حازمٍ، ما لنا نَكْرَهُ الموتَ؟

قال: لأنَّكم أخربتم الآخرةَ وعمَّرتُمُ الدنيا، فكرهتم أن تنتقلوا من العمرانِ إلى الخرابِ.

قال: أصبتَ يا أبا حازمٍ، فكيف القدومُ غدًا على اللَّهِ؟

قال: أمَّا المحسنُ فكالغائب يقدمُ على أهلِهِ، وأمَّا المسيءُ، فكالآبقِ[1] يقدمُ على مولاه.

فبكى سليمانُ، وقال: ليت شعري، مَا لَنَا عند اللَّهِ؟

قال: اعرضْ عملَكَ على كتابِ اللَّهِ.

قال: وأي مكانٍ أجدُهُ؟

قال: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤].

قال سليمانُ: فأين رحمةُ اللَّهِ يا أبا حازمٍ؟

قال أبو حازمٍ: رحمةُ اللَّهِ قريبٌ من المحسنين.

قال له سليمانُ: يا أبا حازمٍ، فأيُّ عبادِ اللَّهِ أكرمُ؟

قال: أولُو المروءةِ والنُّهَى.

قال له سليمان: فأيُّ الأعمالِ أفضلُ؟

---

(١) الآبِقُ: الهاربُ.

قال أبو حازمٍ: أداءُ الفرائضِ مع اجتنابِ المحارمِ.

قال سليمانُ: فأيُّ الدعاءِ أسمعُ؟

قال أبو حازمٍ: دعاءُ المحسَن إليه للمحسِنِ.

قال: فأيُّ الصدقةِ أفضلُ؟

قال: للسائِلِ البائسِ، وجهدُ المقِلِّ، ليس فيها مَنٌّ ولا أذًى.

قال: فأيُّ القولِ أعدلُ؟

قال: قولُ الحقِّ عند مَنْ تَخافُهُ أو ترجوه.

قال: فأيُّ المؤمنين أكيس؟

قال: رجل عَمِلَ بطاعةِ اللَّهِ، ودَلَّ النَّاسَ عليها.

قال: فأيُّ المؤمنين أحمقُ؟

قال: رجلٌ انحطَّ في هوى أخيه، وهو ظالمٌ فباع آخرتَه بدنيا غيرِهِ.

قال سليمانُ: أصبتَ، فما تقول فيما نحن فيه؟

قال: يا أميرَ المؤمنين، أَوَتُعفني؟

قال له سليمانُ: لا، ولكن نصيحة تُلقيها إليَّ.

قال: يا أمير المؤمنين، إنَّ آباءك قهروا النَّاسَ بالسيفِ، وأخذوا هذا المُلْكَ عُنْوَةً على غيرِ مشورةٍ من المسلمين ولا رضًا منهم، حتى قتلوا منهم مقتلةً عظيمةً، فقد ارتحلوا عنها فلو شعرتَ ما قالوه وما قيل لهم.

قال له رجلٌ من جلسائِه: بئسَ ما قلتَ يا أبا حازمٍ.

قال أبو حازم: كذبتَ، إنَّ اللَّه أخذ ميثاق العلماءِ لَيُبَيِّنُنَّهُ للنَّاسِ ولا يكتمونه.

قال له سليمانُ: فكيف لنا أن نصلح؟

قال: تَدَعُونَ الصَّلَفَ، وتمسكون بالمروءةِ، وتقسمون بالسَّويَّةِ.

قال له سليمانُ: كيف لنا بالمأخَذِ به؟

قال أبو حازمٍ: تأخُذُهُ من حِلِّهِ، وتضعُهُ في أهلِهِ.

قال له سليمانُ: هل لك يا أبا حازمٍ أن تصحبنا، فتصيبَ منا ونصيبَ منك.

قال: أعوذُ باللَّهِ.

قال: ولِمَ ذاك؟!

قال: أخشى أن أركنَ إليكم شيئًا قليلًا، فيذيقني اللَّهُ ضعفَ الحياةِ وضعفَ المماتِ.

قال له سليمانُ: ارفع إلينا حوائجَكَ.

قال: تنجيني من النَّارِ، وتدخلني الجنَّةَ!

قال سليمانُ: ليس ذاك إليَّ.

قال أبو حازم: فما لي إليك حاجةٌ غيرها.

قال: فادع لي.

قال أبو حازم: اللَّهمَّ إن كان سليمانُ وَلِيَّكَ فيسِّره لخيرِ الدنيا والآخرةِ، وإن كان عدوَّكَ فخُذْ بناصِيتِهِ إلى ما تحبُّ وترضى.

قال له سليمانُ: قطُّ؟

قال أبو حازمٍ: قد أَوْجَزْتُ وَأَكْثَرْتُ إن كنتَ من أهِلِهِ، وإن لم تكن من أهلِه فما ينفعني أن أرميَ عن قوسٍ ليس لها وترٌ.

قال سليمانُ: أوصني.

قال: سأوصيك وأُوجِزُ: عَظِّمْ ربَّك ونَزِّههُ أن يراك حيث نهاك، أو يفقدَكَ حيث أَمَرَك.

فلمَّا خرج من عنده بَعَثَ إليه بمائةِ دينارٍ وكَتَبَ إليه: أَنْ أَنْفِقْهَا ولك عندي مثلُها كثيرٌ.

قال: فردَّها عليه وكتب إليه: يا أمير المؤمنين: أُعِيذُكَ باللَّهِ أن يكون سؤالُك إياي هَزْلًا، أو رَدِّي عليك بَذْلًا، وما أرضاها لك، فكيف أرضاها لنفسي؟!

وكتب إليه أنَّ موسى بنَ عمرانَ لما وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عليه رِعَاءً يسقون ووجَدَ من دونهم جاريتين تذودان، فسألهما، فقالتا: ﴿لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٣، ٢٤].

وذلك أنَّه كان جائعًا خائفًا لا يأمن، فسأل ربَّه ولم يسأل النَّاسَ، فلم يفطنِ الرِّعَاءُ، وفطنت الجاريتان، فلما رجعتا إلى أبيهما أخبرتاه بالقصَّة وبقوله، فقال أبوهما -وهو شعيبٌ-: هذا رجلٌ جائعٌ، فقال لإحداهما: فادعيه، فلمَّا أتته عظَّمته وغطَّت وجهَهَا، وقالت: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾، فشقَّ على موسى حين ذكرتْ: ﴿أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾. ولم يجد بُدًّا من أن يتبعَهَا، إنَّه كان بين الجبالِ جائعًا متوحشًا، فلمَّا تبعها هَبَّت الريحُ فجعلت تصفقُ ثيابَهَا على ظهرِها فتصف لها عجيزتَهَا، وكانت ذاتَ عَجُزٍ، وجعَل موسى يُعْرِضُ مرَّةً وَيَغُضُّ مَرَّةً، فلمَّا عِيلَ صبرُهُ ناداها: يا أَمَةَ اللَّهِ كوني خلفي، وأريني السَّمْتَ بقولِكِ: ذا، فلمَّا دخل على شعيبٍ إذا هو بالعشاءِ مُهَيَّأً، فقال له شعيبٌ: اجلسْ يا شابُّ فتعشَّ.

فقال له موسى: معاذَ اللَّهِ. قال شعيبٌ: لمَ، أما أنت جائعٌ؟

قال: بلى، ولكنِّي أخاف أن يكون هذا عِوَضًا لما سقيتُ لهما، وأنا من أهل بيتٍ لا نبيعُ شيئًا من ديننا بملءِ الأرضِ ذَهَبًا، فقال له شعيبٌ: لا يا شابُّ، ولكنَّها عادتي وعادةُ آبائي: نقري الضيفَ، ونطعمُ الطعامَ. فجلس موسى فأكلَ.

فإن كانت هذه المائةُ دينارٍ عِوَضًا لِمَا حدَّثتُ فالميتةُ والدمُ ولحمُ الخنزيرِ في حالِ الاضطرارِ أحلُّ من هذه، وإن كان لحقٍّ في بيت المالِ فلي فيها نُظَرَاءُ، فإن ساويتَ بيننا وإلا فليس لي فيها حاجةٌ».

وكان شيخ الإسلام ابن تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ لا يَذِلُّ إلا لِرَبِّه، ولا يخضعُ إلا لبارِئِهِ، والذي جاء عنه في ذلك أكثرُ من أن يُحصى، وإنَّما أضربُ لك مثلًا وأسوقُ شاهدًا.

«فإنَّه لما ظهرَ السلطانُ غازان على دمشقَ المحروسة جاءه ملِكُ الكُرْجِ[1] وبذَلَ له أموالًا كثيرةً جزيلةً على أن يُمكِّنَه من الفتْكِ بالمسلمين، من أهل دمشق، ووصل الخبرُ إلى الشيخِ، فقامَ من فَوْرِهِ وشَجَّعَ المسلمين، ورغَّبهم في الشهادةِ، ووَعدهم على قيامهم بالنصر والظَّفَرِ والأمْنِ، وزوالِ الخوفِ.

فانتُدِبَ منهم رجالٌ من وجوهِهِم وكبرائِهم وذوي الأحلامِ منهم، فخرجوا معه إلى حَضْرَةِ السلطانِ غازان، فلمَّا رآهم السلطانُ قال: مَنْ هؤلاء؟ فقيل: هم رؤساءُ دمشق، فأذِنَ لهم، فحضروا بين يديه.

فتقدم الشيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ أولًا، فلمَّا أن رآه أوقع اللَّهُ له في قلبِهِ هَيْبَةً عظيمةً، حتَّى أدناه منه وأجلسَه.

وأخذَ الشيخُ في الكلامِ معه أولًا في عكسِ رأيِه من تسليطِ المخذولِ مَلِكِ الكُرْجِ على المسلمين، وضَمِنَ له أموالًا، وأخبره بحُرْمَةِ دماءِ المسلمين، وذكَّره وَوَعَظَهُ، فأجابه إلى ذلك طائِعًا، وحُقنت بسببِه دماءُ المسلمين، وحُمِيَتْ ذراريهم وصِينَ حريمُهم.

قال الشيخُ وجيه الدين بن المنجَّا: كنتُ حاضرًا مع الشيخ حينئذٍ، فجعل يُحدِّثُ السلطانَ بقولِ اللَّهِ ورسولهِ، ويرفع صوتَه على السلطانِ في أثناءِ حديثِهِ حتى جثا على رُكبتيه، وجعل يقرب منه في أثناءِ حديثِهِ، حتى لقد قَرُبَ أن تلاصقَ ركبتُه رُكْبَةَ السلطانِ، والسلطانُ مع ذلك مُقْبِلٌ عليهِ بِكُلِّيَّتِهِ، مُصْغٍ لما يقولُ، شاخصٌ إليه لا يُعرض عنه، وإنَّ السلطانَ من شِدَّةِ ما أوقعَ اللَّهُ له في قلبِهِ من المحبَّةِ والهيبةِ سأل مَنْ يخصُّه من أهلِ حضرته: مَنْ هذا الشيخ؟ إنِّي لم أَرَ مثلَه، ولا أثبتَ قلبًا منه، ولا أَوْقَعَ من حديثِه في قلبي، ولا رأيتني أعظمَ انقيادًا لأحدٍ منه. فأُخبر بحالِهِ، وما هو عليه من العلمِ والعملِ. فقال الشيخُ للتُّرْجُمَانِ: قل لغازان: أنتَ تزعُم أنَّك مسلمٌ، ومعك قاضٍ وإمامٌ وشيخٌ

(١) هو نارين داود ملكُ الكُرْج إحدى دولِ الأرمن.

ومُؤذِّنون على ما بَلَغنا، فغزوتنا، وأبوك وجدُّك كانا كَافِرين وما عملا الذي عَمِلْتَ، عاهدا فوفيا وأنتَ عاهدتَ فغَدَرْتَ، وقلتَ فما وفِّيتَ وجُرْتَ.

ثمَّ خرج من بين يديه مُعزَّزًا مُكَرَّمًا بحُسنِ نيَّتِهِ الصالحةِ من بَذْلِ نفسِه في طلبِ حَقْنِ دماء المسلمين، فَبَلَّغَهُ اللَّهُ ما أرادَه، وكان أيضًا سببًا في تخليصِ غالبِ أسارى المسلمين من أيديهم وردِّهم على أهليهم وحِفْظِ حريمهم، وهذا من أعظم الشجاعةِ والثباتِ وَقوَّةِ الجأش.

وكان يقول: لن يخافَ الرجلُ غير اللَّهِ إلا لمرضٍ في قلبِه، فإنَّ رجلًا شكا إلى أحمد ابن حنبل خوفَه من بعضِ الولاةِ فقال له: لو صحَّحتَ لم تَخَفْ أحدًا؛ أي: خَوْفُكَ من أجلِ زوالِ الصِّحَّةِ من قلبك»[1].

وأخبر القاضي أبو العباس أنَّهم لما حضروا مجلسَ غازان: قُدِّمَ لهم طعام فأكلوا منه إلا ابن تَيْمِيَّةَ، فقيل: لِمَ لَم تأكل؟ فقال: كيف آكلُ من طعامِك وكلُّه ممَّا نهبتم من أغنامِ النَّاسِ، طبختموه بما قطعتم من أشجار النَّاسِ.

ثمَّ إنَّ غازان طلبَ منه الدُّعاءَ، فقال في دعائِهِ: اللَّهمَّ إن كنتَ تعلمُ أنَّه إنَّما قاتَلَ لتكونَ كلمةُ اللَّهِ هي العليا وجاهدَ في سبيلك فأيِّدهُ وانصره، وإن كان للمُلكِ والدنيا والتكاثرِ فافعل به واصنع، فكان يدعو عليه وغازانُ يُؤَمِّنُ على دعائِهِ، ونحنُ نجمعُ ثيابنَا خوفًا أن يُقْتَلَ فيصيبنا بدمه»[2].

وفي مقابلِ هذه الصُّورِ المشرقةِ، صُورٌ مظلمةٌ حالكةُ السَّوَادِ، لقومٍ من أهلِ العلمِ حملتهم خِسَّةُ مكاسبِ الدنيا على نسيانِ أمثالِ نصيحةِ أبي حنيفة فأهلكوا أنفسَهم وما كانوا يشعرون.

قال أبو حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ: «كُنْ من السُّلطَانِ كمَا أنتَ من النَّارِ، تنتفع منها وتتباعدُ عنها،

---

(١) «الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية» للحافظ عمر بن علي البزار، تحقيق زهير الشاويش (ص٦٣)، و«غاية الأماني» لمحمود شكري الألوسي (٢/ ١٧٦).

(٢) «غاية الأماني» (٢/ ١٧٧).

ولا تَدْنُ منها فإنَّكَ تحترقُ».

من أمثلةِ ذلك ما فعله غياث بن إبراهيم حين دخل على الخليفة المهدي وهو يلعبُ بالحَمَام فساق في الحال إسنادًا إلى النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**لا سَبَقَ إلا في نَصلٍ أو خُفٍّ أو حافِرٍ**»[1]. وزاد فيه: «أوْ جَنَاحٍ». فعرف المهديُّ أنَّه كذب لأجله، فأمرَ بذبحِ الْحَمَامِ.

وأمَّا أولُو العزمِ من أهلِ العلمِ فإنَّهم لا تذلُّ رقابُهم ولا قلوبُهم إلا للَّهِ تعالى وحده، يعزُّ بهم العلمُ، وبه يعزُّون، ويصانُ بهم وبه يُصانون.

يقول الشافعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ ناصحًا ومُرْشِدًا -وأَرْفِقْ به من ناصحٍ مُرشِدٍ، فعليك بها؛ فإنَّها نفيسةٌ غاليةٌ-:

ارْحَلْ بِنَفْسِكَ عَنْ أَرْضٍ تَضامُ بِهَا ... وَلا تَكُنْ مِنْ فِرَاقِ الأَهْلِ فِي حَرَقِ
وَالْكُحْلُ نَوْعٌ مِنَ الأحْجَارِ تَنْظُرُهُ ... في أَرْضِهِ وَهْوَ مَرمِيٌّ عَلَى الطُّرُقِ
لَمَّا تَغَرَّبَ حَازَ الْفَضْلَ أَجْمَعَهُ ... فَصَارَ يُحْمَلُ بَيْنَ الْجَفْنِ والْحَدَقِ

* * *

(١) الحديث بدون الزيادة صحيحٌ: رواه أبو داود (٢٥٧٤)، والنسائي (٣٥٨٧)، والترمذي (١٧٠٠)، وابن ماجه (٢٨٧٨).
والسَّبَقُ -بفتح الباءِ-: ما يُجعل للسابق على سَبْقِه من جُعْلٍ أو نَوَالٍ، فأمَّا السبْقُ -بسكون الباءِ-: فهو مصدر سبقت الرجل أسبقه سبقًا، يريد أنَّ الجُعْلَ والعطاءَ لا يستحق إلا في سباق الخيل والإبل وما في معناها، وفي النصل: وهو الرمي.

٦- الْكِبْرُ وَالعُجْبُ

إعْزَازُ العلمِ وصيانتُهُ لا يعني الكِبرَ بسببِهِ، ولا العُجْبَ به.

الكِبرُ والعُجْبُ خُلُقان مذمومان، يترفَّعُ عنهما آحادُ المؤمنين فكيف بأهل العلمِ منهم؟! وقد ذَمَّ اللَّه تعالى الْكِبْرَ في مواضعَ كثيرةٍ من كتابهِ الكريم، فقال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

وقال تعالى مخاطبًا إبليسَ -لعنه اللَّه-: ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلْخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٧٢].

وقال تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ

نَفۡسُقُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾ [غافر: ٣٥].

والآياتُ في ذَمِّ الكِبْرِ والعُجْبِ كثيرةٌ كثيرةٌ، ولكنِّي قدَّمتُ ما ذكرتُ ليكون كالتنبيهِ على ما وراءَه، ومَنْ أراد جمعًا فدونَه كتابَ اللَّهِ تعالى.

وأحاديثُ النبيِّ ﷺ في هذا المعنى كثيرةٌ -أيضًا- وضافيةٌ، أسوق إليك منها:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قال: قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ في قَلْبِهِ مثقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**»، فَقَالَ رَجُلٌ: إنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا، وَنَعْلُهُ حَسَنةً!! قَالَ: «**إنَّ اللَّهَ جَميلٌ يُحِبُّ الْجَمَالِ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمَطُ النَّاسِ**»[1] رواه مسلمٌ.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسُولَ اللَّه ﷺ قال: «**لا يَنْظُرُ اللَّهُ يَوْم الْقِيَامَةِ إِلَى مَنْ جَرَّ إِزَارَهُ بَطَرًا**»[2]. متفقٌ عليه.

وعن أبي سعيد الخُدْريِّ رضي الله عنه، عَنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: «**احْتَجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: فِيَّ الجَبَّارُونَ وَالْمُتَكَبِّرُونَ، وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: فِيَّ ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَمَسَاكِينُهُم. فَقَضَى اللَّهُ بَيْنَهُمَا: إِنَّكِ الْجَنَّةُ رَحْمَتِي، أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ، وَإِنَّكِ النَّارُ عَذَابي، أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ، وَلِكِلَيْكُمَا عَلَيَّ مِلْؤُهَا**»[3]. رواه مسلم.

وعن أبي هُرَيرةَ رضي الله عنه قالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي فِي حُلَّةٍ تُعْجِبُهُ نَفْسُهُ، مُرَجِّلٌ رَأسَهُ، يَخْتَالُ فِي مِشْيَتِهِ، إِذْ خَسَفَ اللَّهُ بِهِ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِي الأَرْضِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**»[4]. متفقٌ عليه.

وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللَّه ﷺ: «**قَالَ اللَّهُ تعَالَى: الْعِزُّ إِزَارِي،**

(١) رواه مسلمٌ (٩١)، و«**بَطَرُ الحقِّ**»: دَفْعُهُ وإنكارُهُ ترفعًا وتجبُّرًا. و«**غَمْطُ النَّاسِ**»: احتقارُهم.
(٢) رواه البخاري (٥٤٥١)، ومسلم (٢٠٨٧).
(٣) رواه مسلم (٢٨٤٦).
(٤) «البخاري» (٥٤٥٢)، و«مسلم» (٢٠٨٨)، و«**مُرَجِّلٌ رأسَهُ**»: أي: ممشِّطُهُ. و«**يتجلجل**» -بالجيمين-، أي: يغوصُ وينزلُ.

وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، فَمَنْ يُنَازِعُنِي عَذَّبْتُه»[١]. رواه مسلم.

*** الْكِبْرُ ظَاهِرٌ وَبَاطِنٌ:**

«اعلم أنَّ الكبرَ ينقسمُ إلى ظاهرٍ وباطنٍ، فالباطنُ هو خُلُقٌ في النفسِ، والظاهرُ هو أعمالٌ تصدرُ عن الجوارحِ، واسمُ الْكِبْرِ بالخُلُقِ الباطنِ أحقُّ، أمَّا الأعمالُ فإنَّها ثمراتٌ لذلك الخُلُقِ.

وخُلُقُ الكبرِ موجبٌ للأعمالِ، ولذلك إذا ظَهَرَ على الجوارحِ يُقال: تَكَبَّرَ، وإذا لم يظهر يُقال: في نفسِهِ كِبْرٌ.

ولا يُتصوَّر أن يكونَ متكبِّرًا إلا أن يكونَ مع غيره، وهو يَرَى نفسَه فوق ذلك الغيرِ في صفاتِ الكمالِ، فعند ذلك يكون متكبِّرًا، ولا يكفي أن يستعظم نفسَه ليكون متكَبِّرًا، فإنَّه قد يستعظمُ نفسَه، ولكنَّه يرى غيرَهُ أعظمَ من نفسِهِ، أو مثلَ نفسِهِ فلا يتكبَّرُ عليه.

ثمَّ هذه العِزَّةُ تقتضي أعمالًا في الظاهرِ والباطنِ هي ثمراتٌ، ويسمَّى ذلك تكبُّرًا.

فهو إن حاجَّ أو نَاظَرَ أَنِفَ أن يُرَدَّ عليه، وإن وُعِظَ استنكفَ من القبولِ، وإن وَعَظَ عَنُفَ في النُّصْحِ، وإن رُدَّ عليه شيءٌ من قوله غَضِبَ، وإن عَلَّمَ لم يَرْفُقْ بالمتعلِّمين واستذلَّهم وانتَهَرهم وامتنَّ عليهم واستخدمَهُم، وينظرُ إلى العامَّةِ كأنَّه ينظرُ إلى الحميرِ، استجهالًا لهم واستحقارًا، والأعمالُ الصادرةُ عن خُلُقِ الكبرِ كثيرةٌ، وهي أكثرُ من أن تُحصى فلا حاجةَ إلى تَعْدَادِها فإنَّها مشهورةٌ.

فهذا هو الكِبْرُ، وآفتُه عظيمةٌ، وغائِلتُهُ هائلةٌ، وفيه يهلكُ الخَوَاصُّ من الخَلْقِ، وكيف لا تَعْظُمُ آفتُهُ وقد قال ﷺ: «**لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ في قلبِهِ مثقالُ ذَرَّةٍ من كِبْرٍ**»[٢].

*** الفَرْقُ بينَ الكِبْرِ والمَهَابَةِ:**

قد يلتبسُ الكبرُ بغيره ممَّا ليس كبرًا بل هو مشروعٌ، وهناك فَرْقٌ دقيقٌ بين المَهَابَةِ

---

(١) رواه مسلمٌ (٢٦٢٠).

(٢) «تهذيب إحياء علوم الدين» لعبد السلام هارون (٢/ ١٢٨)، والحديث رواه مسلم (٩١).

التي هي أَثَرٌ من آثارِ الطاعةِ والقُرَبِ، والكِبْرِ الذي هو من أخَصِّ صفاتِ إبليسَ -لعنه اللَّهُ- .

قال ابنُ القيمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الفرقُ بين المهابَةِ والكِبْرِ: أنَّ المَهَابَةَ أَثَرٌ من آثارِ امتلاءِ القلبِ بعظمةِ اللَّه ومحبَّتِهِ وإجلالِهِ، فإذا امتلأَ القلبُ بذلك حَلَّ فيه النورُ، ونزلت عليه السَّكِينَةُ، وأُلْبِسَ رداءَ الهَيْبَةِ، فاكتسى وجهُهُ الحلاوةَ والمهابَة، فأخذ بمجامعِ القلوبِ محبَّةً ومهابَةً، فَحَنَّتْ إليه الأفئدةُ وقرَّتْ به العيونُ وأَنِستْ به القلوبُ، فكلامُهُ نورٌ ومدخلهُ نورٌ ومخرجُهُ نورٌ وعملُهُ نورٌ، وإن سكتَ علاه الوقارُ، وإن تكلَّمَ أخذَ بالقلوبِ والأسماعِ.

وأمَّا الكِبْرُ، فَأَثَرٌ من آثارِ العُجْبِ والبَغْي في قلبٍ قد امتلأَ بالجهلِ والظلمِ، ترحَّلَت منه العبوديةُ، ونَزَلَ عليه الْمَقْتُ، فنظرُهُ إلى النَّاسِ شَزْرٌ[(١)]، ومشيُهُ بينهم تَبَخْتُرٌ[(٢)]، ومعاملتُهُ لهم معاملةُ الاستِئْثَارِ لا الإِيثَارِ[(٣)] ولا الإنصافِ، ذاهبٌ بنفسِهِ تِيهًا، لا يبدأُ مَنْ لَقِيَهُ بالسَّلامِ، وإن ردَّ عليه، رَأَى أنَّه قد بَالَغَ في الإنعامِ عليه، لا ينطلقُ لهم وجهُهُ، ولا يسعُهم خُلُقُه، ولا يرى لأحدٍ عليه حقًّا، ويرى حقوقَه على النَّاسِ، ولا يرى فضلَهم عليه، ويرى فضلَه عليهم، ولا يزدادُ من اللَّهِ إلا بُعْدًا ومن النَّاسِ إلا صَغَارًا وبُغْضًا»[(٤)].

*** دَرَجَاتُ العُبَّادِ والعُلَمَاءِ في الكِبْرِ:**

ثمَّ إنَّ العُبَّادَ والعلماءَ ليسوا في الكبرِ سواءً، بل هم فيه على درجاتٍ.

قال ابن قدامة رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعلم أنَّ العلماءَ والعبَّادَ في آفةِ الكبرِ على ثلاثِ درجاتٍ:

الأولى: أن يكون الكِبْرُ مُسْتَقِرًّا في قلبِ الإنسانِ منهم، فهو يرى نفسَه خيرًا مِن غيرِه،

(١) نَظَرٌ شَزْرٌ: فيه إعراضٌ، كنظرِ المعادي المبغضِ، وقيل: هو نظرٌ على غير استواءٍ بمؤخَّرِ العينِ.
(٢) يتبختر: يختال، البختري: المتبختر في مشيه، وهي مشيةُ المتكبرِ المعجبِ بنفسه.
(٣) الاستئثار: الانفرادُ بالشيءِ، وضدُّه الإيثار.
(٤) «الروح» لابن القيم (ص٣١٦).

إلا أنَّه يجتهدُ ويتواضعُ، فهذا في قلبِهِ شجرةُ الكبرِ مغروسةٌ، إلا أنَّه قد قَطَع أغصانَهَا.

الثانية: أن يظهرَ لك بأفعالِهِ، من الترفُّعِ في المجالسِ، والتقدُّمِ على الأقرانِ، والإنكارِ على مَنْ يُقَصِّرُ في حَقِّه، فترى العالِمَ يُصَعِّرُ خَدَّه للنَّاسِ، كأنَّه مُعْرِضٌ عنهم، والعابدَ يعيشُ كأنَّه مُسْتَقْذِرٌ لهم، وهذان قد جَهِلَا ما أَدَّبَ اللَّهُ به نَبِيَّهُ ﷺ حين قال: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥].

الثالثة: أن يُظهِرَ الكِبْرَ بلسانِهِ، كالدعاوى والمفاخَرَةِ، وتزكيةِ النَّفْسِ، وحكاياتِ الأحوالِ في مَعْرِضِ المفاخرةِ لغيرِهِ.

واعلم أنَّ التكبُّرَ يَظْهَرُ في شمائِلِ الإنسانِ، كَصَعَرِ[١] وجهِهِ، ونَظَرِهِ شَزَرًا، وإطراقِ رأْسِهِ، وجلوسِهِ متربِّعًا ومتَّكِئًا، وفي أقوالِهِ، حتَّى في صوتِهِ ونغمتِهِ، وصيغةِ إيرادِهِ الكلام، ويظهر ذلك أيضًا في مَشْيِهِ وتَبَخْتُرِهِ، وقيامِهِ وقعودِهِ وحركاتِهِ وسكَنَاتِهِ، وسائِرِ تقلُّبَاتِهِ»[٢].

* الْكِبْرُ بِالْعِلْمِ:

ما به يتكبَّرُ المتكبِّرُ على غيره كثيرٌ، منه: العلمُ، ومنه: العملُ والعبادةُ، ومنه: الصورةُ الظاهرةُ من جَمَالٍ وحُسْنِ هَيْئَةٍ.

«والكِبْرُ بالعلمِ، هو أعظمُ الآفات وأغلبُ الأَدْوَاءِ[٣] وأبْعَدُها عن قَبُولِ العلاجِ إلا بشدَّةٍ شديدةٍ وَجَهْدٍ جهيدٍ، وذلك لأنَّ قَدْرَ العلمِ عَظيمٌ عند اللَّهِ، عظيمٌ عند النَّاسِ، وهو أعظمُ من قَدْرِ المالِ والجمالِ وغيرِهما، بل لا قَدْرَ لهما أصلًا إلا إذا كان معهما علمٌ وعملٌ.

ولذلك قال كعبُ الأحبارِ: «إنَّ للعلمِ طغيانًا كطغيانِ المالِ».

---

(١) **الصَّعَرُ**: ميلٌ في الوجه، وقيل: الصَّعَرُ: الميلُ في الخَدِّ خاصةً، وقد صَعَّرَ خَدَّهُ وَصَاعَرَهُ: أمالَهُ من الكبرِ. [لسان العرب (صعر) (ص٢٤٤٧)].

(٢) «مختصر منهاج القاصدين» (ص٢٩٢).

(٣) الأدواء: جمع داء.

وقال عمر ﷺ: «العالمُ إذا زَلَّ زَلَّ بزلَّتِهِ عَالَمٌ».

*** وَلن يَقْدِرَ العالِمُ على دفْعِ الكِبْرِ إلا بمعرفةِ أمرين:**

أحدهما: أن يعلمَ أنَّ حُجَّةَ اللَّه على أهلِ العلمِ آكَدُ، وأنَّه يُحتمل من الجاهلِ ما لا يُحتملُ عُشْرُهُ من العالِمِ، فإنَّ مَنْ عصى اللَّهَ تعالى عن معرفةٍ وعلمٍ فجنايتُهُ أفحشُ، إذ لم يقض حقَّ نعمةِ اللَّهِ عليه في العلمِ.

الأمر الثاني: أنَّ العالِمَ يعرفُ أنَّ الكِبرَ لا يليقُ إلا باللَّه ﷻ وحده، وأنَّه إذا تكبَّرَ صار ممقوتًا عند اللَّه بغيضًا، وقد أحبَّ اللَّهُ منه أن يتواضعَ وقال له: إنَّ لك عندي قَدْرًا ما لم تَرَ لنفسِك قَدْرًا، فإن رأيتَ لنفسِك قَدْرًا فلا قَدْرَ لك عندي، فلابدَّ وأن يُكَلِّفَ نفسَه ما يحبُّه مولاه منه»[1].

*** الفرقُ بين الْكِبْرِ والْعُجْبِ:**

«الكبرُ خُلُقٌ باطِنٌ تصدرُ عنه أعمالٌ هي ثمرتُهُ، فيظهر على الجوارِحِ، وذلك الخُلُقُ هو رؤيةُ النَّفْسِ على المتكَبَّرِ عليه، يعني: يرى نفسَه فوق غيره في صفاتِ الكمالِ، فعند ذلك يكون متكبرًا.

وبهذا ينفصلُ عن العُجْبِ، فإنَّ العُجْبَ لا يستدعي غير المُعْجَب، حتى لو قُدِّرَ أن يُخْلَقَ الإنسانُ وحدَهُ تُصُوِّرَ أن يكونَ مُعْجَبًا ولا يتصوَّرُ أن يكون متكبِّرًا، إلا أن يكون مع غيرِهِ وهو يرى نفسَه فوقه، فإنَّ الإنسانَ متى رأى نفسَه بعينِ الاستعظامِ، حَقَرَ مَنْ دونه وازدراه، وصفةُ هذا المتكبِّرِ أن ينظرَ إلى العامَّةِ كأنَّه ينظرُ إلى الحميرِ استجهالًا واستحقارًا»[2].

«والعُجْبُ يدعو إلى الكِبْرِ؛ لأنَّه أحدُ أسبابِهِ، فيتولَّدُ من العُجْبِ الكِبْرُ، ومن الكِبْرِ الآفاتُ الكثيرةُ التي لا تخفى، وهذا مع الْخَلْقِ.

(١) «تهذيب إحياء علوم الدين» (٢/ ١٣٦).
(٢) «مختصر منهاج القاصدين» (ص٢٩١).

وأمَّا مع اللَّهِ تعالى، فالعُجْبُ يدعو إلى نسيانِ الذنوبِ وإهمالِها فبعضُ ذنوبهِ لا يذكرها ولا يتفقَّدُها، لظنِّه أنَّه مُسْتَغْنٍ عن تفقُّدِها فينساها، وما يتذكَّرُهُ منها فيستصغرُه ولا يستعظمُه، فلا يجتهد في تداركِهِ أو تلافيه، بل يظنُّ أنَّه يُغْفَرُ له.

وأمَّا العباداتُ والأعمالُ فإنَّه يستعظمُهَا ويتبجَّحُ بها، ويَمُنُّ على اللَّه تعالى بفعلها، وينسى نعمةَ اللَّه عليه بالتوفيق والتمكين منها، ثمَّ إذا أُعجِبَ بها عَمِيَ عن آفاتِهَا، ومَنْ لم يتفقَّد آفاتِ الأعمالِ كان أكثَرُ سعيه ضائعًا، فإنَّ الأعمالَ الظاهرةَ إذا لم تكن خالصةً نقيَّةً من الشوائبِ قلَّما تنفعُ وإنَّما يتفقَّدُ مَنْ يغلبُ عليه الإشفاقُ والخوفُ دون العُجْبِ.

والْمُعْجَبُ يغترُّ بنفسِهِ وبرأيِهِ، ويأمن مكرَ اللَّهِ وعذابَه، ويظنُّ أنَّه عند اللَّهِ بمكانٍ، وأنَّ له عند اللَّهِ مِنَّةً وحقًّا بأعمالِهِ التي هي نعمةٌ من نعمِهِ، وعَطِيَّةٌ من عطاياه، ويخرجه العُجْبُ إلى أن يُثْنِيَ على نفسِهِ ويَحْمَدَهَا ويزكِّيها.

وإن أُعْجِبَ برأيِهِ وعملِهِ وعقلِهِ مَنَعَ ذلك من الاستفادَةِ، ومن الاستشارةِ والسؤالِ، فيستبدُّ بنفسِهِ ورأيه ويستنكِفُ من سؤالِ مَنْ هو أعلمُ منه، وربَّما يُعْجَبُ بالرأي الخطأ الذي خَطَرَ له فيفرحُ بكونِهِ من خواطِره، ولا يفرحُ بخواطِرِ غيرِهِ فيصرُّ عليه، ولا يسمعُ نُصْحَ ناصح، ولا وَعَظَ واعِظٍ، بل ينظرُ إلى غيره بعينِ الاستجهالِ، ويصرُّ على خَطَئِه، فإن كان رأيُه في أمرٍ دنيويٍّ فَيُخفِق فيه، وإن كان في أمرٍ دينيٍّ لاسيما فيما يتعلَّقُ بأصولِ العقائِدِ فيهلِك به.

ومن أعظمِ آفاتِهِ أن يَفْتُرَ في السعي، لظنِّه أنَّه قد فاز، وأنَّه قد استغنى، وهو الهلاكُ الصريحُ الذي لا شُبْهَةَ فِيه»[1].

*** الفَرْقُ بَيْنَ الصِّيَانَةِ والْكِبْرِ:**

هناك فَرْقٌ دقيقٌ بين صيانَةِ النَّفْسِ عمَّا يشينُها، والتكبُّرِ والعُجْبِ.

وقد جَلَّاه ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: «الفَرْقُ بين الصيانةِ والتكبُّرِ: أنَّ الصائنَ لنفسِه

(١) «تهذيب إحياء علوم الدين» (٢/ ١٣٨).

بمنزلةِ رجلٍ قد لَبِسَ ثوبًا جديدًا نقيَّ البياضِ ذا ثَمَنٍ، فهو يدخلُ به على الملوكِ فَمَنْ دونَه، فهو يصونه عن الوَسَخِ والغُبَارِ والطُّبُوعِ[1] وأنواعِ الآثارِ إبقاءً على بياضِهِ ونقائِهِ، فتراه صَاحِبَ تَعَزُّزٍ وهروبٍ من المواضعِ التي يُخشى منها عليه التلوُّثُ فلا يسمحُ بأثرٍ ولا طَبَعٍ ولا تلوُّثٍ يعلو ثوبَهُ.

وإن أصابه شيءٌ من ذلك على غِرَّةٍ- أي: فَجْأَةٍ- بادَرَ إلى قَلْعِهِ وإزالتِه وَمَحْوِ أثرِهِ، وهكذا الصائنُ لقلبِهِ ودينِهِ تراه يتجنَّبُ طُبُوعَ الذنوبِ وآثارَها، فإنَّ لها في القلبِ طُبُوعًا وآثارًا أعظمُ من الطُّبُوعِ الفاحشةِ في الثوبِ النقيِّ البياضِ، ولكنَّ على العيونِ غشاوةً أن تُدْرِكَ تلك الطبوَع.

فتراه يَهْرُبُ من مَظَانِّ التلوُّثِ ويحترسُ من الخَلْقِ، ويتباعدُ من مخالطتهم مخافةَ أن يحصلَ لقلبِهِ ما يحصلُ لثوبِ الذي يُخالِطُ الدَّبَّاغين والذَّبَّاحين والطَّبَّاخين وغيرهم.

بخلافِ صاحبِ العُلُوِّ، فإنَّه وإن شابه هذا في تَحَرُّزِهِ، وتجنُّبه فهو يقصدُ أن يعلوَ رقابهم ويجعَلهم تحت قدميه، فهذا لونٌ وذاك لونٌ»[2].

وقد كان إمامُ العلماءِ وقُدْوَةُ السالكين وأُسْوَةُ المؤمنين محمَّدٌ ﷺ أشدَّ النَّاسِ تواضعًا على عُلُوِّ منصبِهِ ورفْعَةِ قَدْرِهِ.

عن الأسودِ بن يزيدَ قال: «سُئِلَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: مَا كانَ النَّبيُّ ﷺ يَصْنَعُ في بيتِهِ؟ قالت: كَانَ يَكُونُ في مِهْنَةِ أَهْلِهِ- يعني: خِدْمَةِ أهلِهِ-، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلاةُ خَرَجَ إلى الصَّلَاةِ»[3]. رواه البخاري.

وعن أبي رِفَاعَةَ تَميم بنِ أَسِيدٍ رضي الله عنه قال: «انْتَهَيْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَخْطُبُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، رَجُلٌ غَرِيبٌ جَاءَ يَسْأَلُ عَنْ دِينه لا يَدْري مَا دِينُهُ؟ فَأَقْبَلَ عَلَيَّ

(١) **الطبوعُ**: جمعُ طَبَعٍ. والطَبْعُ -بالسكونِ-: الختمُ، وبالتحريك: الدنسُ، وأصلُهُ من الوسخِ والدَّنَس يغشيان السيفَ.
(٢) «الروح» لابن القيم (ص٣١٧).
(٣) رواه البخاري (٦٤٤).

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَتَرَكَ خُطْبَتَهُ حَتَّى انْتَهَى إِلَيَّ، فأُتِيَ بِكُرْسيٍّ، فَقَعَدَ عَلَيْهِ، وَجَعَلَ يُعَلِّمُنِي مَمَّا عَلَّمَهُ اللَّهُ، ثُمَّ أَتَى خُطْبَتَهُ، فَأَتَمَّ آخِرَهَا»(١). رواه مسلمٌ.

وعن أنسٍ رضي الله عنه أَنَّهُ مَرَّ على صِبْيَانٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ وقَالَ: «كَانَ النَّبيُّ ﷺ يفعَلُهُ»(٢). مُتَّفَقٌ عليه.

وقد كان قانونُ السَّلَفِ الذي يحكمهم، ويهتدون بنوره، الالْتِزَامَ بقولِ النَّبيِّ ﷺ، الذي رواه عنه عِيَاضُ بنُ حمَارٍ رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلا يَبْغِيَ أَحَدٌ على أَحَدٍ**»(٣). رواه مسلم.

وهذا أُوَيْسُ بن عامرٍ رضي الله عنه يُؤْثِرُ أنْ يكونَ مع ضِعَافِ النَّاسِ وصَعَالِيكِهِم، ولا يُحْتَفَلَ بهِ، ولا يُؤْبَه له، وهو مَنْ هو.

أخرجَ مسلمٌ بسندِهِ عن أُسَيْرِ بنِ جَابرٍ قال: «كان عُمرُ بنُ الخَطَّابِ إِذَا أَتَى عليه أَمْدَادُ(٤) أهلِ الْيَمَنِ سَأَلَهم: أَفِيكُم أُوَيْسُ بنُ عَامِرٍ؟ حتَّى أَتَى على أُوَيْسٍ فقال: أَنْتَ أُوَيْسُ بنُ عَامرٍ؟ قال: نعم. قال: مِنْ مُرادٍ، ثمَّ مِنْ قَرَنٍ؟ قال: نعَمْ. فقال: فَكَانَ بِكَ بَرَصٌ فَبَرَأْتَ مِنْهُ إلا مَوْضِعَ دِرْهَمٍ؟ قال: نعم. قال: لَكَ وَالدةٌ؟ قال: نَعَمْ.

قال: سَمِعْتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقولُ: «**يَأْتي عليكُمْ أُوَيْسُ بنُ عامِرٍ مَعَ أَمْدَادٍ منْ أهل اليَمَنِ، مِنْ مُرَادٍ، ثُمَّ مِنْ قَرَنٍ، كَانَ بِهِ بَرَصٌ فَبَرَأَ منه إلا مَوْضِعَ دِرْهَمٍ، لَهُ وَالِدَةٌ هو بِها بَرٌّ لَوْ أَقْسَمَ على اللَّهِ لأَبَرَّهُ، فَإِن اسْتَطَعْتَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ فَافْعَلْ**». فَاسْتَغْفِرْ لِي. فَاسْتَغْفَرَ لَهُ، فقالَ عُمَرُ: أَيْنَ تَرِيدُ؟ قال: الْكُوفَةَ. قال: أَلا أَكْتُبُ لَكَ إلى عَامِلِهَا؟ قال: أَكُونُ في غَبْراءِ النَّاسِ أحَبُّ إِلَيَّ»(٥).

وفي روايةٍ لمسلمٍ عن عمرَ بنِ الخطَّابِ رضي الله عنه قال: إِنِّي سمعتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقولُ:

---

(١) رواه مسلم (٨٧٦).
(٢) رواه البخاري (٥٨٩٣)، ومسلم (٢١٦٨).
(٣) رواه مسلم (٢٨٤٦).
(٤) أمداد أهل اليمن: هم الجماعةُ الغزاةُ الذين يمدون جيوش الإسلام في الغزو، واحدهم مَدَدٌ.
(٥) «مسلم» (٢٤٥٢)، و«غبراء الناس» أي: ضعافهم وصعاليكهم وأخلاطهم الذين لا يؤبه لهم.

«إِنَّ خَيْرَ التَّابِعِينَ رَجُلٌ يُقَالُ له: أُوَيْسٌ. ولَه والدَةٌ وكان به بَيَاضٌ، فَمُرُوهُ فَلْيَسْتَغْفِرْ لكم»[1].

قال النوويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله ﷺ: **«إِنَّ خَيْرَ التَّابِعينَ رَجُلٌ يُقالُ لهُ أُوَيْسٌ»**. هذا صريحٌ في أَنَّهُ خيرُ التَّابِعين، وقد يُقال: قد قال أحمدُ بن حنبل وغيره: أفضلُ التابعين: سعيدُ بنُ المسيِّب؟! والجوابُ: أَنَّ مرادَهم أَنَّ سعيدًا أفضلُ في العلومِ الشرعيةِ، كالتفسيرِ والحديثِ والفقهِ ونحوها، لا في الخيرِ عند اللَّهِ تعالى.

وقوله: **«أَمْدادُ أهلِ اليَمَنِ»**. هم الجماعةُ الغزاةُ الذين يمدُّون جيوشَ الإسلامِ في الغزو، وواحدُهُم: مَدَدٌ.

وقوله: «أَكُونُ في غَبْرَاءِ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيَّ»؛ أي: ضِعَافُهم وصَعَالِيكُهم وأخلاطُهم الذين لا يُؤْبَهُ لهم، وهذا من إيثارِ الخمولِ وكَتْمِ حالِه»[2].

والكِبْرُ والعُجْبُ من رُعُوناتِ نَفْسٍ تَنْسَى أَنَّ ما بها من نعمةٍ فمن اللَّهِ، وأَنَّ الأمرَ كلَّه للَّهِ، والعلمُ الصحيحُ والاهتداءُ بالهدى المستقيم حربٌ لتلك الرذائلِ من الكبرِ والعُجْبِ والصَّلَفِ والغرورِ؛ لأنَّه: «إذا تَمَّ عِلمُ الإنسانِ لم يرَ لنفسِه عملًا، وإِنَّما يرى إِنْعَامَ الموفِّقِ لذلك العملِ، الذي يمنعُ العاقلَ أن يرى لنفسِهِ عملًا أو يُعْجَبَ بِه، وذلكَ بِأشياءَ:

منها: أَنَّه وُفِّقَ لذلك العملِ، ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧].

ومنها: أَنَّه إذا قِيسَ بالنِّعَمِ لم يَفِ بمعشارِ عُشْرِهَا.

ومنها: أَنَّه إذا لُوحِظَتْ عَظَمَةُ المخدومِ، احْتُقِرَ كُلُّ عملٍ وتعبُّدٍ.

هذا إذا سَلِمَ من شائِبَةٍ، وخَلَصَ من غَفلَةٍ، فأَمَّا والغفلاتُ تُحيطُ بِهِ، فينبغي أن يغلبَ الحذرُ من رَدِّه، ويخافَ العتابَ على تقصيرِهِ فيه، فيشغل عن النظرِ إليه.

---

(١) «مسلم» (٢٥٤٢).

(٢) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٦/ ٩٥).

وتأمَّل على الفطناءِ أحوالَهم في ذلك، فالملائكةُ الذين يسبِّحون اللَّيلَ والنَّهارَ لا يفتُرون قالوا: ما عبدناك حقَّ عبادتِكَ.

والخليلُ عليه السلام يقول: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى﴾ [الشعراء: ٨٢]. وما أَدَلَّ بتصبُّرِهِ على النَّارِ وتسليمِهِ الولدَ إلى الذَّبْحِ.

ورسولُ اللَّهِ ﷺ يقول: «**مَا مِنْكُمْ مَنْ يُنْجِيهِ عَمَلُهُ**»، قَالوا: ولا أنتَ؟ قالَ: «**ولا أَنَا؛ إلا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ برَحْمَتِهِ**»[1].

وأبو بكر رضي الله عنه يقول: وهل أنا ومالي إلا لك يا رسولَ اللَّهِ؟.

وعمرُ رضي الله عنه يقول: لو أنَّ لي طلاعَ الأرضِ لافتديتُ بها من هولِ ما أمامي قبل أن أعلمَ ما الخبرُ.

وابن مسعودٍ رضي الله عنه يقول: ليتني إذا متُّ لا أُبْعَثُ.

وعائشةُ رضي الله عنها تقول: ليتني كنتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا.

وهذا شأنُ جميعِ العقلاءِ، فَرَضِيَ اللَّهُ عن الجميعِ.

ولولا عِزَّةُ الفَهْمِ ما تكبَّرَ مُتَكَبِّرٌ على جِنسِهِ، ولَكَانَ كلُّ كاملٍ خائِفًا محتقِرًا لعملِهِ، حَذِرًا من التقصيرِ في شكرِ ما أُنْعِمَ عليه به.

وفَهْمُ هذا المشروحِ يُنَكِّسُ رَأْسَ الْكِبْرِ، ويُوجِبُ مساكنَةَ الذُّلِّ، فتأمَّلْه فإنَّه أصلٌ عظيمٌ»[2].

ويكفي العالِمَ شرفًا ما في العلمِ من شَرَفٍ، ويكفيه عِزًّا ما فيه من عزٍّ.

قال أبو مروان الطُّبنيُّ:

إِنِّي إِذَا احْتَوَشَتْنِي أَلْفُ مَحْبَرَةٍ ... يَكْتُبْنَ: حَدَّثَنِي طَوْرًا، وَأَخْبَرَنِي

(١) رواه البخاري (٦٠٩٨)، ومسلم (٢٨١٦).

(٢) «صيد الخاطر» لابن الجوزي (ص٤٧٢).

نَادَتْ بِحَضْرَتِيَ الأَقْلَامُ مُعْلِنَةً هَذِي الْمَفَاخِرُ لا قَعْبَانِ مِنْ لَبَنِ

وعلى الجملة فما تحلَّى العالِمُ بحليةٍ أجملَ، ولا ارتدى حُلَّةً أفخَرَ من التواضعِ، وما تردَّى العالمُ برداءٍ أحقَر، ولا تَزَيَّا بزِيٍّ أسوأَ من الكِبْرِ والْعُجْبِ.

لذلك وصَّى عمرُ رضي الله عنه أهلَ العلمِ بالتواضعِ، للمعلِّم والمتعلِّم سواء، وهي نصيحةٌ غاليةٌ فاجعلها منك على ذُكْرٍ أَبَدًا.

قال عمرُ رضي الله عنه: «تَعَلَّموا العلمَ وعَلِّمُوهُ النَّاسَ، وتَعَلَّمُوا له الوقارَ والسَّكِينَةَ، وَتَواضَعُوا لمنْ تَعَلَّمْتُمْ منه، وَلِمَنْ عَلَّمْتُمُوهُ، ولا تَكُونُوا جَبَابِرَةَ العلماءِ، فلا يقُومُ جَهْلُكُمْ بِعِلْمِكُمْ»[1].

وكان أحمدُ بن حنبلٍ رحمه الله على جلالتِه وإمامته من أشدِّ النَّاسِ تواضعًا.

قال عارمٌ أبو النعمان: «وَضَعَ أحمدُ بن حنبلٍ عندي نفقتَهُ، فكان يجيءُ فيأخذ منها حاجَتَهُ، فقلتُ له يومًا: يا أبا عبد اللَّهِ، بلغني أنَّك من العربِ، فقال: يا أبا النعمان، نحن قومٌ مساكينُ، فلم يزل يدافعني حتى خرجَ، ولم يقل شيئًا».

وقال أبو بكرٍ المروذيُّ: «قلتُ لأبي عبد اللَّه: إنِّي لأرجو أن يكون يُدْعى لك في جميعِ الأمصارِ، فقال: يا أبا بكرٍ، إذا عَرَفَ الرجلُ نفسَهُ فما ينفعه كلامُ النَّاسِ؟!!».

* * *

(١) «جامع بيان العلم» (ص١٧٩).

٧- فَقْدُ الْخَشْيَةِ فِيهِ

قالَ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].

أي: إنَّما يَخْشَاهُ حَقَّ خشيتِهِ العلماءُ العارفون به؛ لأنَّه كلَّما كانت المعرفةُ للعظيمِ القديرِ العليمِ الموصوفِ بصفاتِ الكمالِ، المنعوتِ بالأسماءِ الحُسْنَى؛ كلَّما كانت المعرفةُ به أتمَّ، والعلمُ به أكمل؛ كانت الخشيةُ له أعظمَ وأكثرَ.

قال عليُّ بن أبي طلحة عن ابنِ عباسٍ قي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ قال: «الذين يعلمون أنَّ اللَّهَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ».

وقال سعيدُ بن جُبيرٍ: «الخشيةُ هي التي تحولُ بينك وبين معصيةِ اللَّهِ ﷻ».

وقال الحسنُ البصريُّ: «العالمُ مَنْ خَشِي الرحمنَ بالغيب، ورَغِبَ فيما رَغَّبَ اللَّهُ فيه، وزَهِدَ فيما سَخِطَ اللَّهُ فيه، ثمَّ تَلا الحسنُ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾».

وعن ابن مسعودٍ ؓ أنَّه قالَ: «ليس العِلمُ عن كَثرَةِ الحديثِ، ولكنَّ العلمَ عن كَثْرَةِ الخشيةِ».

وقال أحمدُ بن صالحٍ المصريُّ عن ابنِ وهبٍ عن مالكٍ قال: «إنَّ العلمَ ليس بكَثْرَةِ الروايةِ، وإنَّما العلمُ نُورٌ يجعله اللَّه في القلبِ».

قال أحمدُ بنُ صالحٍ المصريُّ: «معناه: أنَّ الخشيةَ لا تُدْرَكُ بكَثْرَةِ الروايةِ، وإنَّما العلمُ الذي فَرَضَ اللَّهُ ﷻ أن يُتَّبَعَ، إنَّما هو الكتابُ والسُّنَّةُ وما جاء عن الصحابةِ ﭫ، ومَنْ بَعْدَهُمْ من أَئِمَّةِ المسلمين، فهذا لا يُدْرَكُ إلا بالروايةِ، ويكون تأويل قوله: «نُورٌ» يُريدُ به: فَهْمَ العلمِ، ومعرفةَ معانيه».

وقال سفيانُ الثوريُّ عن أبي حيان التَّيْمِيِّ عن رَجُلٍ قال: «كان يُقال: العلماءُ ثلاثةٌ: عَالِمٌ باللَّهِ عَالِمٌ بأمرِ اللَّهِ، وعَالِمٌ باللَّه ليس بعالِمٍ بأمرِ اللَّهِ، وعَالِمٌ بأمرِ اللَّهِ ليس بعالمٍ

باللَّهِ؛ فالعالِمُ باللَّهِ وبأمر اللَّهِ الذي يخشى اللَّه تعالى ويعلمُ الحدودَ والفرائضَ، والعالِمُ باللَّهِ ليس بعالم بأمرِ اللَّهِ الذي يخشى اللَّهَ ولا يعلمُ الحدودَ والفرائضَ، والعالِمُ بأمرِ اللَّهِ ليس بعالمٍ باللَّهِ الذي يعلمُ الحدودَ والفرائِضَ ولا يخشى اللَّه ﷻ»[(١)].

وقال القرطبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ -يعني: بعَقِبِ قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾- تعليل لوجوبِ الخشيةِ، لدلالتِهِ على عقوبةِ العصاةِ وقهرِهم، وإثابةِ أهلِ الطاعةِ والعفوِ عنهم، والمعاقِبُ المثيبُ حقُّهُ أن يُخْشَى»[(٢)].

وقد توعَّدَ اللَّهُ ﷻ الذين لا تلينُ قلوبُهم للذِّكْرِ، ولا يُحْدِثُ عندهم الخشيةَ، ومدحَ الذين تُدركهم الخشيةُ عند سماعِ كلامِهِ سبحانه، فقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزُّمَر: ٢٢، ٢٣].

قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قولُه تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: فلا تلينُ عند ذِكْرِهِ، ولا تَخشعُ، ولا تَعِي، ولا تَفْهَمُ، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؛ ثمَّ مدحَ اللَّهُ ﷻ كتابَهُ القرآنَ العظيمَ المنزَّلَ على رَسولِهِ الكريم.

قال اللَّهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾.

قال مجاهدٌ: يعني: القرآنُ كلُّه متشابهٌ مَثَانِيَ.

وقال قتادةُ: الآيةُ تُشبه الآيةَ، والحرفُ يشبهُ الحرفَ.

وقال الضَّحَّاكُ: ﴿مَّثَانِىَ﴾: ترديدُ القولِ ليفهموا عن ربِّهم -تبارك وتعالى-.

وقال عبدُ الرحمنُ بنُ زيدِ بنِ أسلمَ: ﴿مَّثَانِىَ﴾: مُرَدَّدٌ، ردَّدَ موسى في القرآنِ

(١) انظر: «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٣/ ٥٥٤).
(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٤/ ٣٣٢).

وصالحًا وهودًا والأنبياء- عليهم الصلاة والسلامُ- في أمكنةٍ كثيرةٍ.

وقال سعيدُ بن جُبيرٍ: عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿مَّثَانِيَ﴾، أي: «القرآن يُشبه بعضُه بعضًا، وَيُرِدُّ بعضُه على بعضٍ».

وقولُه تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: هذه صفةُ الأبرارِ، عند سماعِ كلامِ الجبَّار، المهيمنِ العزيزِ الغفارِ، لما يفهمون منه من الوعدِ والوعيدِ، والتخويفِ والتهديدِ، تقشعرُّ منه جلودُهم من الخشيةِ والخوف.

﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ لما يرجون وَيُؤَمِّلُون من رحمتِهِ ولطفِهِ، فهم مخالفون لغيرِهم من الفجَّارِ من وجوه:

أحدها: أنَّ سَماعَ هؤلاء هو تلاوةُ الآياتِ، وسماعَ أولئك نغماتُ الأبياتِ من أصوات القيناتِ.

الثاني: أنَّهم إذا تُليت عليهم آياتُ الرحمنِ خَرُّوا سُجَّدًا وبُكِيًّا، بأدبٍ وَخَشْيَة ورجاءٍ ومحبَّةٍ وفَهْمٍ وعِلْمٍ، كما قالَ اللَّهُ- تبارك وتعالى-: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣].

أي: لم يكونوا عند سماعها متشاغلين لاهين عنها، بل مُصْغين إليها فاهمين بصيرين بمعانيها، فلهذا إنَّما يعملون بها ويسجدون عندها، عن بصيرةٍ لا عن جهلٍ ومتابعةٍ لغيرهم.

الثالث: أنَّهم يلزمون الأدبَ عند سَمَاعِهَا، كما كان الصحابة رضي الله عنهم عند سَمَاعِهِم كلامَ اللَّهِ تعالى من تلاوةِ رسول اللَّه ﷺ تَقْشَعِرُّ جلودُهم ثمَّ تلين مع قلوبِهِم إلى ذِكْرِ اللَّهِ، لم يكونوا يتصارخون ولا يتكلَّفون بما ليس فيهم، بل عندهم من الثباتِ والسكونِ والأدبِ والخشيةِ ما لا يلحقهم أحدٌ في ذلك، ولهذا فازوا بالمدحِ من الربِّ الأعلى في الدنيا والآخرة.

قال عبد الرَّزَّاقِ: حدثنا مَعْمَرٌ قال: تلا قتادةُ رحمه الله: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ

يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾. قال: هذا نَعْتُ أولياءِ اللَّهِ، نَعَتَهُمُ اللَّهُ ﷿ بأنْ تَقْشَعِرَّ جلودُهُم، وتبكي أعينُهم وتطمئنَّ قلوبُهم إلى ذِكْرِ اللَّهِ، ولم يَنْعَتْهُم بذهابِ عقولِهم والغَشَيانِ عليهم إنَّما هذا في أهلِ البدعِ، وهذا من الشيطانِ.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي: هذه صفةُ مَنْ هداه اللَّهُ، ومَنْ كان على خِلَافِ ذلك فهو مِمَّن أَضَلَّهُ اللَّهُ ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾»[(١)].

وقال القرطبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولُه تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ معنى ﴿مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ أنَّ قلوبَهم تزدادُ قسوةً من سَمَاعِ ذِكْرِهِ، وقيل: إنَّ ﴿مِّن﴾ بمعنى «عَنْ» والمعنى: قَسَتْ قلوبُهُم عن قبولِ ذِكْرِ اللَّهِ. وهذا اختيارُ الطبريِّ.

وقال مالكُ بن دينارٍ: ما ضُرِبَ عَبْدٌ بعقوبةٍ أعظم من قسوةِ القلبِ، وما غَضِبَ اللَّه على أحدٍ إلا نَزَع الرحمةَ من قلبِهِ.

قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ يعني: القرآنَ. لمَّا قال: ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ﴾ [الزمر: ١٨]. بيَّن أنَّ أحسنَ ما يُسْمَعُ: ما أنزَلَهُ اللَّهُ: وهو القرآنُ.

﴿كِتَٰبٗا﴾ نَصْبٌ على الْبَدَلِ من ﴿أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ ويُحتمل أن يكونَ حالًا منه.

﴿مُّتَشَٰبِهٗا﴾. يُشبه بعضُه بعضًا في الآي والحروفِ، وقيل: يُشبه كُتُبَ اللَّهِ المُنَزَّلَةَ على أنبيائِهِ، لما يتضمَّنُه من أمرٍ ونهيٍ وترغيبٍ وترهيبٍ، وإن كان أعمَّ وأعجزَ، ثمَّ وصفَه فقال: ﴿مَّثَانِيَ﴾. تُثَنَّى فيه القصصُ والمواعظُ والأحكامُ، وثُنِّي للتلاوةِ فلا يُمَلُّ.

﴿تَقۡشَعِرُّ﴾ تضطربُ وتتحرَّكُ بالخوفِ ممَّا فيه من الوعيدِ.

﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: عند آيةِ الرحمةِ، وقيل: إلى العملِ بكتابِ اللَّه والتصديقِ به، وقيل: ﴿إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ يعني: الإسلام.

وعن أسماءَ بنتِ أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ ﵄ قالت: كان أصحابُ النبيِّ ﷺ: إذا قُرِئ عليهم القرآنُ، كما نَعَتَهُمُ اللَّهُ، تَدْمَعُ أَعينُهُم، وتَقْشَعِرُّ جلودُهُمْ، قيل لها: فإنَّ أُنَاسًا

(١) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٤/ ٥٠).

اليومَ إذا قُرِئَ عليهم القرآنُ خَرَّ أحدُهم مَغْشيًّا عليه، فقالت: أعوذُ باللَّهِ من الشيطانِ الرجيم.

وقال سعيدُ بن عبد الرحمن الجُمَحِيُّ: مَرَّ ابنُ عمر برَجُلٍ من أهلِ القرآنِ سَاقِطًا، فقال: ما بالُ هذا؟! قالوا: إنَّه إذا قُرِئَ عليه القرآنُ، وسَمِعَ ذِكْرَ اللَّهِ سَقَطَ، فقال ابنُ عمر: إنَّا لنخشى اللَّهَ وما نسقطُ، ثمَّ قال: إنَّ الشيطانَ يدخلُ في جَوْفِ أحدهم، وما كان هذا صنيعَ أصحابِ محمدٍ ﷺ.

وقال عمر بن عبد العزيز: ذُكِرَ عند ابن سيرين الذين يُصرعون إذا قُرِئ عليهم القرآنُ، فقال: بيننا وبينهم أن يقعدَ أحدُهم على ظَهْرِ بيتٍ باسطًا رِجْلَيْهِ، ثمَّ يُقْرَأُ عليه القرآنُ من أَوَّلِهِ إلى آخرِهِ، فإن رمى بنفسِهِ فهو صادقٌ»[1].

وقال السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا تلينُ لكتابِهِ، ولا تتذكَّرُ آياتِهِ، ولا تطمئنُّ بذكرِهِ، بل هي مُعْرِضَةٌ عن ربِّها ملتفتةٌ إلى غيره، فهؤلاء لهم الويلُ الشديدُ والشرُّ الكبيرُ، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وأيُّ ضلالٍ أعظمُ من ضلالِ مَنْ أعرضَ عن وَلِيِّه ومَنْ كُلُّ السعادَةِ في الإقبالِ عليه، وقسا قلبُهُ عن ذِكْرِهِ، وأَقبلَ على كلِّ ما يضرُّه.

قولُه تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾. لما فيه من التخويفِ والترهيبِ المزعجِ، ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: عند ذِكْرِ الرجاءِ والترغيبِ، فهو تارةً يُرَغِّبُهُم في عملِ الخيرِ وتارةً يُرَهِّبُهُم من عملِ الشرِّ»[2].

والشأن كما قال الربيعُ بنُ أنسٍ: «مَنْ لم يَخْشَ اللَّهَ تعالى فليس بعالمٍ».

وكما قال مجاهدٌ: «إنَّما العالمُ مَنْ خَشِيَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ».

وفي قولٍ لمجاهدٍ: «إنَّما الفقيهُ مَنْ يخافُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ».

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٢٣٧).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (ص٤٦٢).

وقال ابنُ مسعودٍ ﷺ: «كفى بخشيةِ اللَّهِ تعالى علمًا، وبالاغترارِ به جهلًا».

وقيل لسعدِ بن إبراهيم: «مَنْ أفقهُ أهلِ المدينة؟ قال: أتقاهم لربِّه ﷻ»(١).

فالخشيةُ والخشوعُ من لوازمِ العلمِ الحقِّ لا ينفكَّان عنه بحالٍ أبدًا؛ لأنَّهما من لوازمِ الفهمِ الحقِّ، وهو -أي: الفهمُ الحقُّ، وليس الوقوفُ على رسومِ الألفاظِ وصورةِ العلمِ- من لوازمِ العلمِ الحقِّ.

وقد حكى ابنُ الجوزيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ **حالَ الذين يقفون عند رسومِ الألفاظِ وصورةِ العلمِ دون النَّفَاذِ إلى لُبِّه ولُبَابِهِ فقال:**

«رأيتُ أكثَر العلماءِ مشغولين بصورةِ العلمِ دون فَهْمِ حقيقتِه ومقصودِهِ، فالقارئُ مشغولٌ بالرواياتِ -أي: بالقراءات- عاكفٌ على الشَّوَاذِّ، يرى أنَّ المقصودَ نفْسُ التلاوةِ، ولا يتلمَّحُ عَظَمَةَ المتكلِّم، ولا زَجْرَ القرآنِ وَوَعْدَهُ.

وربَّما ظنَّ أنَّ حفظَ القرآنِ يدفعُ عنه، فتراه يترخَّصُ في الذنوبِ، ولو فَهِمَ لَعلمَ أنَّ الحجَّةَ عليه أقوى ممَّنْ لم يَقْرأْ.

والمحدِّثُ يجمعُ الطُّرُقَ، ويحفظُ الأسانيدَ، ولا يتأمَّلُ مقصودَ المنقولِ، ويرى أنَّه قد حَفِظَ على النَّاسِ الأحاديثَ، فهو يرجو بذلك السلامةَ، وربَّما رخَّصَ في الخطايا ظنًّا منه أنَّ ما فعلَ في خدمةِ الشريعةِ يدفعُ عنه.

والفقيهُ قد وقع له أنَّه بما عرفَ من الجدالِ الذي يقوى به خِصَامُهُ، والمسائِلِ التي عرفَ فيها المذهبَ، قد حصلَ بما يُفتي به النَّاسَ ما يرفعُ قَدْرَهُ، ويمحو ذَنْبَهُ، فربَّما هَجَمَ على الخطايا ظنًّا منه أنَّ ذلك يدفعُ عنه، وربَّما لم يحفظِ القرآنَ ولم يعرفِ الحديثَ، وأنَّهما ينهيان عن الفواحشِ بِزَجْرٍ ورفقٍ، ويضاف إليه مع الجهلِ بهما حبُّ الرياسةِ، وإيثارُ الغَلَبَةِ في الجدلِ، فتزيدُ قسوةُ قلبِهِ.

وعلى هذا أكثرُ النَّاسِ، صُورُ العلمِ عندهم صناعةٌ، فهي تُكسِبُهم الكبرَ والحماقةَ.

(١) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (١٤/ ٣٣١).

وقد حكى بعضُ المُعْتَبَرِينَ عن شيخٍ أفنى عُمُرَهُ في علومٍ كثيرةٍ، أنَّه فُتِنَ في آخرِ عُمُرِهِ بفسقٍ أصرَّ عليه، وبارزَ اللَّهَ به، وكانت حالُهُ تُعطي بمضمونها: أنَّ علمي يدفعُ عنِّي شرَّ ما أنا فيه ولا يبقى له أثرٌ.

وكان كأنَّه قد قَطَعَ لنفسِهِ بالنَّجَاةِ، فلا يُرى عنده أثرٌ لخوفٍ، ولا نَدَمٌ على ذنبٍ. قال: فتغيَّرَ في آخرِ عُمُرِهِ ولازَمَهُ الفقرُ، فكانَ يَلقى الشدائدَ ولا ينتهي عن قُبْحِ حالِهِ، إلى أن جُمِعَتْ له يومًا قَرَارِيطُ[1] على وَجْهِ الكُدْيَةِ[2] فاستحيا من ذلك وقال: يا ربِّ إلى هذا الحدِّ؟؟

قال الحاكي: فتعجَّبْتُ من غفلتِهِ، كيف نسي اللَّهَ ﷻ، وأرادَ منه حُسْنَ التدبيرِ له والصِّيَانَةَ وسَعَةَ الرِّزقِ، وكأنَّه ما سَمِع قولَه تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦]. ولا عَلِمَ أنَّ المعاصيَ تسدُّ أبوابَ الرزقِ، وأنَّ مَنْ ضَيَّعَ أمْرَ اللَّهِ ضَيَّعَهُ اللَّهُ.

فما رأيتُ علمًا ما أفادَ كعلمِ هذا؛ لأنَّ العالمَ إذا زَلَّ انكسرَ، وهذا مُصِرٌّ لا تُؤلِمُهُ معصيتُه.

وكأنَّه- أي: عِلْمُهُ- يُجَوِّزُ له ما يفعل، أو كأنَّ له التصرُّفَ في الدينِ تحليلًا وتحريمًا، فَمَرِضَ عاجلًا، ومات على أقْبَحِ حالٍ.

قال الحاكي: ورأيتُ شيخًا آخرَ حصَّل صُورَ العِلْمِ، فما أفادَتْهُ؛ كان أيَّ فِسْقٍ أمكنَهُ لم يَتَحَاشَ منه، وأيَّ أمرٍ لم يُعجبه من القَدَر عارضَهُ بالاعتراضِ على المُقَدَّرِ واللَّوْمِ، فعاش أكْدَرَ عَيْشٍ، وعلى أقبحِ اعتقادٍ حتى دَرَجَ[3].

وهؤلاء لم يفهموا معنى العلمِ، وليس العلمُ صُوَرَ الألفاظِ، إنَّما المقصودُ فَهْمُ المرادِ منه، وذاك يُورِثُ الخشيةَ والخوفَ، ويُري المِنَّةَ للمُنْعِمِ بالعلمِ، وقُوَّةَ الحُجَّةِ له

(١) القراريطُ: جَمْعُ قِيرَاطٍ، وهو نِصْفُ عُشْرِ دينارٍ، والقيراط جُزْءٌ من أجزاء الدِّينار، وأهلُ الشام يجعلونَهُ جزءًا من أربعةٍ وعشرين، والياءُ في القيراطِ بَدَلٌ من الرَّاء وأصلُهُ قِرَّاط، «لسان العرب» (ص٣٥٩١).

(٢) الكُدْيَةُ: الإلحاح في المسألةِ، يُقالُ أكدى: أي: ألحَّ في المسألة.

(٣) دَرَجَ الشيخُ والصبيُّ يدرُجُ درجًا ودريجًا ودرجانًا، فهو دراج: مَشَيَا مشيًا ضعيفًا وَدبًّا.

على المتعلِّم»[١].

والخشوعُ منزلةٌ من منازل السائرين إلى اللَّهِ تعالى، لها مَعَالِمُ وعليها شواهدُ.

وقد شَرَحَ ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ **في «مدارج السالكين» مَعَالِمَهَا، وَبَيَّنَ شَواهِدَهَا غاية البيانِ وأجلاه، فقال** رَحِمَهُ اللَّهُ: «الخشوعُ في أصلِ اللغةِ: الانخفاضُ، والذُّلُّ، والسكونُ، قال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [طه: ١٠٨] أي: سَكَنَتْ، وذلَّتْ، وَخَضَعَتْ، ومنه وَصْفُ الأرضِ بالخشوعِ، وهو: يَبَسُهَا، وانخفاضُها، وعدمُ ارتفاعها بالريِّ والنباتِ، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [فصلت: ٣٩].

والخشوعُ: قيامُ القلبِ بين يدي الربِّ بالخضوعِ والذُّلِّ، والجمعيةُ عليه.

وقيل: الخشوعُ: الانقيادُ للحقِّ، وهذا من موجباتِ الخشوعِ، فمن علاماتِهِ: أنَّ العبدَ إذا خُولِفَ ورُدَّ عليه بالحقِّ، استقبلَ ذلك بالقبول والانقيادِ.

وقيل: الخشوعُ: خُمُودُ نيرانِ الشهوةِ، وسكونُ دُخانِ الصُّدُورِ، وإشراقُ نورِ العظيمِ في القلبِ.

وقال الْجُنيدُ: الخشوعُ تذلُّلُ القلوبِ لعلَّامِ الغيوبِ.

وأجمعَ العارِفون على أنَّ الخشوعَ محلُّه القلبُ، وثمرتُه الجوارحُ، وهي تُظْهِرُهُ.

ورأى النبيُّ ﷺ رجلًا يعبثُ بِلِحْيَتِه في الصلاةِ، فقال: «**لَو خَشَعَ قَلبُ هَذَا لَخَشَعَتْ جَوَارِحُهُ**»[٢].

وقال النبيُّ ﷺ: «**التَّقْوَى هَاهُنَا**». وَأَشَارَ إِلَى صَدرِه ثَلاثَ مَرَّاتٍ[٣]. رواه مسلم.

---

(١) «صيد الخاطر» (ص٥٤٤).

(٢) قال الحافظ ابن رجب: رُوي ذلك عن حذيفة رضي الله عنه، وسعيد بن المسيب، ويروى مرفوعًا لكن بإسنادٍ لا يصحُّ «الخشوع في الصلاة» (ص٧). بل حكم بوضعه مرفوعًا الألبانيُّ، قال: «الحديثُ موضوعٌ مرفوعًا، ضعيفٌ موقوفًا بل مقطوعًا». «سلسلة الأحاديث الضعيفة» رقم (١١٠).

(٣) رواه مسلم (٢٥٦٤).

وقال بعضُ العارفين: حُسْنُ أَدَبِ الظَّاهِرِ عُنوانُ أَدَبِ الباطنِ.

ورأى بعضهم رجلًا خاشِعَ الْمَنكِبَينِ والبدنِ، فقال: يا فلانُ، الخشوعُ هاهنا -وأشَار إلى صدرِهِ- لا هاهنا -وأشارَ إلى مَنكِبَيهِ-.

وكان بعضُ الصحابةِ رضي الله عنهم وهو حذيفةُ، يقول: إيَّاكم وخشوعَ النفاقِ. فقيل له: وما خشوعُ النفاقِ؟ قال: أن ترى الجسدَ خاشعًا، والقلبَ ليس بخاشعٍ.

ورأى عمرُ بنُ الخطابِ رضي الله عنه رَجُلًا طَأْطَأَ رقبتَه في الصلاةِ، فقال: يا صاحبَ الرقبةِ، ارفع رقبتَك، ليس الخشوعُ في الرِّقَابِ، إنَّما الخشوعُ في القلوبِ.

ورأتْ عائشةُ رضي الله عنها شبابًا يَمْشَون ويتماوَتُون في مِشيَتِهم، فقالت لأصحابِها: مَنْ هؤلاء؟ فقالوا: نُسَّاكٌ. فقالت: كان عمرُ بن الخطاب إذا مشى أَسْرَعَ، وإذا قال أَسْمَعَ، وإذا ضَرَبَ أوجَعَ، وإذا أَطْعَمَ أَشبَعَ، وكان هو النَّاسِكَ حقًّا.

والحقُّ -يقول ابنُ القيم- أنَّ الخشوعَ؛ معنًى يلتئم من التعظيمِ، والمحبَّةِ، والذُّلِّ، والانكسارِ»[1].

فإذا أثمرَ العلمُ في القلبِ خَشْيَةً وخُشُوعًا، فهذا هو العلمُ النافعُ الذي سأل النبيُّ ﷺ رَبَّه سبحانه، وإذا لم يُثْمِر العلمُ في القلبِ خشيةً وإخباتًا، فهذا هو العلمُ الذي تعوَّذَ النبيُّ ﷺ منه، وأمَرَ الأمَّةَ أن تتعوَّذ باللَّهِ منه.

عن أبي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه قال: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّه ﷺ فَشَخَصَ بِبَصَرِهِ إِلَى السَّمَاءِ، ثُمَّ قالَ: «**هَذَا أَوَانُ يُخْتَلَسُ الْعِلْمُ مِنَ النَّاسِ حَتَّى لا يَقْدِرُوا مِنْهُ عَلَى شَيء**». فَقَالَ زِيادُ بنُ لَبِيدٍ الأنصاريُّ: كَيْفَ يُخْتَلَسُ مِنَّا، وَقَدْ قَرَأْنَا الْقُرْآنَ؟ فَوَاللَّهِ لَنَقْرَأَنَّهُ، وَلَنُقْرِئَنَّهُ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا.

فقال: «**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا زِيَادُ، إِنْ كَنْتُ لأَعُدُّكَ مِنْ فُقَهَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، هَذِهِ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ عِنْدَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، فَمَاذَا تُغْنِي عَنْهُمْ؟!**».

(١) «مدارج السالكين» لابن القيم (١/ ٥٢٠).

قال جُبَيْرُ بنُ نُفَيرٍ: فَلَقِيتُ عُبَادَةَ بنَ الصَّامتِ، قُلْتُ: أَلَا تَسْمَعُ إِلَى ما يَقُولُ أَخُوكَ أَبو الدَّرْدَاءِ؟ فَأَخْبَرْتُهُ بِالَّذِي قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ، قالَ: صَدَقَ أَبُو الدَّرْدَاءِ، إِنْ شِئْتَ لأُحَدِّثَنَّكَ بِأَوَّلِ عِلْمٍ يُرْفَعُ مِنَ النَّاسِ؛ الخُشُوعُ، يُوشِكُ أن تَدْخُلَ مَسْجِدَ جَمَاعَةٍ فلا تَرَى فِيه رَجُلًا خاشعًا. رواه الترمذي (٢٦٥٣)، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح سنن الترمذي»، (٢/ ٣٣٧)، وأخرجه النسائيُّ في «السنن الكبرى»، (٣/ ٤٥٦)، رقم (٣٩٠٩)، عن جبيرِ بن نفيرٍ عن عوفِ بنِ مالكٍ لا عن أبي الدرداء رضي الله عنهما، وتصحَّفَ على ناشري «السنن الكبرى»: «جُبَيْرُ بنُ نفيرٍ عن عوفٍ بن مالك لا عن أبي الدرداء، رضي الله عنهما، وتصحَّفَ على ناشري «السنن الكبرى»: «جبير بن نفير» بـ«جبير بن نصير».

«فالعلمُ النافعُ: هو ما باشَرَ القلوبَ فأوجبَ لها السَّكِينَةَ والخشيةَ والإخباتَ للَّهِ والتواضعَ والانكسارَ، وإذا لم يباشر القلبَ ذلك العلمُ، وإنَّما كان على اللسانِ، فهو حُجَّةُ اللَّه على ابنِ آدمَ يقومُ على صاحبِهِ وغيره.

كما قال ابن مسعودٍ رضي الله عنه: إِنَّ أَقْوَامًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهم، وَلَكِنْ إِذَا وَقَعَ في القَلْبِ، فَرَسَخَ فِيهِ نَفَعَ صَاحِبَهُ.

فأخبرَ النبيُّ ﷺ أنَّ العلمَ الذي عند أهل الكتابَيْنِ من قبلنا موجودٌ بأيديهم ولا ينتفعون بشيءٍ منه، لمَّا فقدوا المقصودَ منه، وهو وصولُهُ إلى قلوبِهم حتَّى يجدوا حلاوةَ الإيمانِ به ومنفعتَه، بحصولِ الخشيةِ والإنابةِ لقلوبِهم، وإنَّما هو على ألسنتِهم تُقام به الحُجَّةُ عليهم.

ولهذا المعنى وصفَ اللَّهُ -سبحانه- في كتابِهِ العلماءَ بالخشيةِ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].

وقال: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

ووصفَ العلماءَ من أهلِ الكتابِ قبلَنَا بالخشوعِ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ

مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا۩﴾ [الإسراء: ١٠٧- ١٠٩].

وقولُه تعالى في وصفِ هؤلاء الذين أُوتُوا العلمَ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٢، ٢٣]. وَلِينُ القلوبِ: هو زوالُ قساوتِها لحدوثِ الخشوعِ فيها والرِّقَّةِ.

وقد عَاتَبَ اللَّهُ مَنْ لا يخشعُ قلبُهُ لسماعِ كتابِ اللَّهِ وتَدبُّرِهِ، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦].

قال ابنُ مسعُودٍ ﷺ: مَا كَانَ بَيْنَ إِسْلَامِنَا وَبَيْنَ أَنْ عُوتبنا بِهَذِهِ الآيةِ إلا أَرْبَعُ سنينَ. أخرجه مسلمٌ[1].

وقد سمعَ كثيرٌ من الصالحين هذه الآيةَ تُتْلَى فأثَّرت فيهم آثارًا متعدِّدَةً؛ فمنهم مَنْ مات عند ذلك لانصداعِ قلبِهِ بها، ومنهم مَنْ تابَ عند ذلك وخرج عمَّا فيه.

وقال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِۚ﴾ [الحشر: ٢١].

قال أبو عمران الجونيُّ: واللَّهِ لقد صَرَّفَ إلينا رَبُّنَا في هذا القرآنِ ما لو صَرَّفَه إلى الجبالِ لمحاها ودحاها.

وكان مالكُ بن دينارٍ -رحمهُ اللَّهُ تعالى- يقرأ هذه الآيةَ ثمَّ يقول: أُقسم لكم لا يؤمن عبدٌ بهذا القرآنِ إلا صُدِعَ قلبُهُ».

وقد كان النبيُّ ﷺ يستعيذُ باللَّه من قلبٍ لا يخشعُ، كما في «صحيح مسلمٍ»[2] عن

(١) رواه مسلم (٣٠٢٧).
(٢) رواه مسلم (٢٧٢٢).

زيدِ بنِ أَرْقَمَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ: **«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لا يُسْتَجَابُ لَهَا»**[١].

قال أبو عمر رَحِمَهُ اللَّهُ **في «جامع بيان العلم» (١/ ٢٨٨)**: «قال يزيدُ بن قودر: يُوشِكُ أن ترى رجالًا يطلبون العلمَ فيتغايرون عليه كما يتغاير الفسَّاقُ على المرأةِ، هو حظُّهم منه».

وأخرج بسندِهِ عن أبي قلابة قال: إذا أحْدَثَ اللَّه لَكَ علمًا فأحْدِثْ له عبادةً، ولا يكن همَّكَ أن تُحَدِّثَ به.

وبسندِهِ عن سفيانَ الثوريِّ قالَ: إنَّما يُتَعَلَّمُ العِلْمُ لِيُتَّقَى اللَّهُ بِهِ، وَإِنَّما فُضِّلَ الْعِلْمُ عَلَى غَيْرِهِ؛ لأَنَّهُ يُتَّقَى بِهِ اللَّهُ.

قالَ أبو الأسودِ الدُّؤَلِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْمُعَلِّمُ غَيْرَهُ ... هَلَّا لِنَفْسِكَ كَانَ ذَا التَّعْلِيمُ
تَصِفُ الدَّوَاءَ لِذِي السَّقامِ وذي الضَّنى ... كَيْمَا يَصِحُّ بِهِ وَأَنْتَ سَقِيمُ
وَأَرَاكَ تُلْقِحُ بالرَّشَادِ عُقُولَنَا ... أَبَدًا وَأَنْتَ مِنَ الرَّشَادِ عَدِيمُ
ابْدَأْ بِنَفْسِكَ فَانْهَهَا عَنْ غَيِّهَا ... فَإِذَا انْتَهَتْ عَنْهُ فَأَنْتَ حَكِيمُ
فَهُنَاكَ يُسْمَعُ مَا تَقُولُ وَيُقْتَدَى ... بِالْعِلْمِ مِنْكَ وَيَنْفَعُ التَّعْلِيمُ
لا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِي مِثْلَهُ ... عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ

* * *

---

(١) «الخشوع في الصلاة» لابن رجب الحنبلي (ص١٤).

٨- الْمِرَاءُ وَالمُخَاصَمَةُ وَالْجِدَالُ

المِرَاءُ: طَعْنٌ في كلامِ الغيرِ بإظهارِ خَلَلٍ فيه، من غير أن يرتبطَ به غَرضٌ سوى تحقيرِ الغيرِ وإظهارِ مَزِيَّةِ الكِياسَةِ.

والجِدَالُ: عبارةٌ عن أمرٍ يتعلَّقُ بإظهارِ المذاهبِ وتقريرِها.

والمجادلةُ: عبارةٌ عن قَصْدِ إفحامِ الغيرِ وتعجيزِه وتنقيصِهِ بالْقَدْحِ في كلامِهِ، ونسبتِهِ إلى القصورِ والجهلِ فيه.

والخُصُومَةُ: لَجَاجٌ في الكلامِ لِيُسْتَوْفَى به مالٌ أو حقٌّ مقصودٌ، وذلك تارة يكونُ ابتداءً، وتارةً يكون اعتراضًا، والمراءُ لا يكون إلا باعتراضٍ على كلامٍ سَبَق، فالخصومةُ وراءَ الجِدَالِ والمِرَاءِ[١].

قال أبو حامدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «حَدُّ المِرَاءِ هو: كُلُّ اعتراضٍ على كلامِ الغيرِ بإظهارِ خللٍ فيه، إِمَّا في اللفظِ، وإِمَّا في المعنى، وإِمَّا في قصدِ المُتَكَلِّمِ.

وتركُ المراء بتركِ الإنكارِ والاعتراضِ، فكلُّ كلامٍ سمعتَه، فإن كان حقًّا فصدِّق به، وإن كان باطلًا أو كَذِبًا، ولم يكن متعلِّقًا بأمورِ الدِّينِ فاسكتْ عنه.

والطَّعْنُ في كلام الغيرِ تارةً يكون في لفظِه، بإظهارِ خَلَلٍ فيه من جهةِ النحوِ، أو من جهةِ اللُّغةِ، أو من جهةِ العربيةِ، أو من جهةِ النَّظْمِ والترتيبِ بسوءِ تقديمٍ أو تأخيرٍ، وذلكَ يكون تارةً من قصورِ المعرفةِ، وتارةً يكونُ بطغيانِ اللسانِ، وكيفما كانَ فلا وَجهَ لإظهار خَلَلِهِ.

وأمَّا في المعنى، فبأن يقول: ليس كما تقولُ، وقد أخطأتَ فيه من وجهِ كذا وكذا.

وأمَّا في قصده، فمثل أن يقولَ: هذا الكلامُ حقٌّ، ولكن ليس قصدَك منه الحقُّ، وإنَّما أنْت فيه صاحبُ غَرَضٍ، وما يجري مَجْراه.

(١) هذه التعريفات مستمدَّةٌ من «إحياء علوم الدين» (١/ ١١٣) وما حولها.

وهذا الجنسُ إن جَرَى في مسألةٍ علميَّةٍ ربَّما خُصَّ باسمِ الجَدَلِ، وهو أيضًا مذمومٌ، بل الواجبُ السكوتُ، أو السؤالُ في معرضِ الاستفادةِ لا على وجهِ العنادِ والإنكارِ، أو التَّلطُّفُ في التعريف لا في معرضِ الطَّعْنِ.

وأمَّا المجادلةُ: فعبارةٌ عن قَصْدِ إفحامِ الغيرِ وتعجيزِه وتنقيصِهِ بالْقَدْحِ في كلامِهِ، ونسبتِهِ إلى القصورِ والجهلِ فيه.

وآيةُ ذلكَ أن يكونَ تنبيهُهُ للحقِّ من جهةٍ أخرى مكروهًا عند المجادلِ، يُحِبُّ أن يكون هو المُظْهِرَ له خطأَهُ، ليبيِّنَ به فضلَ نفسِهِ، ونَقْصَ صاحِبِهِ، ولا نجاةَ من هذا إلا بالسكوتِ عن كلِّ ما لم يأْثَمْ به لو سَكَتَ عنه.

وأمَّا الباعثُ على هذا فهو التَّرَفُّعُ بإظهارِ العلمِ والفضلِ، والتَّهجُّمُ على الغيرِ بإظهارِ نقصِهِ، وهما شهوتان باطنيتان للنفسِ قويتان لها، أمَّا إظهار الفضلِ فهو من قبيلِ تزكيةِ النفسِ، وهي من مقتضى ما في العبد من طغيانِ دعوى العُلوِّ والكبرياءِ، وهي من صفاتِ الربوبيةِ، وأمَّا تنقيصُ الآخرِ فهو من مقتضى طَبْعِ السَّبُعِيَّةِ، فإنَّه يقتضي أنْ يمزِّقَ غيرَه وَيقْصِمَهُ ويصدِمَهُ ويؤذيَهُ.

وهاتان صفتان مذمومتان مهلكتان، وإنَّما قُوَّتُهُمَا المِرَاءُ والجِدَالُ، فالمواظبُ على المِرَاءِ والجِدَالِ مقوٍّ لهذه الصفاتِ المهلِكَةِ، وهذا مجاوزٌ حدَّ الكراهيةِ، بل هو معصيةٌ مهما حَصَلَ فيه إيذاءٌ للغيرِ، ولا تنفكُّ المماراةُ عن الإيذاءِ وتهييجِ الغَضَبِ وحمْلِ الْمُعْتَرَضِ عليهِ أن يعودَ فينصُرَ كلامَهُ بما يمكِنُه من حقٍّ أو باطلٍ، ويقدَحُ في قائِلِهِ بكلِّ ما يتصوَّرُ له، فيثُورُ الشِّجَارُ بين المتماريين كما يثورُ الهِراشُ بين الكَلْبَيْنِ، يَقْصِدُ كلُّ واحدٍ منهما أن يَعَضَّ صاحبَهُ بما هو أعظمُ نَكَايةً، وأقوى في إفحامِهِ وإلجامِهِ.

فإن قلتَ: فإذا كان للإنسانِ حقٌّ فلابدَّ من الخصومةِ في طَلَبِهِ أو في حفظِهِ مهما ظَلَمَهُ ظَالِمٌ، فكيفَ يكونُ حكمُهُ؟ وكيفَ تُذَمُّ خصومتُهُ؟

فاعلم أنَّ هذا الذمَّ يتناولُ الذي يُخاصِمُ بالباطلِ، والذي يُخاصِمُ بغيرِ علمٍ، ويتناولُ الذي يمزَحُ بالخصومةِ بكلماتٍ مُؤذيةٍ ليس يُحتاجُ إليها في نُصرةِ الحُجَّةِ وإظهارِ

الحقِّ ويتناولُ الذي يحملُهُ على الخصومةِ مَحْضُ العنادِ لِقَهْرِ الخَصْمِ.

وأمَّا المظلومُ الذي ينصرُ حُجَّتَهُ بطريقِ الشرعِ، مِن غيرِ لَدَدٍ وإسرافٍ وزيادةِ لَجَاجٍ على قدرِ الحاجةِ، ومن غير قصد عنادٍ وإيذاءٍ، ففعلُهُ ليس بحرام، ولكنَّ الأَوْلَى تركُهُ ما وَجَدَ إليه سبيلًا، فإنَّ ضَبْطَ اللِّسانِ في الخصومةِ على حَدِّ الاعتدالِ مَتَعَذِّرٌ»[١].

وفي الشرعِ ترهيبٌ شديدٌ من تلك الأخلاقِ المذمومةِ، والخصالِ المرذولةِ، ففي «صحيح البخاري»[٢] عن عُبَادَةَ بنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه قالَ: «خَرَجَ النَّبيُّ ﷺ لِيُخْبِرَنَا بلَيْلَةِ الْقَدْرِ، فَتَلاحَى رَجُلَانِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فقال: «**خَرَجْتُ لأُخْبِرَكُمْ بلَيْلَةِ الْقَدْرِ، فَتَلاحَى فُلانٌ وفُلانٌ فَرُفِعَتْ، وَعَسَى أن يكونَ خَيْرًا لَكُمْ، فَالْتَمِسُوها في التَّاسِعَةِ والسَّابِعةِ وَالْخَامِسَةِ**» .

وفي روايةِ أبي نَضْرَةَ عن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ عند مسلمٍ قال: «**فَجَاءَ رَجُلانِ يَحْتَقَّانِ، معهما الشَّيطانُ، فَنُسِّيتُهَا**»[٣].

قالَ النوويُّ رحمه الله: «**رجلان يَحْتَقَّانِ**» -هو بالقافِ-، ومعناهُ: يطلبُ كلُّ واحدٍ منهما حقَّهُ، ويدَّعي أنَّه الْمُحِقُّ، وفيه: أنَّ المخاصمةَ والمنازعةَ مذمومةٌ، وأنَّها سببٌ للعقوبةِ المعنويةِ»[٤].

وقد بوَّبَ البخاريُّ رحمه الله لحديثِ عُبَادَةَ رضي الله عنه، الذي سَلَفَ، بقوله: «باب رَفْعِ مَعْرِفَةِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ لِتَلاحِي النَّاسِ».

قال الحافظُ رحمه الله: «أي: بسببِ تَلاحي النَّاسِ، وَقَيَّدَ الرَّفْعَ بـ«معرفة» إشارةً إلى أنَّها لم تُرفع أَصْلًا ورأسًا»[٥].

وعن عائشةَ رضي الله عنها قالت: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**إنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إلى اللَّهِ الأَلَدُّ**

(١) «إحياء علوم الدين» (٣/ ١١٣).
(٢) رواه البخاري (٤٩، ١٩١٩، ٥٧٠٢).
(٣) رواه مسلم (١١٦٧).
(٤) «صحيح مسلم بشرح النووي» (٨/ ٦٣).
(٥) «فتح الباري» (٤/ ٣١٤).

الْخَصِمُ»[١]. متفق عليه. الأَلَدُّ: الشديدُ الخُصُومةِ، والْخَصِم: الذي يَحُجُّ مَنْ يخاصِمُهُ.

قال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الأَلَدُّ: الشديدُ اللَّدَدِ، أي: الجدال، مشتقٌّ من اللَّدِيدَيْنِ، وهما صَفْحَتَا العنقِ، والمعنى: أنَّه من أيِّ الجهاتِ أخَذَ في الخصومةِ قَوِيَ.

والْخَصِمُ -بفتحِ المعجمةِ وكسر المهملةِ-، أي: الشديدُ الخصومة»[٢].

وعن أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه قالَ: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ بَابِ رسُولِ اللَّهِ ﷺ نَتَذَاكَرُ، يَنْزِعُ هذا بِآيةٍ، وَيَنْزِعُ هذا بِآيةٍ، فَخَرَجَ عَلَيْنَا رسُولُ اللَّهِ ﷺ كَأَنَّمَا يُفْقَأُ في وَجْهِهِ حَبُّ الرُّمَّانِ، فقالَ: «**يَا هؤُلاءِ بِهَذَا بُعِثْتُمْ، أَمْ بِهَذَا أُمِرْتُمْ؟ لا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ**».

قال المنذريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «رواه الطبرانيُّ في «الكبير» وفيه سويدٌ». والروايةُ التي يريد المنذريُّ في «الكبير» برقم (**٥٤٤٢**). وهو يعني سويدًا أبا حاتم بن إبراهيم، وفيه ضعفٌ كما ذكر الهيثميُّ في «مجمع الزوائد» (**١/ ١٥٦**) عن أئمةِ الجرح والتعديل: النسائي، وابن معين، وأبي زرعة.

قال الألبانيُّ معلقًا على قولِ المنذريِّ: «يعني: سويدَ بنَ إبراهيمَ أبا حاتمٍ، وفيه ضعفٌ، لكنْ رواه الطبرانيُّ عن أنسٍ مثله، ورجالُهُ ثقاتٌ أثباتٌ كما في «المجمع» (**١/ ١٥٧**)، وله شاهدٌ من حديثِ ابنِ عَمرٍو عند ابن ماجه وأحمد بسندٍ حَسَنٍ، فالحديثُ صحيحٌ»[٣].

وعن أبي أُمَامَةَ رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللَّه ﷺ: «**مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عليهِ إلا أُوتُوا الْجَدَلَ**». ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللَّهَ ﷺ هَذِهِ الآيةَ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨].

رواه الترمذيُّ (**٣٢٥٣**)، وقال: هذا حديثٌ حَسَنٌ صحيحٌ، وابنُ ماجه (**٤٨**)،

(١) «البخاري» (٢٣٢٥)، و«مسلم» (٢٦٦٨).
(٢) «فتح الباري» (٥/ ١٢٨).
(٣) «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ٦١).

وحسَّنَه الألبانيُّ في «صحيح سنن ابن ماجه» (١/ ١٤)، وابن أبي الدنيا في «كتاب الصمت» (١٣٦).

وقال الألبانيُّ في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ٦١) تعليقًا على قولِ الترمذيِّ: هذا حديثٌ حَسَنٌ صحيحٌ: «وصحَّحه أيضًا الحاكمُ ووافقه الذَّهبِيُّ وإنَّما هو حَسَنٌ فقط».

وعن أبي هريرةَ ﷺ أنَّ رَسولَ اللَّه ﷺ قال: «**الْمِرَاءُ في الْقُرْآنِ كُفْرٌ**»، رواه أبو داود (٤٦٠٣)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح سنن أبي داود» (٣/ ١١٧)، وابن حبان (٧٣)، والحديث أخرجه أحمد (٧٤٩٩، ١٠٤١٩).

وعن أبي أُمَامَةَ ﷺ قالَ: قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ في رَبِضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وبِبيَتٍ فِي وَسَط الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحًا، وَبِبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسُنَ خُلُقُهُ**» رواه أبو داود (٤٨٠٠)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح سنن أبي داود» (٣/ ١٧٩)، وفي «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٢٧٣) جمعٌ لطرقه وبحثٌ في أحوالِ رواتِهِ، وقد صحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ٦٠)، وفيه - أيضًا - حسَّنَ حديث مُعَاذٍ ﷺ الذي رواه البزارُ والطبرانيُّ، وفيه أنَّ رسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «**أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبِضِ الْجَنَّةِ، وبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ، وَبِبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ، لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وَتَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحًا، وَحَسَّنَ خُلُقَهُ**».

وَرَبَضُ الجَنَّةِ -هو بفتحِ الرَّاءِ والباءِ الموحَّدةِ وبالضَّادِ المعجمة-: هو ما حولها، والرَّبَضُ هنا: حوالي الجنةِ وأطرافُها، لا في وسطِها.

قال الراغبُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الخصومةُ عديمةُ الفائدةِ قليلةُ العائِدَة، فإنَّ الجدلَ مع ما فيه قد يُوقِظُ الفهمَ ويثيرُ الأَنَفَةَ لاقتباسِ العلمِ، والخصومةُ لا تثمرُ إلا العداوةَ وإنكارَ الحقِّ، ولهذا جَعَلَهَا اللَّهُ شَرًّا من الجِدَالِ فقال تعالى: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾[1]. وقال: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾. أي: جَيِّدُ الخصومةِ، ﴿مُّبِينٌ﴾ [يس: ٧٧]. ولم يذكر الخصامَ في موضعٍ إلا عَابَهُ.

(١) يقصد بعد قوله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ [الزخرف: ٥٨].

وأيضًا؛ فالمتجادلان يجريان مَجرى فَحْلَيْن تعاديا، وَكَبْشَين تناطحا، ورئيسين تحاربا، وكلُّ واحدٍ منهما يجتهد أن يكونَ هو الفاعلَ، وصاحبه المنطبع، والقائلُ كالمؤثِّرِ، والسامعُ كالمتأثِّرِ، ولم يتولَّد منهما خيرٌ بوجهٍ.

وقال حكيمٌ: المجادِلُ المدافعُ يقعُ في نفسِهِ عند الخوضِ في الجدالِ ألا يقنعَ بشيءٍ، وَمَنْ لا يقنعه إلا ألا يَقْنَعَ، فما إلى إقناعِهِ سبيلٌ، ولو اتفقت عليه الحكماءُ بكلِّ بيِّنَةٍ، بل لو اجتمعت عليه الأنبياءُ بكلِّ معجزةٍ كما قال تعالى: ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١]»[١].

*** عِلَاجُ المِرَاءِ والجِدَالِ والْمُخَاصَمَةِ:**

علاجُ هذه الأدواءِ مبنيٌّ على أَنْ «يكسرَ الكِبْرَ الباعثَ له على إظهارِ فضلِهِ، والسَّبُعِيَّةَ الباعِثَةَ له على تنقيصِ غيره.

فإنَّ علاجَ كلِّ عِلَّةٍ بإماطةِ أسبابها، وسَبَبُ الْمِرَاءِ والجدالِ ما ذكرناه، ثمَّ المواظبةُ عليه تجعله عادةً وطَبْعًا حتَّى يتمكَّنَ من النَّفْسِ ويعسرَ الصبرُ عنه.

رُوي أنَّ أبا حنيفةَ رَحِمَهُ اللَّهُ قال لداودَ الطائيِّ: لِمَ آثرتَ الانزواءَ؟ قال: لأُجاهدَ نفسي بتركِ الجِدالِ. قال: احضر المجالسَ، واستمعْ ما يُقال، ولا تتكلَّمْ. قال: ففعلتُ ذلك، فما رأيتُ مجاهدةً أشدَّ عليَّ منها.

وهو كما قال؛ لأنَّ مَنْ سَمِعَ الخطأَ من غيرِهِ، وهو قادرٌ على كشفِهِ، تَعَسَّرَ عليه الصبرُ عند ذلك جِدًّا، ولذلك قال ﷺ: «**مَنْ تَرَكَ المِرَاءَ وَهُوَ مُحِقٌّ بُنِيَ لَهُ بَيْتٌ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ**»[٢]. لشدَّة ذلك على النَّفْسِ، وأكثرُ ما يغلبُ ذلك في المذاهبِ والعقائِدِ، فإنَّ المراءَ طَبْعٌ، فإذا ظَنَّ أنَّ له عليه ثوابًا اشتدَّ عليه حرصُهُ، وتعاون الطَّبعُ والشَّرْعُ عليه، وذلك خطأٌ مَحْضٌ، بل ينبغي للإنسانِ أن يكفَّ لسانَهُ عن أهلِ القِبْلَةِ، وإذا رأى مُبْتَدِعًا

(١) «الذريعة إلى مكارم الشريعة» للراغب الأصفهاني (ص١٢٧).
(٢) تقدم تخريجه (ص١٠٢).

تلطَّفَ في نُصحِهِ في خَلْوَةٍ لا بطريقِ الجِدالِ، فإنَّ الجِدالَ يُخَيِّلُ إليه أنَّها حيلةٌ منه في التلبيسِ، وأنَّ ذلك صنعةٌ يقدرُ المجادلون من أهلِ مذهبه على أمثالِها لو أرادوا، فتستمرُّ البِدعةُ في قلبِهِ بالجَدلِ وتتأكدُ، فإذا عرف أن النصح لا ينفع اشتغل بنفسه وتركه وكل من اعتاد المجادلة مدَّةً وأثنى النَّاسُ عليه، ووجدَ لنفسِهِ بسببِهِ عزًّا وقَبولًا قويت فيه هذه المهلكاتُ، ولا يستطيعُ عنها نزوعًا إذ اجتمعَ عليه سلطانُ الغضبِ والكبرِ والرياءِ وحبِّ الجاهِ والتعزُّزِ بالفضلِ، وآحادُ هذه الصفاتِ يشقُّ مجاهدتُها، فكيف بمجموعِهَا؟!»[١].

وقال أبو عمر بنُ عبد البرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «روى سعيدُ بنُ المُسَيِّبِ، وأبو سَلَمَةَ عن أبي هريرةَ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**المِرَاءُ فِي الْقُرْآنِ كُفْرٌ**»[٢].

والمعنى: أن يتمارى اثنان في آيةٍ، يجحدُها أحدُهما، ويدفعُها أو يصيرُ فيها إلى الشَّكِّ، فذلك هو المراءُ الذي هو الكفْرُ.

وأمَّا التنازعُ في أحكامِ القُرْآنِ ومعانيه فقد تنازَعَ أصحابُ رسولِ اللَّهِ ﷺ في كثيرٍ من ذلك، وهذا يبيِّنُ لك أنَّ المِرَاءَ الذي هو كُفْرٌ هو الجحودُ والشَّكُّ، كما قال ﷻ: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ [الحج: ٥٥]. ونهى السَّلفُ- رحمهم اللَّه- عن الجِدَالِ فيه والتناظُرِ؛ لأنَّه عِلْمٌ يُحتاجُ فيه إلى رَدِّ الفروعِ على الأصولِ للحاجةِ إلى ذلك، وليست الاعتقاداتُ كذلك؛ لأنَّ اللَّه ﷻ لا يُوصفُ إلا بِمَا وَصَفَ به نفسَهُ أو وَصَفَهُ به رسولُهُ ﷺ»[٣].

* التَّعَامُلُ مَعَ أَهْلِ اللَّجَاجِ:

وَصَفَ الراغِبُ رَحِمَهُ اللَّهُ **سبيلَ التعاملِ مع أهلِ اللَّجَاجِ لا الحِجَاجِ، ومع أهل المِرَاءِ والعناد فقال**: «إذا ابتُليتَ بمُهَارِشٍ مُمَاحَكٍ مُنَاوِشٍ، قصدُهُ اللَّجَاجُ لا الحجَاجُ، ومُرَادُه مَنَاوَأَةُ العلماءِ، ومَمَارَاةُ السُّفهاءِ، كما قالَ النبيُّ ﷺ: «**مَنْ تَعَلَّمَ العِلمَ لِيُبَاهِيَ بِهِ**

(١) «إحياء علوم الدين» (٣/ ١١٤).
(٢) رواه أبو داود (٤٦٠٣)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح سنن أبي داود» (٣/ ١١٧)، وابن حبان (٧٣)، والحديث أخرجه أحمد (٧٤٩٩، ١٠٤١٩).
(٣) «جامع بيان العلم وفضله» (ص٣٦٠).

العُلَمَاءَ، ويُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، وَيَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ جَهَنَّمَ»[(١)].

قال الشاعرُ:

تَـرَاهُ مُـعِـدًّا لِـلْـخِـلافِ كَـأَنَّـهُ ... بِـرَدٍّ عَـلَـى أَهْـلِ الـصَّـوَابِ مُـوَكَّـلُ

فحقُّك أن تَفِرَّ منه فِرَارَك من الأساودِ والأسودِ، فإن لم تجد من مزاولتِه بُدًّا، فكابر إنكَاره الحقَّ بإنكارك الباطلَ، ودفاعَه الصدقَ بدفاعِك الكذبَ، معتبرًا في ذلك قولَه تعالى: ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ [النمل: ٥٠]. وقوله: ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٥٤] وقولَه تعالى حكايةً عن المنافقين: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٤، ١٥]. وقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]. وَبَالِغْ في ذلك معه، وإيَّاك أن تُعرِّجَ معه إلى بَثِّ الحكمةِ، وأن تذكرَ له شيئًا من الحقائقِ ما لم تتحقَّق له قلبًا طاهرًا لائِقًا للحكمةِ، وقد قال ﷺ: «**لا تَدْخُلُ المَلائِكَةُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ**»[(٢)]. فإنَّ لكلِّ تُربةٍ غَرْسًا، ولكلِّ بناءٍ أُسًّا، وما كلُّ الرءوسِ تستحقُّ التيجانَ، ولا كلُّ طبيعةٍ تستحقُّ إفادَةَ البيانِ.

وإن كان لابُدَّ فاقتصر معه على إقناعٍ يبلُغُه فهمُهُ، فقد قيل: كما أنَّ لُبَّ الثمارِ مباحٌ للنَّحْلِ، والتبنَ معدودٌ للأنعامِ، كذلك لُبُّ الحكمةِ مُعَدٌّ لذوي الألبابِ وقشورها مجعولةٌ للأنعامِ، وكما أنَّه من المُحَالِ أن يَشُمَّ الأَخْشَمُ[(٣)] رَيْحَانًا فمحالٌ أن يفيدَ الحمارُ بيانًا»[(٤)].

*** بَيَانُ آدَابِ الْمُجَادِلِ:**

فَصَّلَ الخطيبُ البغداديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ آدابَ الجِدَالِ، وما ينبغي للمجَادِلِ أن يأخذَ به نفسَهُ فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «ينبغي للمجادِلِ أن يُقَدِّمَ على جِدَالِهِ تقوى اللَّه تعالى لقوله سبحانه: ﴿فَاتَّقُواْ

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٦٠)، وحسَّنه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (١/ ٤٨)، وصحَّحه في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ٤٧).

(٢) رواه البخاري (٣٠٥٣)، ورواه مسلمٌ (٢١٠٤).

(٣) الأَخْشَمُ: الذي لا يجدُ ريحَ طيبٍ ولا نتن، والخَشَمُ: سقوطُ الخياشيم، وانسدادُ المتنفَّس، ولا يكاد الأَخْشَمُ يَشُمُّ شيئًا. [لسان العرب (خشم) (ص١١٦٨)].

(٤) «الذريعة إلى مكارم الشريعة» (ص١٢٩).

ﭐللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]. ولقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

ويُخْلِصَ النيَّةَ في جدالِهِ بأن يبتغيَ به وجهَ اللَّهِ تعالى، وليكن قصدُهُ في نظرِه[١] إيضاحَ الحقِّ وتثبيتَهُ دونَ المغالَبَةِ للخَصْمِ.

قال الشافعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما كلَّمتُ أحدًا قطُّ إلا أحببتُ أن يوفَّقَ ويسدَّدَ ويُعانَ، وتكونَ عليه رعايةٌ من اللَّهِ وحفْظٌ، وما كلَّمتُ أحدًا قطُّ إلا ولم أُبَالِ بيَّنَ اللَّهُ الحقَّ على لساني أم لسانِهِ.

ويبني أمرَه على النصيحةِ لدينِ اللَّهِ والذي يجادلُه، لأنَّه أجمعُ في الدِّينِ، مع أنَّ النصيحةَ واجبةٌ لجميعِ المسلمين، فعن جَرِيرِ بن عبد اللَّهِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى النُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ»[٢].

وكان الشافعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَحْلِفُ ويقولُ: ما ناظرتُ أحدًا إلا على النصيحةِ.

وقال أيضًا: ما ناظرتُ أحدًا فأحببتُ أن يُخْطِئَ.

ويستشعِرُ في مجلسِهِ -أي: المجادِلُ- الوقَارَ، ويستعملَ الهَدْيَ، وحُسْنَ السَّمْتِ، وطولَ الصَّمتِ، إلا عند الحاجةِ إلى الكلامِ، وإن نَدَرَتْ من خَصْمِهِ في جِدَالِهِ كلمةٌ كَرِهَهَا أغْضَى عليها، ولم يُجَازِ بمِثْلِهَا، فقد قال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [المؤمنون: ٩٦]. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

عنِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قالَ: قَدِمَ عُيَيْنَةُ بنُ حِصْنِ بنِ حُذَيْفَةَ فَنَزَلَ عَلَى ابْنِ أخِيهِ الْحُرِّ بن قَيْسٍ، وَكَانَ مِنَ النَّفَرِ[٣] الَّذِينَ يُدْنِيهِمْ[٤] عُمَرُ، وَكَانَ الْقُرَّاءُ[٥] أَصْحَابَ مَجَالِسَ عُمَرَ

(١) في نظره: في بحثه وجداله.

(٢) رواه البخاري (٥٧، ٥٨)، ومسلم (٥٦).

(٣) النَّفَرُ: الأشخاص.

(٤) يدنيهم: يقرِّبهم إليه في مجلسِهِ.

(٥) القرَّاء: الذين يقرءون القرآن ويحفظونه، ويفقهونه.

وَمُشَاوَرَتِهِ[١]، كُهُولًا[٢] كَانُوا أَو شُبَّانًا، فَقَالَ عُيَيْنَةُ لابنِ أخيهِ: يَا بْنَ أَخِي لَكَ وَجْهٌ عِنْدَ هَذَا الأمير، فاسْتأْذِنْ لِي عليْهِ، قالَ ابنُ عبَّاسٍ: فاسْتَأْذَنَ الْحُرُّ لِعُيَيْنَةَ، فَأَذِنَ لهُ عُمَرُ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ: هِي[٣] يَا بْنَ الخَطَّابِ، فَوَاللَّهِ مَا تُعْطِينَا الْجَزْلَ، وَلا تَحْكُمُ بيْنَنَا بِالعَدْلِ، فَغَضِبَ عُمَرُ حَتَّى هَمَّ[٤] بِهِ، فَقَالَ لَهُ الْحُرُّ: يا أميرَ المؤمنين، إنَّ اللَّهَ تعالَى قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]. وَإِنَّ هَذَا مِنَ الجاهِلِينَ، وَاللَّهِ مَا جَاوَزَهَا[٥] عُمَرُ حِينَ تَلاهَا، وَكَانَ وَقَّافًا[٦] عِنْدَ كِتَابِ اللَّهِ»[٧].

وينبغي ألا يتكلَّم بحضرةِ مَنْ يشهدُ لخَصْمِهِ بِالزُّورِ، أو عند مَنْ إذا وضحت لديه الْحُجَّةُ دَفَنَهَا ولم يتمكَّن من إقامتها، فإنَّه لا يقدرُ على نُصْرَةِ الحقِّ إلا مع الإنصافِ وتركِ التعنُّتِ والإجحافِ، ويكون كلامُه يسيرًا جامعًا بليغًا، فإنَّ التحفُّظَ من الزَّلَلِ مع الإقْلالِ دون الإكثارِ، وفي الإكثارِ - أيضًا - ما يُخْفِي الفائدةَ وَيُضَيِّعُ المقصودَ ويُورِثُ الحاضرين الملَلَ.

ولا يرفعُ صوتَه في كلامِه عاليًا فيشقَّ حَلْقَهُ، ويحمي صدرَه ويقطعه، وذلك من دواعي الغضبِ، ولا يُخفي صوتَهُ إخفاءً لا يسمعُه الحاضرون فلا يفيدُ شيئًا، بل يكون مُقْتَصِدًا بين ذلك. ويجبُ عليه الإصلاحُ من مَنْطِقِهِ، وتَجَنُّبُ اللَّحْنِ في كلامِهِ والإفصاحُ عن بيانِهِ، فإنَّ ذلك عَوْنٌ لَهُ في مناظرَتِهِ.

وينبغي لَه أن يُواظِبَ على مطالعةِ كُتُبِه عند وَحْدَتِه، ورياضةِ نفسِه في خَلْوَتِهِ، بذكرِ السؤالِ والجوابِ، وحكايةِ الخطأ والصوابِ؛ لِئَلَّا ينحصرَ في مجالسِ النَّظَرِ إذا رمَقَتْهُ أبصارُ من حَضَرَ.

(١) مشاورته: يشاورهم في الأمور.
(٢) كهولًا: جمعُ كهلٍ، وهو الذي علاه الشيبُ، وقيل: هو مَنْ جاوز الثلاثين.
(٣) هِيْ: كلمةُ زجرٍ وتهديد. والجَزْلُ: الشيءُ الكثيرُ.
(٤) هَمَّ أن يُوقع به: أي العقوبة.
(٥) ما جاوزها: لم يتعدَّ العملَ به.
(٦) وقَّافًا: أي إذا سمع آياتِهِ التزم أحكامه، ووقفَ عندها ولم يتعدَّها.
(٧) رواه البخاري (٤٣٦٦)، وروايتُه هي المثبَتةُ هنا، وقد ساق الخطيبُ الروايةَ من غيرِ طريقِ البخاريِّ مع اختلافٍ في اللفظِ، واختصارٍ فيه.

ولا يكون رَخِيَّ البالِ قصيرَ الهِمَّةِ، فإنَّ مَدَارِكَ العلمِ صعبةٌ لا تُنَالُ إلا بالجهدِ والاجتهادِ، ولا يستحقِرُ خَصْمَهُ لصغرِهِ فيسامحه في نظرِهِ، بل يكون على نَهْجٍ واحدٍ في الاستفتاءِ والاستقصاءِ؛ لأنَّ تَرْكَ التَّحَرُّزِ والاستظهارِ يُؤَدِّي إلى الضعْفِ والانقطاعِ.

وينبغي ألا يكون مُعْجبًا بكلامِهِ مفتونًا بِجِدَالِهِ، فإنَّ الإعجابَ ضدُّ الصوابِ ومنه تقعُ المعصيةُ وهو رأسُ كلِّ بَلِيَّةٍ.

وإذا وقعَ لَه شيءٌ في أوَّلِ كلامِ الخَصْمِ فلا يَعْجَلْ بِالحُكْمِ به، فربَّما كان في آخرِهِ ما يبيِّنُ أنَّ الغَرَضَ بخلافِ الواقِعِ له، فينبغي أن يتثبَّتَ إلى أن ينقضيَ الكلامُ.

ويكون نطقُهُ بعلمٍ، وإنصاتُهُ بحلمٍ، ولا يَعْجَلُ إلى جوابٍ، ولا يهجمُ على سؤالٍ، ويحفظ لسانَه من إطلاقِهِ بما لا يعلمُ، ومن مناظرتِهِ فيما لا يفهمه، فإنَّه ربَّما أخرجه ذلك إلى الخجلِ والانقطاعِ، فكان فيه نقصُهُ وسقوطُ منزلتِهِ عند مَنْ كان ينظرُ إليه بعينِ العلمِ والفضل»[1].

* * *

(١) «الفقيه والمتفقه» (٢/ ٢٥).

٩- النِّسْيَانُ

النِّسْيَانُ -بِكَسْرِ النُّونِ-: ضِدُّ الذِّكْرِ وَالْحِفْظِ، نَسِيَهُ نِسْيًا وَنِسْيَانًا وَنِسْوَةً وَنَسَاوَةً وَنِسَاوَةً، الأَخِيرَتَانِ عَلَى المُعَاقَبَةِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]. قَالَ ثَعْلَبٌ: لا يَنْسَى اللَّهُ ﷻ، إِنَّما مَعْنَاهُ: تَرَكُوا اللَّهَ فَتَرَكَهُمْ، فَلَمَّا كَانَ النِّسْيَانُ ضَرْبًا مِنَ التَّرْكِ وَضَعَهُ مَوْضِعَهُ وَفِي التَّهْذِيبِ: أي: تَرَكُوا أَمْرَ اللَّهِ فَتَرَكَهُمْ مِنْ رَحْمَتِه.

وَقَوْلُهُ تعالى: ﴿فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٦]. أي: تَرَكْتَهَا فَكَذلِكَ تُتْرَكُ فِي النَّارِ.

وقَوْلُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ﴾ [طه: ١١٥] مَعْنَاهُ -أَيْضًا-: تَرَكَ، لأَنَّ النَّاسِي لا يُؤَاخَذُ بِنِسْيَانِهِ، والنِّسْيَانُ: التَّرْكُ[1].

قال ابن كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «عن سعيدِ بن جُبيرٍ عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: إنَّما سُمِّي «الإنسانَ» لأنَّه عُهِدَ إليه فَنَسِيَ، وكذا رواه علي بن أبي طلحة عنه، وقال مجاهدٌ والحسنُ: تَرَكَ»[2].

وقال القرطبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قولُه تعالى: فَنَسِيَ، له معنيان:

أحدُهما: تَرَكَ، أي تَرَكَ الأمرَ والعهدَ، وهذا قولُ مجاهدٍ وأكثرِ المفسِّرين، ومنه قولُه تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧].

وثَانيهُمَا قالَ ابنُ عباسٍ: ﴿نَسِيَ﴾ هنا من السهوِ والنسيانِ، وإنَّما أُخِذَ الإنسانُ منه لأنَّه عهد إليه فَنَسِيَ، قال ابنُ زيدٍ: نَسِيَ ما عَهِدَ اللَّهُ إليه في ذلك، ولو كان له عَزْمٌ ما أطاعَ عدوَّه إبليسَ، وعلى هذا القولِ يُحتمل أن يكون آدمُ عليه السلام في ذلك الوقتِ مأخوذًا

(١) «لسان العرب» (نسي) (ص٤٤١٦).
(٢) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٣/ ١٦٧).

بالنسيانِ، وإن كان النسيانُ اليومَ عنَّا مرفوعًا.

ومعنى: ﴿مِن قَبۡلُ﴾ أي: من قَبلِ أن يأكلَ من الشجرةِ؛ لأنَّه نُهي عنها»[١].

وقال السعديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: ولقد وَصَّيْنَا آدمَ وأمرناه وعَهِدْنَا إليه عهدًا ليقومَ به فالتزمه وأذعنَ له وانقادَ وعزم على القيامِ به، ومع ذلك نَسِيَ ما أُمِرَ به وانتُقِضَتْ عزيمتُه المحكمةُ، فجرى عليه ما جرى فصار عبرةً لذريته، وصارت طبائعُهم مثلَ طبيعتِه، نسيَ فنسيت ذُرِّيَّتُه، وخَطِئَ فخطئوا، ولم يَثْبُتْ على العَزْمِ المؤكَّدِ وهم كذلك، وَبادَرَ بالتوبةِ من خطيئتِهِ وأَقَرَّ بها واعترفَ فغُفرتْ له، ومَنْ يشابه أباه فما ظَلَمَ»[٢].

ولَمَّا كان الإنسانُ نَسِيًّا[٣] بطبعِهِ، فقد أمرَ النبيُّ ﷺ بِتَعَهُّدِ القرآنِ حتَّى لا يتفلَّتَ من حامِلِه وقاريهِ.

فعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قالَ: «**إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ الْقُرْآنِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الإِبِلِ المعَقَّلَةِ، إِنْ عَاهَدَ علَيْهَا أَمْسَكَهَا، وَإِنْ أَطْلَقَهَا ذَهَبَتْ**»[٤]. متفقٌ عليه.

وعن عبد اللَّهِ بن مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**بِئْسَ مَا لأَحَدِهِمْ أَنْ يَقُولَ: نَسِيتُ آيَةَ كَيْتَ وَكَيْتَ؛ بَلْ هُوَ نُسِّيَ، واسْتَذْكِرُوا القُرآنَ فَلَهُوَ أَشَدُّ تَفَصِّيًا مِنْ صُدُورِ الرِّجَالِ مِنَ النَّعَمِ**»[٥] متفقٌ عليه.

«**بِئْسَ مَا لأَحَدِهِمْ**». «ما» نكرةٌ موصوفةٌ مفسِّرَةٌ لفاعلِ بئس، أي: بئس شيئًا، «**أَنْ يَقُولَ**»: مخصوصٌ بالذَّمِّ؛ أي: بئس شيئًا كائنًا للرجلِ.

«**كَيْتَ وَكَيْتَ**»: كلمتان يعبَّر بهما عن الجملِ الكثيرةِ والحديث الطويلِ؛ وسببُ الذَّمِّ ما في ذلك من الإشعار بعدمِ الاعتناءِ بالقرآنِ؛ إذ لا يقع النسيانُ إلا بتركِ التعاهدِ، وكثرةِ الغفلةِ.

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (١١/ ٢٦٧).
(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (ص٤٦٤).
(٣) النَّسِيُّ: الكثيرُ النِّسْيَانِ.
(٤) رواه البخاري (٤٧٤٣)، ومسلم (٧٨٩).
(٥) رواه البخاري (٤٧٤٥)، ومسلم (٢٢٨).

«**بَلْ نُسِّيَ**»: «بل» إضرابٌ عن القولِ بنسبةِ النسيانِ إلى النفسِ، المسَبَّبِ عن عدمِ التعاهدِ، إلى القولِ بالإنساءِ الذي لا صُنْعَ له فيه؛ فإذا نَسَبَهُ إلى نفسِهِ أَوْهَمَ أنَّه انفردَ بفعلِهِ، فالذي ينبغي أن يقولَ: أُنْسيتُ أو نُسِّيت، مبنيًّا للمفعولِ فيهما، أي: إنَّ اللَّهَ هو الذي أنساني، فينسب الأفعالَ إلى خالقِها لما فيه من الإقرار بالعبوديةِ والاستسلام لقدرةِ الربوبيةِ.

«**واسْتَذْكِرُوا الْقُرْآنَ**»: السينُ للمبالغةِ، أي: اطلبوا من أنفسكم مذاكرتَه والمحافظَةَ على قراءتِهِ، والواو في قولِهِ: «**واستذكروا**»، عطفٌ من حيث المعنى على قولِهِ: «**بِئْسَ مَا لأَحَدِهِمْ**»، أي: لا تقصروا في معاهدتِهِ واستذكارِهِ.

«**فَإِنَّهُ أَشَدُّ تَفَصِّيًا**»، أي: تَفَلُّتًا.

«**مِنَ النَّعَمِ**»، أي: الإبلُ، لا واحدَ له من لفظِهِ؛ لأنَّ شأنَ الإبلِ طلبُ التفلُّتِ ما أمكنها، فمتى لم يتعاهدها صاحبُها بربطها تفلَّتت، فكذلك حافظُ القرآنِ إذا لم يتعاهده تفلَّت، بل هو أَشَدُّ[1].

قال النوويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «في هذه الألفاظِ فوائد: منها: كراهةُ قولِ: «نَسيتُ آيةَ كذا». وهي كراهةُ تنزيهٍ، ومنها: أنَّه لا يُكره قول: أُنْسِيتُهَا. وإنَّما نهى عن: نَسِيتُها؛ لأنَّه يتضمَّن التساهلَ فيها والتغافلَ عنها، وقد قال اللَّهُ تعالى: ﴿أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾ [طه: ١٢٦].

وقال القاضي عِياضٌ: أَوْلَى ما يتأوَّلُ عليه الحديثُ: أنَّ معناه ذمُّ الحالِ، لا ذمُّ المقال، أي: بِئْستِ الحالةُ حالةُ مَنْ حَفِظَ القرآنَ فغفلَ عنه حتَّى نَسِيَهُ.

وقوله ﷺ: «**إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ القُرآنِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الإِبِلِ الْمُعَقَّلَةِ**» إلى آخره، فيه الحثُّ على تعاهدِ القرآنِ وتلاوتِهِ والحذرِ من تعريضِهِ للنسيانِ.

قال القاضي: ومعنى «صَاحِبِ القُرآنِ»؛ أي: الذي أَلِفَهُ، والمصاحبةُ: المؤالَفَةُ، ومنه فلانٌ صاحبُ فلانٍ، وأصحابُ الجنَّةِ، وأصحابُ النَّار، وأصحابُ الحديثِ،

---

(١) انظر: «اللؤلؤ والمرجان»، تعليق محمد فؤاد عبد الباقي (١/ ١٥٠).

وأصحابُ الرأي، وأصحابُ الصُّفَّةِ وأصحابُ إبلٍ وغنمٍ، وصاحبُ كنزٍ، وصاحبُ عبادةٍ.

وقولُه ﷺ: «**استذكرُوا القُرآنَ فَلَهُوَ أَشَدُّ تَفَصِّيًا مِنْ صُدُورِ الرِّجَالِ مِنَ النَّعَم بِعُقُلِهَا**»[1]. قال أهلُ اللُّغَةِ: التَّفَصِّي: الانفصالُ، وهو بمعنى الروايةِ الأخرى: «**أَشَدُّ تفلُّتًا**».

«**النَّعَمْ**»: أصلُها: الإبلُ والبقرُ والغنمُ، والمرادُ هنا الإبلُ خاصةً، لأنَّها التي تُعْقَلُ، والعُقُلُ -بضمِّ العينِ والقافِ، ويجوزُ إسكانُ القافِ- وهو كنظائِرِهِ، وهو جمعُ عَقَالٍ، ككتابٍ وكُتُبٍ، والنَّعَمُ تُذَكَّرُ وتُؤَنَّثُ.

والمرادُ من روايةِ الباءِ- أي: من قوله: بِعُقُلِهَا- «مِنْ» كما في قوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦]. على أحدِ القولين في معناها»[2].

وقال الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله ﷺ: «**كَمَثَلِ صَاحِبِ الإبِلِ المُعَقَّلَةِ**». أي: مع الإبلِ المعقَّلَةِ، والمُعَقَّلَةُ -بضمِّ الميمِ وفتحِ العينِ المهملةِ وتشديدِ القافِ-، أي: المشدودةِ بالعِقَالِ، وهو الحَبْلُ الذي يُشَدُّ في رُكْبَةِ البعيرِ، شَبَّه دَرْسَ القرآنِ واستمرارَ تلاوتِهِ بربطِ البعيرِ الذي يُخشى منه الشِّرَادُ، فما زال التعاهدُ موجودًا فالحفظُ موجودٌ، كما أنَّ البعيرَ مادام مشدودًا بالعقَالِ فهو محفوظٌ، وخصَّ الإبِلَ بالذِّكْرِ؛ لأنَّها أشدُّ الحيوانِ الإنسيِّ نُفورًا، وفي تحصيلها بعد استمكانِ نفورِها صعوبةٌ.

قولُه: «**إِنْ عَاهَدَ عَلَيْهَا أَمْسَكَها**»؛ أي: استمرَّ إمساكُه لها.

قولُه: «**وَإِنْ أَطْلَقَها ذَهَبَتْ**»؛ أي: انفلتت.

قولُه: «**بَلْ هُوَ نُسِّيَ**» -بضمِّ النونِ وتشديدِ المهملة المكسورةِ- قال القرطبيُّ: رواه بعضُ رُوَاةِ مسلمٍ مخفَّفًا، والتثقيلُ معناه: أنَّه عُوقِبَ بوقوعِ النسيانِ عليه لتفريطِهِ في

(١) هذا لفظُ مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٢) «صحيح مسلم بشرح النووي» (٦/ ٧٦).

معاهدتِهِ واستذكارِهِ، ومعنى التخفيف: أنَّ الرجلَ تركَ غير مُلْتَفتٍ.

قولُه: «اسْتَذْكِرُوا القُرْآنَ»؛ أي: واظبوا على تلاوتِهِ واطلبوا من أنفسِكم المذاكرةَ به»[(١)].

ولمَّا كان القرآنُ مَعْدِنَ العلمِ وأصلَه، كان إمَامَ العلومِ في ضرورةِ تعاهدِهِ والمحافظةِ عليه، فكلُّ العلومِ يحتاجُ إلى التعاهدِ والمواظبةِ على الاستذكارِ بعضًا ممَّا يحتاجُهُ القرآنُ.

وكما يعرِضُ النسيانُ للقرآنِ ويُلِحُّ عليه، فكذلك يعرِض للعلومِ ويُلِحُّ عليها، والمواظبةُ هي الدواءُ الذي لا دواءَ للنسيانِ مِثْلُهُ.

وللذنوبِ والآثامِ أثرٌ فَعَّالٌ في الحفظِ والنسيانِ، وقد ينسى العبدُ العلمَ بالذنبِ يصيبه، نسألُ اللَّهَ السلامةَ والعافيةَ، ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٤].

قال الضَّحَّاكُ بنُ مُزَاحِمٍ: «ما مِنْ أحدٍ تعلَّم القرآنَ ثمَّ نسيه إلا بذنبٍ يُحْدِثُهُ، وذلك أنَّ اللَّهَ تعالى يقولُ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى: ٣]. ونسيانُ القرآنِ من أعظمِ المصائبِ».

وقال ابنُ الجوزيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «عن أبي عبد اللَّهِ بنِ الْجَلَّاء، قال: كنتُ أنظرُ إلى غُلامٍ نصرانيٍّ حَسَنِ الوجهِ، فمرَّ بي أبو عبد اللَّهِ البَلْخِيُّ، فقال: إيشِ وقوفَك؟ قلتُ: يا عمُّ، أمَا ترى هذه الصورةَ؟ كيف تُعَذَّبُ بالنَّارِ؟! فضربَ بيدِهِ بين كتفيَّ، وقال: لَتَجِدَنَّ غِبَّها ولو بعدَ حينٍ. قال: فوجدتُ غِبَّها بعد أربعينَ سنةً، أن أُنْسيتُ القرآنَ.

وبإسناد عن أبي الأديانِ قال: كنتُ مع أستاذي وأبي بكرٍ الدَّقَّاقِ، فمرَّ حَدَثٌ، فنظرتُ إليه، فرآني أستاذي وأنا أنظر إليه، فقال: يا بُنَيَّ لَتَجِدَنَّ غِبَّهُ ولو بعد حين، فبقيتُ عشرينَ سنةً وأنا أُراعي فما أجدُ ذلك الغِبَّ، فنمتُ ليلةً وأنا أفكِّرُ فيه، فأصبحتُ قد أُنْسيتُ القرآنَ كلَّه»[(٢)].

---

(١) «فتح الباري» (٨/ ٦٩٧).

(٢) «تلبيس إبليس» لابن الجوزي (ص٣١٠).

وغِبُّ الأمْرِ وَمَغَبَّتُهُ: عَاقِبَتُهُ وآخِرُهُ.

وكما حَذَّرَ النبيُّ ﷺ من تعريضِ القرآنِ للنسيانِ وإهمالِ تعاهدِه حتَّى يذهبَ، رغَّبَ ﷺ في حفظِهِ وإتقانِ تلاوتِهِ.

فَعَنْ عائِشَةَ ﵂ قالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ، وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ وَهُوَ عَلِيهِ شَاقٌّ، لَهُ أَجْرَانِ**»[1]. متفقٌ عليه.

قال النوويُّ ﵀: «**السَّفَرَةُ**»: جَمْعُ سافِرٍ، كَكَتَبَةٍ وكاتِبٍ، والسَّافِرُ: الرسولُ، والسَّفَرَةُ: الرُّسُلُ؛ لأنَّهم يسفرون إلى النَّاسِ برسالاتِ اللَّهِ، وقيل: السَّفَرَةُ: الكَتَبَةُ، و«**الْبَرَرَةُ**»: المطيعون، من البِرِّ وهو الطاعةُ.

و «**الْمَاهِرُ**»: الحاذِقُ الكاملُ الحفظِ الذي لا يتوقَّفُ، ولا يَشُقُّ عليه القراءةُ لجودةِ حفظِهِ وإتقانِهِ.

قال القاضي: يُحتملُ أن يكونَ معنى كونِهِ مع الملائكةِ: أنَّ له في الآخرةِ منازلَ يكون فيها رفيقًا للملائكةِ السَّفَرَةِ، لاتصافِهِ بصفتهم من حَمْلِ الكتابِ، كتابِ اللَّهِ تعالى، قال: ويَحتملُ أن يُرادَ: أنَّه عاملٌ بعملِهِم سالكٌ مسالِكَهم، وأمَّا الذي يتَتَعْتَعُ فيه: فهو الذي يتردَّدُ في تلاوتِهِ لضعفِ حفظِهِ، «**لَهُ أَجْرَانِ**». أَجْرٌ بالقِراءةِ، وأَجْرٌ بِتَتَعْتُعِهِ في تلاوتِهِ ومشقَّتِهِ.

قال القاضي وغيرُهُ من العلماءِ: وليس معناه أنَّ الذي يتَتَعْتَعُ فيه له من الأجرِ أكثرُ من الماهرِ به بل الماهرُ به أفضلُ وأكثرُ أجرًا؛ لأنَّه مع السَّفَرَةِ وله أجورٌ كثيرةٌ، ولم يذكر هذه المنزلةَ لغيرِهِ، وكيف يلحقُ به مَنْ لم يَعْتَنِ بكتابِ اللَّهِ تعالى وحفظِهِ وإتقانِهِ وكثرةِ تلاوتِهِ وروايتِهِ كاعتنائِهِ حتَّى مَهَرَ فيه؟!»[2].

وعن عبد اللَّه بن عَمْرو بن العَاص ﵄ قالَ: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**يُقَالُ لِصَاحِبِ**

(١) رواه البخاري (٤٦٥٣)، ومسلم (٧٩٨).
(٢) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١١/ ٣٠).

القُرْآنِ: اقْرَأْ وارْتَقِ، وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيا، فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيةٍ تَقْرَؤهَا»[١].

قال الإمام الحافظُ أبو بكر بن العربيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يعني: أنَّه يقرأُ كما كان يقرأُ في الدنيا ويُعْطَى بكلِّ آيةٍ درجةً»[٢].

لقد حَذَّرَ الأئمةُ- رحمهم اللَّه- من إهمالِ المذاكرةِ حتى يُنْسى العلمُ، ونبَّهوا على أنَّ من أشدِّ غَوَائِلِ العلم النسيانَ، تحذيرًا منه وتنبيهًا عليه.

أخرج الدارميُّ في «سننه» (١/ ١٥٨) عن حكيم بن جابرٍ، قال: قال عبدُ اللَّهِ: «إِنَّ لكلِّ شيءٍ آفةً، وآفةُ العلمِ النسيانُ».

وأخرج أبو عمر بنُ عبدِ البرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ **بسندِهِ**: «عن الزُّهْرِيِّ قالَ: إنَّما يُذْهِبُ العلمَ النسيانُ، وتركُ المذاكرةِ.

وعن يزيدَ بنِ أبي زيادٍ عن عبدِ الرحمنِ بنِ أبي ليلى قال: إنَّ إحياءَ الحديثِ مذاكرتُه، فَتَذَاكَروا: فقال له عبدُ اللَّهِ بنُ شَدَّادٍ، يرحمُكَ اللَّهُ، كم من حديثٍ أحييتَهُ في صدري قد ماتَ.

وعن الزهريِّ قال: إنَّ للعلمِ غَوَائِلَ، فمن غَوَائِلِهِ[٣] أن يُتْرَكَ العالمُ حتَّى يذهبَ بعلمِهِ ومن غوائِلِهِ النسيانُ، ومن غوائِلِه الكذبُ فيه، وهو شَرُّ غَوائِلِهِ.

وعن الحسن قالَ: غَائِلَةُ العلمِ النسيانُ وتركُ المذاكرةِ»[٤].

وتكريرُ المحفوظِ على القلبِ أدعى لتثبيتِه ومأْمَنَةٌ من ذَهَابِهِ، وهذا دَأَبُ العلماءِ من قَبلُ لا يتوانون فيه ولا يستحسرون عنه.

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٦٧٩٩)، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيحٌ، وأبو داود (١٤٦٤)، وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (١/ ٤٠٣)، وفي «صحيح الجامع» (٧٩٧٨)، وأخرجه الترمذي (٢٩١٤)، وقال: حسنٌ صحيحٌ، وابن ماجه (٣٧٨٠).

(٢) «عارضة الأحوذي» (١١/ ٣٠).

(٣) قال الكسائيُّ: الغوائلُ: الدَّواهي: والغِيلَةُ في كلام العرب: إيصالُ الشَّرِّ إليه والقتلُ من حيث لا يعلم ولا يشعر.

(٤) «جامع بيان العلم» (١/ ١٠٧).

أخرج الخطيبُ رَحِمَهُ اللَّهُ **بسندِهِ**: «عن أحمدَ بنِ يحيى قال: قيل للأصمعيِّ: كيف حَفِظتَ وَنَسيَ أصحابُك؟ قال: دَرَسْتُ وَتَرَكُوا.

وعن سفيانَ قال: اجعلوا الحديثَ حديثَ أنفسكم، وَفِكْرَ قلوبكم، تحفظوه.

وعن الليثِ بن سعدٍ قال: وُضِعَ طَسْتٌ بين يدي ابنِ شهابٍ، فتذكَّر حديثًا فلم تزل يَدُهُ في الطَّسْتِ حتى طَلَعَ الفجرُ، حتَّى صَحَّحهُ.

وعن أبي جعفرٍ المراغيِّ قال: دخلتُ مَقْبرةً بِتُسْتَرَ، فسمعتُ صائحًا يصيحُ: والأعمشُ، عن أبي صالحٍ، عن أبي هريرة، والأعمش عن أبي صالحٍ، عن أبي هريرة، ساعةً طويلةً، فكنتُ أطلب الصَّوتَ، إلَى أن رأيتُ ابنَ زهيرٍ وهو يدرسُ مع نفسه من حفظِهِ حديثَ الأعمش.

وعن عليِّ بنِ المديني قال: تَذَاكَرَ وكيعٌ وعبدُ الرحمن ليلةً في المسجدِ الحرامِ، فلم يزالا حتَّى أذَّن المؤذِّنُ أذانَ الصُّبْحِ.

وعن ابن شهابٍ: أنَّه كان يسمعُ العِلْمَ من عُرْوَةَ وغيرِهِ، فيأتي إلى جاريةٍ له- وهي نائمةٌ- فيوقظُهَا، فيقول: اسمعي، حدثني فلانٌ كذا، وفلانٌ كذا، فتقول: ما لي ولهذا الحديث؟! فيقول: قد علمتُ أنَّكِ لا تنتفعين به، ولكن سمعتُهُ الآن فأردتُ أن أستذكرَهُ»[1].

والأئمةُ -رحمهم اللَّه تعالى- كانوا أهلَ حفظٍ ومعرفةٍ، وإنَّما امتازوا على النَّاسِ بما أَوْدَعَ اللَّهُ في قلوبِهم من يقينٍ وتوكُّلٍ وصدقٍ، وبما جعلَ في عقولهم من ذكاءٍ ونفاذٍ وحفظٍ، فَمَنْ أرادَ القَصَّ على آثارِهم فعليه أن يجتهدَ في نفي النسيانِ عنه بالضَّراعَةِ إلى اللَّهِ، وأكلِ الحلالِ، وتقليلِ المطاعِمِ والهمومِ، ومجانبةِ الآثامِ والذنوبِ واللَّهُ من وراءِ القصدِ وهو يهدي السبيلَ.

وهذا مَثَلٌ يُضْرَبُ في نعمةِ الحفظِ ومِنَّةِ الفهمِ، وهو الإمامُ المقدَّمُ الحافظُ العَلَمُ

---

(١) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (٢/ ٢٦٦).

الإمامُ محمد بن إسماعيل البخاريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، فقد أَنْعَمَ اللَّهُ تعالى عليه بذاكرةٍ لاقطةٍ، وقلبٍ حافظٍ، وأُذنٍ واعيةٍ.

روى الحافظُ ابن حجرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ بإسنادِهِ عن أحمدَ بنِ عَدِيٍّ الحافظِ قال: «سمعتُ عِدَّةً من مشايخِ بغدادَ يقولون: إنَّ محمدَ بن إسماعيلَ البخاريَّ قَدِمَ بغدادَ، فسمع به أصحابُ الحديثِ، فاجتمعوا وأرادوا امتحانَ حفظِهِ، فعمدوا إلى مائةِ حديثٍ فقلبوا متونَها وأسانيدَهَا، وجعلوا مَتْنَ هذا الإسنادِ لإسنادٍ آخر، وإسنادَ هذا المتن لمتن آخر، ودفعوها إلى عشرة أنفسٍ، لكلِّ رَجُلٍ عشرة أحاديثَ، وأمروهم إذا حضروا المجلسَ أن يُلقوا ذلك على البخاريِّ، وأخذوا عليه الموعدَ للمجلسِ، فحضروا وحَضَرَ جماعةٌ من الغرباءِ من أهل خُراسان وغيرهم من البغداديين، فلمَّا اطمأنَّ المجلسُ بأهلِهِ انتدب رجُلٌ من العشرةِ فسأله عن حديثٍ من تلك الأحاديثِ، فقال البخاريُّ: لا أعرفُهُ، فمَا زَالَ يُلقِي عليه واحدًا بعد واحدٍ حتى فَرَغَ، والبخاريُّ يقول: لا أعرفه، وكان العلماءُ ممَّنْ حَضَرَ المجلسَ يلتفتُ بعضُهم إلى بعضٍ ويقولون: فَهِمَ الرجلُ، ومَنْ كان لم يَدْرِ القصةَ قَضَى على البخاريِّ بالعجزِ والتقصيرِ وقِلَّة الحفظِ.

ثم انتدب رجلٌ من العشرةِ- أيضًا- فسأله عن حديثٍ من تلك الأحاديث المقلوبةِ فقال: لا أعرفه، فسأله عن آخر، فقال: لا أعرفُهُ. فلم يزل يُلقي عليه واحدًا واحدًا حتى فَرَغَ من عَشَرَتِهِ، والبخاريُّ يقول: لا أعرفُهُ.

ثمَّ انتدب الثالثُ والرابعُ إلى تمامِ العَشَرَةِ، حتى فرغوا كلُّهم من إلقاء تلك الأحاديثِ المقلوبةِ، والبخاريُّ لا يزيدهم على: لا أعرفه. فلمَّا عرف أنَّهم قد فرغوا التفتَ إلى الأول فقال: أمَّا حديثُك الأولُ، فقلت: كذا، وصوابهُ: كذا، وحديثُك الثاني: كذا، وصوابُهُ: كذا، والثالثُ والرابعُ على الولاءِ حتى أتى على تمامِ العَشَرَةِ فردَّ كلَّ متنٍ إلى إسنادِهِ وكلَّ إسنادٍ إلى متنِهِ، وفعل بالآخرينَ مثلَ ذلك، فأقرَّ النَّاسُ له بالحفظِ وأذعنوا له بالفضلِ.

قال الحافظ ابنُ حجرٍ: قلتُ: هنا يُخضع للبخاريِّ، فما العَجَبُ من ردِّه الخطأ إلى الصواب، فإنَّه كان حافظًا، بل العجب من حفظِهِ للخطأ على ترتيبِ ما أَلْقَوْهُ عليه من مرَّةٍ

واحدةٍ.

وقال أبو الأزهرِ: كان بِسَمَرْقَنْدَ أربعمئةِ محدِّثٍ فتجمعوا وأحبُّوا أن يُغَالِطُوا محمدَ ابنَ إسماعيلَ البخاريَّ، فأدخلوا إسنادَ الشامِ في إسنادِ العراقِ، وإسنادَ العراقِ في إسنادِ الشامِ، وإسنادَ الحَرَمِ في إسنادِ اليمن، فما استطاعوا مع ذلك أن يتعلَّقوا عليه بِسَقْطَةٍ»[١].

وقد حكى عنه رفاقهُ في الطَّلَبِ في حِدَّةِ الذِّهْنِ وسيلانِهِ عجبًا؛ حَدَّثَ حاشدُ بنُ إسماعيلَ قال: كان البخاريُّ يختلفُ معنا إلى مشايخِ البصرةِ وهو غلامٌ، فلا يكتب، حتَّى أتى على ذلك أيامٌ فَلُمْنَاهُ بعد ستةَ عشر يومًا، قال: قد أكثرتم عليَّ، فاعرضوا عليَّ ما كتبتم، فأخرجناه فزادَ على خمسة عشر ألف حديثٍ، فقرأها كلَّها عن ظَهْرِ قلبٍ، حتى جعلنا نُحْكِمُ كُتُبَنَا من حفظِهِ»[٢].

لقد خَصَّ اللَّهُ تعالى أُمَّتَنَا بحفظِ القرآن والعلمِ، وقد كان مَنْ قبلنا يقرءون كُتُبَهُمْ من الصُّحُفِ، ولا يقدرون على الحفظِ، فلمَّا جاء عُزَيْرٌ وتَلَا التوراة من حفظِهِ، قالوا: هذا ابنُ اللَّهِ!!

فكيف نقوم بشكرِ مَنْ خَوَّلَنَا أنَّ ابنَ سبعِ سنين منَّا، يقرأ القرآنَ عن ظهر قلبٍ، ثمَّ ليس في الأممِ مَنْ ينقلُ عن نبيِّه أقوالَهُ وأفعالَهُ على وجهٍ يحصلُ به الثقةُ إلا نحن، فإنَّه يروي الحديثَ منا خَالِفٌ عن سَالِفٍ، وينظرون في ثقةِ الراوي إلى أن يصل الأمرُ إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ، وسائرُ الأممِ يروون ما يذكرونه عن صحيفةٍ لا يُدرى مَنْ كتبها، ولا يُعرفُ مَنْ نَقَلَها.

وهذه المنحةُ العظيمةُ نفتقر إلى حفظِها، وحفظُها بدوامِ الدراسةِ، ليبقى المحفوظُ، وقد كان خَلْقٌ كثيرٌ من سَلَفِنَا يحفظون الكثير من الأمرِ، فآلَ الأمرُ إلى أقوامٍ يفرُّون من الإعادةِ ميلًا إلى الكسلِ، فإذا احتاج أحدُهم إلى محفوظٍ لم يَقْدِرْ عليه[٣].

(١) «هدي الساري» لابن حجر العسقلاني (ص٥٠١).
(٢) «هدي الساري» (ص٥٠٢).
(٣) انظر: «الحث على حفظ العلم» لابن الجوزي (ص٢٣).

١٠- الْغُرُورُ

«الْغُرُورُ: هو سكونُ النَّفْسِ إلى ما يوافِقُ الهوى ويميلُ إليه الطَّبْعُ عن شُبْهَةٍ وخُدْعَةٍ من الشيطانِ.

فمَن اعتقد أنَّه على خيرٍ، إمَّا في العاجلِ أو في الآجلِ، عن شُبْهَةٍ فاسدةٍ فهو مغرورٌ، وَأكثرُ النَّاس يظنُّون بأنفسهم الخيرَ وهم مخطئون فيه، فأكثرُ النَّاسِ -إذن- مغرورون، وإن اختلفت أصنافُ غرورهم، واختلفت درجاتُهم، حتَّى كان غرورُ بعضِهم أظهرَ وأشدَّ من بعضٍ»[(١)].

والغرورُ آفةٌ من آفاتِ النَّفْسِ قلَّما يُمكن فَصْلُهَا فَصْلًا واضحًا في حالةٍ بعينها من حالاتِ النَّفْسِ البشريةِ، بل إنَّ آفةَ الغرورِ لا تنفكُّ عنِ الكبرِ والعُجْبِ والرِّيَاءِ والسُّمْعَةِ بحالٍ، بل كلُّ ذلك كالأصلِ الذي تتفرَّع منه، وكالتُّرْبَةِ التي تَنْبُتُ فيها، وكالماءِ الكَدِرِ الذي يرويها.

والمقصودُ هنا: أن نُنَبِّهَ إلى آفةِ الغرورِ التي تعرِضُ لأهلِ العلم خاصَّةً؛ لأنَّ لأبليسَ من خَفِيِّ التلبيسِ ما يَغْمُضُ على كثيرٍ من أهلِ العلمِ، إلا أنَّ الأئِمَّةَ ﭭ يهتكون على اللَّعينِ أستارَهُ، ويهدمون عليه أسوارَه، وإذا ما هو حريصٌ على إخفائِهِ سافرٌ منكشِفٌ.

قال ابنُ الجوزيِّ ﬀ: «إنَّ أقوامًا عَلَتْ هِمَمُهُمْ فَحصَّلوا علومَ الشَّرعِ من القرآنِ والحديثِ والفقهِ والأدبِ وغيرِ ذلكَ، فأتاهم إبليسُ بخفيِّ التلبيسِ، فأراهم أنفسَهم بعينٍ عظيمةٍ لما نالوا وأفادوا غيرهم، فمنهم مَنْ يستفِزُّه لطولِ عَنَائِهِ في الطلبِ، فحسَّن له اللَّذَّاتِ، وقال له: إلى متى هذا التعبُ؟ أرح جوارِحَكَ من كُلَفِ التكاليفِ وَأفسح لنفسِك في مشتهاها، فإن وَقعتَ في زَلَّةٍ فالعلمُ يدفعُ عنك العقوبةَ، وأوردَ عليه فضلَ العلماءِ، فإن خُذِلَ هذا العبدُ وقَبِلَ هذا التلبيسَ يهلِكُ، وقد لبَّسَ إبليسُ على أقوامٍ من المحكِمينَ في العلمِ والعملِ من جهةٍ أخرى، فَحَسَّنَ لهم الكبرَ بالعلمِ، والحسدَ للنظيرِ،

(١) «تهذيب إحياء علوم الدين» (٢/ ١٤٦).

والريَاءَ لطلبِ الرياسةِ؛ فتارةً يُريهم أنَّ هذا كالحقِّ الواجبِ لهم، وتارةً يقوِّي حُبَّ ذلك عندهم فلا يتركونه مع علمِهم بأنَّه خطأٌ.

وقد يتخلَّصُ العلماءُ الكاملون من تلبيسات إبليسَ الظاهرةِ فيأتيهم بخفيٍّ من تلبيسِه، بأن يقولَ له: ما لقيتُ مِثْلَكَ، ما أعْرَفَكَ بمداخلي ومخارجي، فإن سَكَنَ إلى هذا هَلَكَ بالْعُجْبِ، وإن سَلِمَ من المسالَمةِ له سَلِمَ.

وقد قال السريُّ السقطيُّ: لو أنَّ رجلًا دخلَ بستانًا فيه من جميعِ ما خلقَ اللَّهُ ﷻ من الأشجارِ، عليها من جميعِ ما خلقَ اللَّهُ تعالى من الأطيارِ فخاطبهُ كلُّ طائرٍ بلُغَتِهِ، وقال: السلامُ عليكم يا وَلِيَّ اللَّهِ، فسكنت نفسُهُ إلى ذلك، كان في أيديها أسيرًا، واللَّهُ سبحانه الهادي لا إله إلا هو»[1].

إن إمامَ المغرورين وقائدَهُم وحاملَ لوائِهم إلى النَّارِ، هو إبليسُ، وقد غَرَّتِ اللَّعينَ نفسُهُ أنَّه مخلوقٌ من نارٍ، فَتَأَبَّى على السجودِ لآدَمَ إذ كان مخلوقًا من طينٍ، فقاسَ قياسًا فاسدًا، واستنتج نتيجةً فاسدةً، فتمرَّدَ على الأمرِ وعَصَى ربَّ العالمين، فقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قولُ إبليسَ لعنه اللَّه: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾. من العُذْرِ الذي هو أكبرُ من الذنبِ، كأنَّه امتنعَ من الطَّاعةِ لأنَّه لا يُؤْمَرُ الفاضلُ بالسجودِ للمفضولِ، يعني -لعنه اللَّهُ-: وأنا خيرٌ منه، فكيف تأمرني بالسجود له؟! ثمَّ بيَّنَ أنَّهُ خيرٌ منه بأنَّه خُلِقَ من نارٍ، والنَّارُ أشرفُ ممَّا خَلَقْتَهُ منه وهو الطينُ، فنظرَ اللعينُ إلى أصلِ العنصرِ، ولم ينظر إلى التشريفِ والتعظيمِ وهو أن اللَّهَ تعالى خَلَقَ آدمَ بيدِه، ونَفَخَ فيه من رُوحِهِ، وقاسَ اللعينُ قياسًا فاسدًا في مُقَابَلَةِ نصِّ قولِهِ تعالى: ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩]. فشذَّ من بين الملائكةِ لتركِ السجودِ، فلهذا أُبْلِسَ من الرحمةِ، أي: أُويِسَ من الرحمةِ، فأخطأ- قبَّحه اللَّهُ- في قياسِه ودعواه أنَّ النَّارَ أشرفُ من الطينِ.

أيضًا؛ فإنَّ الطينَ من شأنهِ الرَّزَانَةُ والحِلْمُ والأناةُ والتثبُّتُ، والطينُ محلُّ النباتِ

(١) «تلبيس إبليس» لابن الجوزي (ص١٢٩).

والنموِّ والزيادةِ والإصلاحِ، والنَّارُ من شَأْنِهَا الإحراقُ والطيشُ والسرعةُ، ولهذا خانَ إبليسَ عنصُرُهُ، ونفعَ آدمَ عنصرُهُ بالرجوعِ والإنابةِ والاستكانةِ والانقيادِ والاستسلامِ لأمرِ اللَّهِ، والاعترافِ وطَلَبِ التوبةِ والمغفرةِ»[(١)].

وقد حذَّر اللَّهُ عبادَه أن يَغُرَّهُم الشيطانُ الرجيمُ، وحذَّرهم تعالى أن تغرَّهُمُ الدنيا بِزُخْرُفِها ومتاعِها، وأن يركنوا فيها إلى الشيطانِ فيهديهم إلى سواءِ الجحيمِ.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣].

قال القرطبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ﴾ يعني: الكافرَ والمؤمنَ، أي: خافوه ووحِّدُوه. ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ أي: البعثُ، ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ﴾ أي: تخدعنَّكم، ﴿ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ بزينتِها وما تدعو إليه، فتتَّكلوا عليها وتركنوا إليها وتتركوا العملَ للآخرةِ. ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾. هو الشيطانُ. في قولِ مجاهدٍ وغيره، وهو الذي يغرُّ الْخلْقَ ويمنِّيهم الدنيا ويلهيهم عن الآخرة، وفي سورةِ النساءِ: ﴿يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ﴾ [النساء: ١٢٠]»[(٢)].

وقال السعديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يأمرُ اللَّهُ تعالى النَّاس بتقواه التي هي امتثالُ أوامِرِهِ وتركُ زواجِرِهِ، ويستلفتُهم لخشيةِ يوم القيامةِ، اليوم الشديدِ الذي فيه كلُّ أحدٍ لا يهمُّه إلا نفسُه، ﴿يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ﴾. يزيدُ في حسناتِهِ أو ينقصُ من سيئاتِه، قد تمَّ على كلِّ عبدٍ عملُهُ وتحقَّقَ عليه جزاؤُه، فَلَفْتُ النظرِ لهذا اليومِ الهائِلِ ممَّا يقوِّي العبدَ ويسهِّل عليه تقوى اللَّهِ، وهذا من رحمةِ اللَّهِ بالعبادِ يأمرُهم بتقواه التي فيها سعادتُهم، وَيعِدُهُم عليها الثوابَ ويحذِّرُهم من العقابِ، ويزجرُهم عنه بالمواعظِ والمخوِّفاتِ.

(١) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٢/ ٢٠٣).
(٢) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (١٤/ ٨٢).

﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾. فلا تمتروا فيه ولا تعملوا عملَ غيرِ المصدِّقِ، فلهذا قال: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾. بزينتِها وزُخْرُفِهَا وما فيها من الفتنِ والمحنِ ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾. الذي هو الشيطانُ، ما زالَ يخدعُ الإنسانَ ولا يغفلُ عنه في جميعِ الأوقاتِ، فإنَّ للَّهِ على عبادِهِ حقًّا وقد وعدَهُم مَوْعِدًا يُجَازِيهم فيه بأعمالِهِم. وهل وَفَّوْا حقَّه أم قصَّروا فيه.

وهذا أمرٌ يجبُ على العبدِ أن يهتمَّ به، وأن يجعلَه نُصْبَ عينيه، ورأسَ مال تجارتِهِ التي يسعى إليها، ومن أعظمِ العوائِقِ عنه والقواطِعِ دونه الدنيا الفتَّانَةُ والشيطانُ الموسوِسُ المسوِّلُ، فنهى تعالى عبادَهُ أن تغرَّهم الدنيا أو يغرَّهم باللَّهِ الغرورُ ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠][(١)].

وأخبر تعالى عن صفةٍ لازمةٍ من صفاتِ المنافقين، وهي الغُرُورُ، وكيف تغرُّهم الأمانيُّ والأباطيلُ في الدنيا حتَّى يأتيَهُم أمرُ اللَّهِ، وهم غافلون.

قال تعالى: ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [الحديد: ١٤].

قال القرطبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولُه تعالى: ﴿يُنَادُونَهُمْ﴾ أي: ينادي المنافقون المؤمنين، ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾. في الدنيا؟! يعني: نصلِّي مثلما تصلُّون، ونغزو مثلما تغزون، ونفعل مثلما تفعلون؟! ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾، أي: يقول المؤمنون: ﴿بَلَىٰ﴾ قد كنتم معنا في الظاهرِ ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: استعملتموها في الفتنةِ، ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ﴾ أي: ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ بالنبيِّ ﷺ الموتَ، وبالمؤمنين الدوائرَ، وقيل: ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ بالتوبةِ ﴿وَٱرْتَبْتُمْ﴾ أي: شككتم في التوحيدِ والنبوَّةِ. ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ﴾ أي: الأباطيلُ. وقيل: طولُ الأملِ، وقيلَ: هو ما كانوا يتمنَّونه من ضَعْفِ المؤمنين ونزولِ الدوائرِ بهم.

وقال قتادةُ: الأمانيُّ هنا خدعُ الشيطانِ، وقيل: الدنيا، قاله عبد اللَّهِ بنُ عباسٍ، وقال أبو سنان: هو قولهم: ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: ١٦٩].

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص٦٠١).

وقال بلالُ بنُ سعدٍ: ذِكْرُكَ حَسَنَاتِك ونسيانُكَ سيئاتِكَ غِرَّةٌ.

﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ يعني: الموتُ، وقيلَ: نُصْرَةُ نبيِّهِ ﷺ، وقال قتادةُ: إلقاؤُهم في النَّارِ، ﴿وَغَرَّكُم﴾ أي: خَدَعَكُم، ﴿بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ أي: الشيطانُ، قاله عكرمةُ، وقيل: الدنيا، قاله الضَّحَّاكُ.

وقال بعضُ العلماءِ: إنَّ للباقي بالماضي اعتبارًا، وللآخرِ بالأولِ مُزْدَجَرًا، والسعيدُ من لا يغترُّ بالطمعِ، ولا يركنُ إلى الخدعِ، ومَنْ ذَكَرَ المنيَّةَ نسيَ الأمنيَّةَ، ومَنْ أطالَ الأملَ نَسِيَ العملَ، وَغفَلَ عن الأجلِ.

وجاء ﴿ٱلْغَرُورُ﴾. على لفظِ المبالغةِ للكثرةِ»[١].

ولو أنَّ قاعدةَ العملِ عند أهلِ العلمِ هي: أنَّ العِبْرَةَ ليست بالعملِ وإنَّما بتصفيةِ العملِ من الشوائبِ، من هَدْيِ قولِهِ تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]. لو أنَّ قاعدةَ العملِ عندَ أهلِ العلمِ كانت هذه، لقُضِيَ الأمرُ، ولكنَّها لم تكن كذلك دائمًا، فليتها تكون . . . ليتها . . .

غير أنَّ أهلَ التحقيقِ من أهلِ العلمِ كانوا على هذه القاعدةِ سائرين، وهذا إمامٌ من أئمَّةِ المسلمين -رحمهم اللَّهُ أجمعين-، بَلَغَ في الإمامةِ مَبْلَغًا لا مَطْمَعَ لأحدٍ بعده في مثلِهِ، ومع ذلك يخافُ على نفسِهِ ويخشى.

عن عبد اللَّهِ بن أحمد بن حنبلٍ قال: «سمعتُ أبا زُرْعَةَ يقول: كان أبوكَ يحفظُ ألفَ ألفِ حديثٍ، فقيلَ له: وما يدريك؟ قال: ذاكرتُهُ فَأخذتُ عليه الأبوابَ».

وقال عليُّ بن المدينيِّ: «إنَّ اللَّه ﷻ أعزَّ هذا الدِّينَ بأبي بكرٍ الصِّدِّيقِ يومَ الرِّدَّةِ، بأحمدَ بنِ حنبلٍ يومَ المحنةِ».

ومع ما كان أحمدُ فيه من الإمامةِ في الحديثِ والحفظِ والفقهِ والورعِ والزهدِ والصبرِ، كان خائفًا يحذرُ الآخرةَ ويرجو رحمةَ رَبِّهِ.

(١) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (١٧/ ٢٣٧).

قال الخلَّالُ: «أخبرنا المرُّوذيُّ: قلتُ لأبي عبد اللَّهِ: ما أكثرَ الداعي لك!

قال: أخاف أن يكون استدراجًا، بأيِّ شيءٍ هذا؟!».

قال -أي: المرُّوذي-: «قلتُ لأبي عبدِ اللَّهِ: إنَّ رجلًا قَدِمَ من طَرَسُوسَ فقال لي: إنَّا كنَّا في بلادِ الرُّوم في الغزوِ إذا هَدَأَ الليلُ رفعنا أصواتنَا بالدُّعاء: ادعوا لأبي عبدِ اللَّهِ، وكنَّا نمدُّ المنجنيقَ ونرمي عنه، وقد رُمِيَ عنه بِحَجَرٍ والْعِلْجُ على الحصنِ متقوِّسٌ بدرقةٍ، فذهبَ -أي: الحجرُ- برأسِهِ وبالدَّرَقَةِ، فتغيَّرَ وجهه، وقال: ليته لا يكون استدراجًا، فقلتُ: كلَّا».

وقال عباسٌ الدُّوريُّ: «حدثني عليُّ بن فزارَةَ جارُنا، قال: كانت أُمِّي مُقْعَدَةً من نحو عشرين سنةً. فقالت لي يومًا: اذهب إلى أحمدَ بنِ حنبلٍ فَسَلْه أن يدعوَ لي، فأتيتُ فَدَقَقْتُ عليه وهو في دهليزه، فلم يَفْتَحْ لي، وقال: مَنْ هذا؟ قلتُ: أنا رجلٌ سألتني أمِّي وهي مُقْعَدَةٌ أن أسألك أن تدعوَ اللَّهَ لها، فسمعتُ كلامَه كلامَ رجلٍ مُغْضَبٍ، فقال: نحن أحوجُ أن تدعوَ اللَّهَ لنا، فولَّيتُ منصرفًا، فخرجتْ عجوزٌ فقالت: إنِّي قد تركتُه يدعو لها، فجئتُ إلى بيتنا فَدَقَقْتُ البابَ، فَخَرَجَت أُمِّي على رِجْلَيْها تمشي، وقالت: قد وهبَ اللَّهُ ليَ العافيةَ». قال الذهبيُّ: رواها ثقتان عن عبَّاسٍ.

وإمامُ الكلِّ، نبيُّ الرحمة محمَّدٌ ﷺ، قد غَفَرَ اللَّهُ له ما تقدَّمَ من ذنبه وما تأخَّرَ، يقولُ: «**لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ.**» . قالُوا: ولا أنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قالَ: «**لا، ولَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ**»(١). متفقٌ عليه.

وعن الْمُغِيرَةِ بنِ شُعْبَةَ رضي الله عنه قال: «كان النبيُّ ﷺ يُصَلِّي حتَّى تَرِمَ- أي: تَنْتَفِخَ- قَدَمَاهُ، فَيُقَالُ له، فَيقُولُ: «**أفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟!**»»(٢). أخرجه البخاريُّ ومسلمٌ.

وكما بيَّنَ النبيُّ ﷺ أنَّ خِصالَ الخيرِ حجَابٌ بين العبدِ والنَّارِ، وجُنَّةٌ له منها، وأنَّ ركعتين مقبولَتين بوضوءٍ حَسَنٍ مع قليلِ لُبْثٍ في المسجدِ يغفرُ اللَّهُ بهما ما تقدَّمَ من ذنبِ

(١) «البخاري» (٦٠٩٨)، و«مسلم» (٢٨١٦).
(٢) «البخاري» (١٠٧٨)، و«مسلم» (٢٨١٩).

العبدِ وما اقترفَت يداه.

كما بيَّن النبيُّ ﷺ ذلك- وهو يسيرٌ على مَنْ يسَّره اللَّهُ عليه- أعقبه بتحذيرٍ دافعٍ، وتنبيهٍ قاطعٍ، فنهى أن يَغتَرَّ المسلمُ بذلك فيتَّكِلَ عليه، فيهون عليه الذنبُ فيهلِك.

عن مُعَاذِ بنِ عبدِ الرحمن أنَّ ابنَ أَبَان أخبرهُ قال: «أَتَيتُ عُثْمَانَ بنَ عَفَّانَ بطَهُورٍ، وهُوَ جَالِسٌ عَلى الْمَقَاعِدِ، فَتَوَضَّأَ، فَأَحْسَنَ الْوُضوءَ، ثُمَّ قالَ: رَأَيْتُ النَّبيَّ ﷺ تَوَضَّأَ في هذا المجلسِ فَأَحْسَنَ الوُضُوءَ، ثمَّ قال: مَنْ تَوَضَّأَ مثْلَ هذا الوُضُوءِ ثُمَّ أَتَى المسجدَ فَرَكَعَ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ جَلَسَ غُفِرَ له ما تقدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ». قال: وقال النبيُّ ﷺ: «**لا تَغْتَرُّوا**»[1]. رواه البخاريُّ.

قال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله: قالَ: وقالَ النبيُّ ﷺ: «**لا تَغْتَرُّوا**». حَاصِلُ شَرحِهِ: لا تحملوا الغفرانَ على عمومِه في جميعِ الذنوبِ، فتسترسلوا في الذنوبِ اتِّكالًا على غُفْرانها بالصَّلاةِ، فإنَّ الصَّلاةَ التي تكفِّرُ الذنوبَ هي المقبولةُ، ولا اطلاعَ لأحدٍ عليها.

وظهر لي جوابٌ آخرُ: وهو أنَّ المُكفَّرَ بالصَّلاةِ هي الصغائرُ، فلا تغتروا فتعملوا الكبيرةَ بناءً على تكفير الذنوبِ بالصلاةِ فإنَّه خاصٌّ بالصَّغائرِ، أو لا تستكثروا من الصغائرِ فإنَّها بالإصرارِ تُعطى حكمَ الكبيرةِ؛ فلا يُكَفِّرُها ما يُكَفِّرُ الصغيرةَ، أو أنَّ ذلك خاصٌّ بأهلِ الطاعةِ فلا ينالُهُ مَنْ هو مرتبكٌ في المعصيةِ»[2].

* أَقْسَامُ الْمَغْرُورِينَ مِن أَهْلِ العِلْمِ

انقسمَ المغترُّون من أهلِ العلمِ أقسامًا وتفرَّقوا فِرَقًا:

فمنهم فرقةٌ: أحكموا العلومَ الشرعيةَ والعقليَّةَ، وأهملوا تَفَقُّدَ الجوارحِ وحفظَها من المعاصي، وإلزامَهَا الطاعاتِ، واغترُّوا بعلمِهم، وظنُّوا أنَّهم من اللَّهِ بمكانٍ، ولو نظرَ هؤلاء بعينِ البصيرةِ، علموا أنَّ علمَ المُعاملة لا يُرادُ به إلا العمل، ولولا العملُ

---

(١) الحديث في «الصحيحين»؛ «البخاري» (١٥٨)، و«مسلم» (٢٢٦)، وأما قوله ﷺ: «**لا تغتروا**». ففي رواية البخاري (٦٠٦٩).

(٢) «فتح الباري» (١١/ ٢٥٥).

لم يكن له قَدْرٌ، قال اللَّه تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّنهَا﴾ [الشمس: ٩]. ولم يقل: قد أفلحَ مَنْ تَعَلَّمَ كيفَ يُزَكِّيها، فإن تلا عليه الشيطانُ فَضائلَ أهلِ العلمِ، فليذكر ما وردَ في العَالم الفاجرِ، كقوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعراف: ١٧٦]، و﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥].

ومنهم فرقةٌ أخرى: أحكموا العلمَ والعملَ الظَّاهرَ، ولم يتفقدوا قلوبَهُم ليمحُوا الصفات المذمومةَ منها، كالكِبْرِ والحسدِ والرياءِ، وَطَلَبِ العُلُوِّ، وطَلَبِ الشُّهرةِ، فهؤلاء زيَّنوا ظاهرَهم، وأهملوا باطنَهم، ونَسُوا قولَه ﷺ: «**إنَّ اللَّهَ لا يَنْظُرُ إلى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وإِنَّما يَنْظُرُ إلى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُم**»(١). رواه مسلمٌ. فتعاهدوا الأعمالَ، ولم يتعاهدوا القلوبَ، والقلبُ هو الأصلُ، إذ لا ينجو إلا مَنْ أتى اللَّهَ بقلبٍ سليمٍ.

ومَثلُ هؤلاءِ كَمَثَلِ رجلٍ زَرَعَ زَرْعًا، فنبتَ ونبتَ معه حشيشٌ يُفسده، فأمر بقلعِهِ، فأخذ يَجُزُّ رءوسَهُ وأطرافَه ويترك أصولَه، فلم تزل أصولُهُ تقوى.

وفِرْقَةٌ أخرى: علموا أنَّ هذه الأخلاقَ الباطنةَ مذمومةٌ، إلا أنَّهم بعُجْبِهم بأنفسِهم يظنُّون أنَّهم مُنْكَفُّون عنها. وأنَّهم أرفعُ عند اللَّهِ من أن يبتليَهُم بذلك، وإنَّما يُبتلى بذلك العوامُّ دون مَنْ بلغَ مبلغَهم من العلومِ، فإذا ظهر عليهم مخايلُ الكِبرِ والرياسةِ، قال أحُدهم: ما هذا بِكِبْرٍ، وإنَّما هو طلبُ عزِّ الدين، وإظهارُ شرفِ العلمِ، وإرغامُ الْمُبْتَدِعين، فإنِّي لو لبستُ الدُّونَ من الثياب، وجلستُ في الدُّونِ من المجالسِ شمتَتْ بي أعداءُ الدِّينِ، وفرحوا بذلِّي، وفي ذلِّي ذُلُّ الدين وينسى الغرورَ، وأنَّ إبليسَ هو الذي سوَّل له بدليلِ أنَّ النَّبيَّ ﷺ وأصحابَهُ كانوا يتواضعون ويُؤثرون الفقرَ والمسكنَةَ.

وقد رُوِّينا عن عمرَ بنِ الخطَّابِ ﵁ أنَّهُ لما قدِمَ الشَّامَ عَرَضَتْ له مَخَاضةٌ(٢)، فنزلَ عن بعيرِهِ، ونزعَ خُفَّيْهِ وأمسكهما، وخاضَ الماءَ، ومعه بعيرُهُ، فقال له أبو عبيدة: لقد صنعتَ اليوم صنعًا عظيمًا عندَ أهل الأرض، فَصَكَّ عمر في صدرِهِ وقال: أَوَّهْ، لو غيرُكَ

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤).
(٢) المَخَاضُ من النَّهْرِ الكبير: الموضع الذي يَتَخَضخَضُ مَاؤُهُ فَيُخَاضُ عند العبورِ، ويُقال: المَخاضةُ أيضًا.

يقولُ هذا يا أبا عبيدةَ، إنَّكم كنتم أذَلَّ وأحقَرَ النَّاسِ، فأعزَّكم اللَّهُ برسولِه، فمهما تطلبوا العزَّ بغيره يُذِلُّكُمُ اللَّهُ.

وفي روايةٍ عنه: لمَّا قَدِمَ الشَّامَ، استقبلهُ النَّاسُ وهو على بعيره، فقيل له: لو ركِبْتَ بِرْذَوْنًا[1] تلقى به عظماءَ النَّاسِ ووجوهَهُم، فقال عمرُ ﷺ: لا أراكم هاهنا، إنَّما الأمر من هاهنا -وأشار بيده إلى السماءِ- خلُّوا سبيلَ جملي.

ثمَّ العَجَبُ من مغرورٍ يطلبُ عزَّ الدنيا بالثيابِ الرفيعةِ، والخيولِ الفارهةِ، ونحو ذلك، وإذا خطرَ له خاطرُ الرياءِ قال: إنَّما غرضي بهذا إظهارُ العلمِ والعملِ، لاقتداء النَّاسِ ليهتدوا إلى الدِّين، ولو كان هذا قصدَه لفرحَ باقتداءِ النَّاسِ بغيرِهِ كما يفرحُ باقتدائِهِم به؛ لأنَّه مَنْ كان قصدُهُ صلاحَ الخَلْقِ يفرحُ بصلاحِهِم على يدِ مَنْ كان، وكذلك مَنْ يدخلُ منهم على سلطانٍ، ويتودَّدُ إليه، ويُثْني عليه، ويتواضع له ويقول: إنَّما غرضي بهذا أن أشفعَ في مسلمٍ أو أدفعَ عنه الضررَ، واللَّهُ يعلمُ أنَّه لو ظهر لبعضِ أقرانِه قبولٌ عند السلطانِ لَثَقُلَ ذلك عليه.

وقد ينتهي غرورُ بعضِهم إلى أنَّه يأخذ من مالهم الحرامِ ويقولُ: هذا مالٌ لا مَالِكَ له، وهو لصالحِ المسلمين، وأنتَ إمامٌ من أئمَّتِهم، فَيَغْتَرُّ بهذا التلبيسِ من جهةِ نظرِهِ إلى نفسِهِ.

وفرقةٌ أخرى: أحكموا العلمَ، وطهَّروا جوارحَهم وزيَّنوها بالطاعاتِ، وتفقَّدوا قلوبَهم بتصفيتها من الرياءِ والحسدِ والكبرِ ونحو ذلك، ولكن بقيتْ في زوايا القلبِ خفايا من مكايدِ الشيطانِ وخِدَعِ النَّفسِ لم يفطنوا لها وأهملوها، فترى أحدَهم يسهر ليلَه وَيَنْصَبُ نهارَه في جمع العلومِ وترتيبها وتحسينِ ألفاظها، ويرى أنَّ باعثَه على ذلك الحرصُ على إظهار دينِ اللَّهِ تعالى، وربَّما كان الباعثُ لذلك طَلَبَ الذِّكْرِ وانتشارَ الصِّيتِ، ولعله لا يخلو في تصنيفِه من الثَّناءِ على نفسِهِ، إمَّا تصريحًا بالدعاوى الطويلةِ العريضةِ، وإمَّا ضِمْنًا بالطعن في غيره ليُبيِّنَ في طعنِهِ في غيرِهِ أنَّه أفضلُ من ذلكَ الغيرِ،

---

(١) البَراذينُ من الخيلِ: ما كان من غير نتاج العِرَابِ.

وأعظمُ منه علمًا، فهذا وأمثالُهُ من خفايا العيوبِ التي لا يفطنُ لها إلا الأكياسُ الأقوياءُ، ولا مطمع فيه لأمثالنا من الضُّعفاءِ، إلا أنَّ أَقلَّ الدرجاتِ أن يعرفَ الإنسانُ عيوبَ نفسِهِ، ويحرصَ على صلاحِهَا.

فهذا غرورُ الذين حَصَّلوا العلومَ المهمَّةَ، فكيفَ بالذين قَنَعُوا من العلومِ بما لا يهمُّهم وتركوا الْمُهِمَّ؟[١].

فالحاملُ على الغرورِ بالعلمِ قِلَّةُ علمٍ بسيرةِ السَّلَفِ، وما كان عليه الأوائلُ من الاجتهادِ والمواظبةِ والجِدِّ وتصفيةِ العملِ من الشوائِبِ، وتنقيةِ القلبِ من الأكدارِ.

وإنَّما كان العلمُ بالمنزلةِ التي هو بها لأنَّه قائدُ العملِ، فإذا استكثرَ المرءُ من العلمِ وتَخَلَّفَ عنه العملُ، كان العلمُ حُجَّةً عليه.

وقد أخرج الخطيب رَحِمَهُ اللهُ بسندِهِ عن سفيانَ بنِ عُيينةَ أنَّه قال:

«الْعِلْمُ إنْ لَمْ يَنْفَعْكَ، ضَرَّكَ.

قال الخطيب: يعني: إِنْ لَمْ يَنْفَعْهُ بأَنْ يعملَ به ضَرَّهُ بِكَوْنِهِ حُجَّةً عليهِ»[٢].

* * *

(١) «مختصر منهاج القاصدين» (ص٣٠٤).
(٢) «اقتضاء العلم العمل» (ص٥٦).

١١- التَّعَصُّبُ بالْهَوى، وَالتَّقْلِيدُ الأعمَى، وَتَحْكِيمُ آراءِ الرِّجَالِ

قد قضى اللَّه ﷻ قضاءً مُحْكَمًا نافذًا لا يُرَدُّ في شأنِ الذين أعرضوا عن حكم رسول اللَّه ﷺ فقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

«فقد أقسمَ اللَّهُ في هذه الآية الكريمةِ بنفسِهِ أنَّ هؤلاء لا يكونون مؤمنين أبدًا حتَّى يحكِّموا الرسولَ ﷺ فيما نَشِبَ بينهم من خصوماتٍ، ثمَّ لا يقابلوا حُكْمَهُ بالحرجِ وضيق الصدرِ، بل يرضوا به ويُذعِنُوا، وبعد وفاتِهِ ﷺ إنَّما يكونُ التَّحاكمُ إلى كتابِ اللَّهِ وسنَّة رسولِهِ، فلا يتمُّ إيمانُ أحدٍ حتَّى يُحكِّمَهما وحدَهما ويُسَلِّمَ للَّذي يحكمان به»[١].

قال العلَّامةُ ابنُ القيم- رحمه اللَّه تعالى-:

«قَدْ أَقْسَمَ اللَّهُ الْعَظِيمُ بِنَفْسِهِ ... قَسَمًا يُبِينُ حَقِيقَةَ الإيمَانِ
أَنْ لَيْسَ يُؤْمِنُ مَنْ يَكُونُ مُحَكِّمًا ... غَيْرَ الرَّسُولِ الوَاضِحِ الْبُرْهَانِ
بَلْ لَيْسَ يُؤْمِنُ غَيْرُ مَنْ قَدْ حَكَّمَ الْـ ... ـوَحْيَيْنِ حَسْبُ فَذَاكَ ذُو إِيمَانِ
هَذَا وَمَا ذَاكَ الْمحَكِّمُ مُؤْمِنًا ... إِنْ كَانَ ذَا حَرَجٍ وَضِيقِ بِطَانِ
هَذَا وَلَيْسَ بِمُؤْمِنٍ حَتَّى يُسَلْـ ... ـلِمَ لِلَّذِي يَقْضِي بِهِ الوَحْيَانِ

وقد كان التعصُّبُ لآراءِ الرِّجالِ سببًا في اختلافِ المسلمين فيما بينهم، وترتَّبَ على هذا الاختلاف كثيرٌ من الأذى يحلُّ بساحةِ مَنْ يصرِّحُ بمذهبِهِ أو يستعلنُ به، لذلك كانت شكوى الزمخشريِّ -عفا اللَّهُ عنه- أو قُلْ: صرخَتُهُ حادَّةً مُدَوِّيَةً، إذ يقول:

إذا سَأَلُوا عَنْ مَذْهَبي لَمْ أَبُحْ بِهِ ... وَأَكْتُمُه، كِتْمَانُهُ لِي أَسْلَمُ
فَإِنْ حَنَفِيًّا قُلْتُ، قَالُوا بِأَنَّنِي ... أُبِيحُ الطِّلا وهو الشَّرابُ المُحرَّمُ
وإن مَالِكيًّا قُلتُ؛ قالوا بِأَنَّنِي ... أُبِيحُ لَهم لحمَ الْكِلابِ وَهُمْ هُمُ

---

(١) «شرح القصيدة النونية» لابن القيم، شرح الدكتور محمد خليل هراس (١/ ٢٥٩).

وَإنْ شَافِعِيًّا قُلْتُ؛ قَالُوا بِأَنَّنِي أُبِيحُ نِكَاحَ البِنتِ، والبِنتُ تحرُمُ
وإن حَنبليًّا قُلتُ؛ قالوا بِأنَّنِي ثَقِيلٌ حُلُولِيٌّ بَغِيضٌ مُجَسِّمُ
وَإِنْ قُلْتُ مِنْ أَهلِ الحديثِ وَحِزْبِهِ يَقُولُونَ تَيْسٌ لَيْسَ يَدْرِي وَيَفْهَمُ
تَعجَّبْتُ منْ هَذَا الزَّمَانِ وَأهلِهِ فَمَا أَحَدٌ مِنْ أَلْسُنِ النَّاسِ يَسْلَمُ
وَأَخَّرَنِي دَهْرِي وَقَدَّمَ معشرًا عَلَى أَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ وَأَعْلَمُ[1]

وقد كان أصحابُ النَّبيِّ ﷺ قُدْوَةَ الْمُؤمنين من بعدِهم في اتِّبَاعِ النبيِّ ﷺ، وفي القَصِّ على أثرِهِ، وآثارُهم في ذلك ناطقةٌ بتحرِّيهم اتباعَ آثارِهِ، والسيرَ على منهاجِه، وكذلك كان التَّابعون لهم بإحسانٍ مِن بعدهم، وتابعو تابعيهم على منهاجهم، «ثمَّ خَلَفَ من بعدهم خُلُوفٌ فَرَّقُوا دينَهم وكانوا شِيَعًا كُلُّ حزبٍ بما لديهم فَرِحون، وتَقَطَّعوا أمرهم بيهم زُبُرًا[2] وكلٌّ إلى ربِّهم راجعون، جعلوا التعصُّبَ للمذاهبِ ديانتَهم التي بها يدينون، ورءوسَ أموالِهم التي بها يتَّجرُون، وآخرون منهم قَنَعُوا بمحضِ التقليدِ وقالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]. والفريقان بمعزل عمَّا ينبغي اتِّبَاعُهُ من الصوابِ، ولسانُ الحقِّ يتلو عليهم: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [النساء: ١٢٣].

قال الشافعيُّ -قدَّس اللَّهُ روحَه-: أَجْمَعَ المسلمون على أنَّ مَنْ استبانت له سُنَّةُ رسولِ اللَّهِ ﷺ لم يكن له أن يَدَعَهَا لقولِ أحَدٍ من الناسِ.

قال أبو عمر وغيرُهُ من العلماءِ: أَجْمَعَ النَّاسُ على أنَّ المقلِّدَ ليس معدودًا من أهلِ العلمِ، وأنَّ العلمَ معرفةُ الحقِّ بدليلِه، وهذا كما قال أبو عمر -رحمه اللَّهُ تعالى- فإنَّ النَّاسَ

---

(١) عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**قال اللَّهُ ﷻ: يُؤْذيني ابنُ آدم؛ يَسُبُّ الدهرَ، وأنا الدهرُ، بيدي الأمر، أقلِّبُ الليلَ والنَّهارَ**». أخرجه البخاري (٤٥٤٩)، ومسلم (٢٢٤٦).
ومعنى الحديث: أنا صاحب الدهر، ومدبر الأمور التي ينسبونها إلى الدهر، فمن سبَّ الدهرَ عاد سبُّه إلى ربِّ الدهر، فهو سبحانه خالق الدهر وما فيه، وقد بيَّن سبحانه أنَّه يقلِّب الليل والنهار، وهما الدهر، ولا يمكن أن يكون المقلِّبُ هو المقلَّبَ، فيمتنع أن يكون الدهر في هذا الحديث مرادًا به اللَّه تعالى. انظر: «المجلَّى في شرح القواعد المثلى» (ص٦٦)، و«معجم المناهي اللفظية» (ص١٦٤).

(٢) زُبُرًا: قطعًا، أي: فِرقًا وطوائف، متفرقين لا مجتمعين.

لا يختلفون أنَّ العلمَ هو المعرفةُ الحاصلةُ عن الدليلِ، وأمَّا بدونِ الدليلِ فإنَّما هو تقليدٌ.

فقد تضمَّنَ هذان الإجماعان إخراجَ المتعصِّبِ بالهوى والمقلِّدِ الأعمى عن زمرةِ العلماءِ، وسقوطَهما باستكمالِ مَنْ فوقَهما الفروضَ من ورثةِ الأنبياءِ، فإنَّ العلماءَ هم ورثةُ الأنبياءِ، فإنَّ الأنبياءَ لم يُورِّثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنَّما ورَّثوا العلمَ، فمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ، وكيف يكون من ورثةِ الرسولِ ﷺ مَنْ يجهدُ ويكدحُ في ردِّ ما جاء به إلى قولِ مُقَلَّدِهِ ومتبوعِهِ؟!، ويُضَيِّعُ ساعاتِ عُمُرِهِ في التعصُّبِ والهوى ولا يشعر بتضييعه؟!

تاللَّهِ إنَّها فتنةٌ عمَّتْ فأعمَتْ، ورَمَتِ القلوبَ فَأَصْمَّتْ -أي: أصابت مقتلًا- رَبَا عليها الصغيرُ، وهَرَم عليها الكبيرُ، واتُّخِذَ لأجلها القرآنُ مهجورًا، وكان ذلك بقضاءِ اللَّهِ وقدرِهِ في الكتابِ مسطورًا، ولمَّا عمَّت بها الْبَلِيَّةُ، وَعظمت بِسببِها الرَّزِيَّةُ، بحيث لا يعرف أكثرُ النَّاسِ سواها، ولا يعدُّ العلمَ إلا إياها، فَطَالِبُ الحقِّ من مَظَانِّهِ لديهم مفتونٌ، ومُؤْثِرُهُ على ما سواه عندهم مغبونٌ، نَصبوا لِمَنْ خَالَفَهُمْ في طريقتِهِم الحبائلَ، وَبَغَوا له الغوائِلَ، ورَمَوْهُ عن قوسِ الجهلِ والبغي والعنادِ، وقالوا لإخوانهم: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

فحقيقٌ بمَنْ لنفسِهِ عنده قَدْرٌ وقيمَةٌ ألا يلتفتَ إلى هؤلاء ولا يرضى بما لديهم، وإذا رُفِعَ له عَلَمُ السنَّةِ شَمَّرَ إليه ولم يحبس نفسَه عليهم، فما هي إلا ساعةٌ حتَّى يُبَعْثَرَ ما في القبورِ، ويُحَصَّلَ ما في الصدورِ، وتتساوى أقدامُ الخلائقِ في القيامِ للَّهِ، وينظرُ كلُّ عبدٍ ما قدَّمَتْ يداه، ويقعُ التمييزُ بين المحقِّين والمبطلين، ويعلمَ المعرضون عن كتابِ ربِّهم وسنَّةِ نبيِّهم أنَّهم كانوا كاذبين»[1].

وقد يُفْهمُ من الحضِّ على اتباعِ الوحيين والتَّمسُّكِ بهما وصرفِ النَّفس عمَّا سواهما، قد يُفهم من ذلك الدعوةُ إلى إهدارِ أقوالِ العلماءِ والصَّدِّ عن آثارهم ومحادَدَةِ أقوالهم. ولكنَّ ذلك ليسَ مقصودًا ولا مُرَادًا، بل يجب التفريق بين تجريدِ المتابعةِ للنَّبيِّ ﷺ، وإهدارِ أقوالِ العلماءِ.

---

(١) «إعلام الموقعين» لابن القيم (١/ ٧).

* «الفَرْقُ بَيْن تَجْرِيدِ الْمُتَابَعَةِ للْمَعْصُومِ ﷺ وإهْدَارِ أقْوَالِ الْعُلَمَاءِ وَإِلْغَائِهَا»:

الفرقُ بينهما: أنَّ تجريدَ المتابعةِ ألا تُقَدِّمَ على ما جاءَ به قولَ أحدٍ ولا رَأْيَهُ كائنًا مَنْ كان، بل تنظرُ في صحةِ الحديثِ أولًا، فإذا صَحَّ لك، نظرتَ في معناه ثانيًا، فإذا تبيَّنَ لك، لم تَعْدِلْ عنه ولو خالفك مَنْ بَيْنَ المشرِقِ والمغربِ.

ومعاذَ اللَّهِ أن تَتَّفِقَ الأمَّةُ على مخالَفَةِ ما جاء به نبيُّها، بل لابدَّ أن يكونَ في الأمَّةِ مَنْ قال به، ولو لم تعلمه، فلا تجعل جَهْلَكَ بالقائلِ حُجَّةً على اللَّهِ ورسولِهِ، بل اذهبْ إلى النَّصِّ ولا تضعُفْ واعلم أنَّه قد قالَ به قائلٌ قطعًا ولكن لم يصل إليك.

هذا مع حفظِ مراتبِ العلماءِ وموالاتِهم واعتقادِ حُرْمَتِهم وأمانتِهم واجتهادِهم في حفظِ الدِّينِ وضبطِهِ، فهم دائرون بين الأجرِ والأجرين والمغفرةِ، ولكن لا يُوجبُ هذا إهدارَ النصوصِ وتقديمَ قولِ الواحدِ منهم عليها بشُبهةِ أنَّهُ أعلمُ بها منك، فإن كان كذلك فَمَنْ ذَهَبَ إلى النَّصِّ أعلمُ منك، فَهَلَّا وَافَقْتَهُ إن كنتَ صادقًا؟!

فمَنْ عَرَضَ أقوالَ العلماءِ على النصوصِ وَوَزَنَهَا بها وخالفَ منها ما خالَفَ النَّصَّ لم يُهدرِ أقوالهم ويهضم جانبَهم، بل اقتدى بهم فإنَّهم كلَّهم أَمروا بذلك، فمتَّبِعُهم حَقًّا مَن امتثلَ ما أَوْصَوْا به لا مَنْ خالفهم، فخلافُهم في القولِ الذي جاء النَّصُّ بخلافِهِ أسهلُ من مخالفتهم في القاعدةِ الكليَّةِ التي أَمَرُوا بها، وَدَعَوا إليها من تقديمِ النَّصِّ على أقوالِهم.

ومن هنا يتبيَّن الفرقُ بين تقليدِ العالِمِ في كلِّ ما قال وبين الاستعانةِ بفهمِهِ والاستضاءةِ بنورِ علمِهِ، فالأولُ يأخذُ قولَهُ من غير نظرٍ فيه ولا طلبٍ لدليلِهِ من الكتابِ والسُّنَّةِ، بل يجعل ذلك كالحبلِ الذي يُلْقيه في عنقِهِ يقلِّده به، ولذلك سُمِّيَ تقليدًا، بخلافِ مَن استعانَ بفهمِهم واستضاءَ بنورِ علمهم في الوصولِ إلى الرسولِ- صلواتُ اللَّهِ وسلامُهُ عليه-، فإنَّه يجعلهم بمنزلةِ الدليلِ الأولِ، فإذا وصل إليه استغنى بدلالتِهِ من الاستدلال بغيرِه، فَمَنْ استدلَّ بالنجم على القِبْلَةِ فإنَّه إذا شاهدها لم يبق لاستدلالهِ بالنجمِ معنًى.

قال الشافعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: أجمعَ النَّاسُ على أنَّ مَن استبانت له سُنَّةُ رسولِ اللَّهِ ﷺ لم يكن له أن يدَعَها لقولِ أحد»[1].

* «**الفَرْقُ بَيْنَ الْحُكْمِ الْمُنَزَّلِ الْوَاجِبِ الاتِّبَاعِ، والْحُكْمِ الْمُؤَوَّلِ**:

الفرقُ بينهما: أنَّ الحكمَ المنزَّل هو الذي أنزله اللَّهُ على رسولِهِ وحَكَمَ به بين عبادِهِ، وهو حَكمُهُ الذي لا حُكْمَ له سواه.

وأمَّا الحُكْمُ المُؤَوَّلُ فهو أقوالُ المجتهدين المختلفةُ التي لا يجب اتباعها ولا يكفر ولا يفسقُ مَنْ خالفها، فإنَّ أصحابَهَا لم يقولوا: هذا حُكمُ اللَّهِ ورسولِهِ، بل قالوا: اجتهدنا برأينا فمَنْ شاء قَبِلَهُ وَمَنْ شَاءَ لم يقبله، ولم يُلزموا به الأمَّةَ بل قال أبو حنيفةَ: هذا رأيي فَمَنْ جاء بخيرٍ منه قبلناه.

وكذلك مالكٌ استشاره الرشيدُ أن يحملَ النَّاس على ما في «الموطَّأ» فمنعه من ذلك وقال: قد تفرَّقَ أصحابُ رسولِ اللَّهِ ﷺ في البلادِ وصارَ عند كُلِّ قومٍ علمٌ غيرَ ما عندَ الآخرين.

وهذا الشافعيُّ ينهى أصحابَهُ عن تقليده ويوصيهم بتركِ قولِهِ إذا جاء الحديثُ بخلافِهِ.

وهذا الإمامُ أحمدُ يُنْكِرُ على مَنْ كَتَبَ فتاواه وَدَوَّنها، ويقول: لا تقلِّدني، ولا تقلِّد فلانًا وفلانًا، وخُذْ من حيث أخذوا.

ولو عَلِمُوا رضي الله عنهم أنَّ أقوالَهم يجبُ اتِّبَاعُهَا لحرَّموا على أصحابِهِم مخالفتَهم ولما ساغَ لأصحابِهم أن يُفتوا بخلافهم في شيءٍ ولما كان أحدُهم يقولُ القولَ ثم يُفتي بخلافِهِ، فيُروى عنه في المسألةِ القولان والثلاثةُ وأكثرُ من ذلك، فالرأيُ والاجتهادُ أحسنُ أحوالِهِ أن يسوغَ اتباعُه، والحُكم المنَزَّلُ لا يحلُّ لمسلمٍ أن يخالفَهُ ويخرجَ عنه»[2].

---

(١) «الروح» لابن القيم (ص٣٥٦).
(٢) «الروح» لابن القيم (ص٣٦٠).

*** حِرْصُ الأَئِمَّةِ عَلَى رَدِّ الأَتْبَاعِ إِلَى الدَّلِيلِ:**

لقد كان الأئمةُ المتَّبَعُونَ ﷺ يحرصون غايةَ الحرصِ على رَدِّ أتباعِهم عن اتِّباعهم من غير أن يعرفوا دليلَهم، وصرَّحوا- رضوان اللَّهِ عليهم- في مواطنَ كثيرةٍ بأنَّ مذهبَهم هم أنفسُهم هو ما صَحَّ من الحديثِ.

وقد ساق الشيخُ الألبانيُّ في «صفة صلاة النبي ﷺ» (ص١٩)، أقوالًا كثيرةً للأئمةِ الأربعةِ -رحمهم اللَّه- في وجوبِ اتباعِ النبيِّ ﷺ وتركِ كُلِّ مَنْ خَالَفَهُ كائِنًا مَنْ كان نسوقُ منها بعضَهَا:

«فأَمَّا أبو حنيفةَ النعمانُ بنُ ثابتٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، فقد روى عنه أصحابُهُ أقوالًا شتَّى وعباراتٍ متنوِّعةً، كلُّها تؤدِّي إلى شيءٍ واحدٍ، وهو وجوبُ الأخذِ بالحديثِ، وتركِ تقليدِ آراءِ الأئمةِ المخالفةِ له- أي: للحديثِ-:

١- إذا صحَّ الحديثُ فهو مذهبي.

٢- لا يحلُّ لأحدٍ أن يأخذَ بقولنا، ما لم يعلم من أين أخذناه.

٣- إذا قلتُ قولًا يخالفُ كتابَ اللَّهِ تعالى وخَبَرَ الرسولِ ﷺ، فاتركوا قولِي.

وأما الإمام مالكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ فقال:

١- إنَّما أنا بَشَرٌ أُخطِئُ وأصيبُ، فانظروا في رأيي فكلُّ ما وافق الكتابَ والسنَّةَ فخذوه، وكلُّ ما لم يوافق الكتابَ والسُّنَّةَ فاتركوه.

٢- ليس أحدٌ بعد النبيِّ ﷺ إلا يُؤْخَذُ من قولِهِ ويُتْرَكُ، إلا النبي ﷺ.

٣- قال ابنُ وهبٍ: سمعتُ مالكًا سُئِلَ عن تخليلِ أصابعِ الرِّجْلين في الوضوءِ، فقال: ليس ذلك على النَّاسِ، قال: فتركته حتَّى خَفَّ النَّاسُ، فقلتُ له: عندنا في ذلك سُنَّةٌ، فقال: وما هي؟ قلتُ: حدثنا الليثُ بن سعد وابن لهيعة وعمرو بن الحارث عن يزيد بن عمر المعافري عن أبي عبد الرحمن الحبلي عن المستوردِ بن شدَّادٍ القرشيِّ قال: رأيتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يَدْلُك بخنصرِهِ ما بين أصابعِ رجليه، فقال: إنَّ هذا حديثٌ حَسَنٌ،

وما سمعتُ به قطُّ إلا السَّاعةَ، ثمَّ سمعتُهُ بعد ذلك يُسْأَلُ، فيأمرُ بتخليلِ الأصابعِ.

وأمَّا الإمام الشافعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، فالنقولُ عنه في ذلك أكثرُ وأطيبُ، وأتباعُهُ أكثرُ عملًا بها وأسعدُ، فمنها:

١- ما مِنْ أحدٍ إلا وتذهبُ عليه سُنَّةٌ لرسولِ اللَّهِ ﷺ وتَعْزُبُ عنه، فمهما قلتُ من قولٍ، أو أَصَّلْتُ من أصلٍ فيه عن رسولِ اللَّهِ ﷺ خلافُ ما قلتُ، فالقولُ ما قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ وهو قولِي.

٢- كلُّ مسألةٍ صَحَّ فيها الخبرُ عن رسولِ اللَّهِ ﷺ عند أهلِ النَّقْلِ بخلافِ ما قلتُ، فأنا راجعٌ عنها في حياتي وبعد مماتي.

٣- إذا صحَّ الحديثُ فهو مذهبي.

٤- أجمعَ المسلمونَ على أنَّ مَن استبانَ له سُنَّةٌ عن رسولِ اللَّهِ ﷺ لم يحلَّ له أن يَدَعَها لقولِ أحدٍ.

وأمَّا الإمامُ أحمدُ فهو أكثرُ الأئمةِ جمعًا للسنَّةِ وتمسكًا بها، حتَّى كان- كما قال ابنُ الجوزي- يَكْرَهُ وَضْعَ الكتبِ التي تشتملُ على التفريعِ والرأي، ولذلك قال:

١- لا تقلِّدني ولا تقلِّد مالكًا ولا الشافعيَّ ولا الأوزاعيَّ ولا الثوريَّ وخُذْ من حيث أخذوا.

٢- رأيُ الأوزاعيِّ ورأيُ مالكٍ ورأيُ أبي حنيفةَ كُلُّه رأيٌ، وهو عندي سواءٌ، وإنَّما الحُجَّةُ في الآثارِ.

٣- مَنْ رَدَّ حديثَ رسولِ اللَّهِ ﷺ فهو على شَفَا هَلَكَةٍ.

تلك هي أقوالُ الأئمَّةِ الأربعةِ- رضي اللَّه تعالى عنهم- في الأمرِ بالتمسُّكِ بالحديثِ، والنهي عن تقليدهم دون بصيرةٍ، وهي من الوضوحِ والبيانِ بحيث لا تقبلُ جَدَلًا ولا تأويلًا، وعليه فإنَّ مَنْ تَمَسَّكَ بِكلِّ ما ثبتَ من السنَّةِ ولو خَالَفَ بعضَ أقوالِ الأئمةِ، لا يكون مُبَايِنًا لمذهبِهم، ولا خارجًا عن طريقتِهم، بل هو مُتَّبِعٌ لهم جميعًا،

ومتمسِّكٌ بالعُرْوَةِ الوثقى التي لا انفصام لها، وليس كذلك مَنْ تَرَكَ السُّنَّةَ الثابتَةَ لمجرَّدِ مخالفتَها لقولِهم، بل هو بذلك عاصٍ لهم، ومخالِفٌ لأقوالِهم المتقدِّمَةِ، واللَّهُ تعالى يقولُ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]. ويقول تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]» اهـ.

*** بَيَانُ فَسَادِ التَّقْلِيدِ، والْفَرْقِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الاتِّبَاعِ:**

قال ابنُ عبدِ البرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ **في «الجامع» (٢/ ١٠٩)**: «قال اللَّه عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣، ٢٤].

فَمَنَعَهُم الاقتداءُ بآبائهم من قبولِ الاهتداءِ فقالوا: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾.

وفي هؤلاء وأمثالِهم قال اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢]. وقال: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧]. وقال عَزَّ وَجَلَّ عائبًا لأهل الكفرِ وذامًّا لهم: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٢، ٥٣]. وقال: ﴿إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٧].

ومثلُ هذا في القرآنِ كثيرٌ من ذمِّ تقليدِ الآباءِ والرُّؤَسَاءِ، وقد احتجَّ العلماءُ بهذه الآياتِ في إبطالِ التقليدِ، ولم يمنعهم كُفْرُ أولئك من الاحتجاجِ بها، لأنَّ التشبيه لم يقع من جهةِ كُفْرِ أحدهما وإيمانِ الآخرِ، وإنَّما وقعَ التشبيهُ بين التقليدين بغيرِ حُجَّةٍ للمقلِّدِ، كما لو قَلَّدَ رجلٌ فكفرَ، وقَلَّدَ آخرُ فأذنبَ، وقَلَّدَ آخرُ في مسألة دنياه فأخطأ وَجْهَهَا، كان كلُّ واحدٍ ملومًا على التقليدِ بغيرِ حُجَّةٍ، لأنَّ كلَّ ذلك تقليدٌ يُشْبِهُ بعضُهُ بعضًا، وإن اختلفت الآثامُ فيه.

وقال اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا

يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥].

فإذا بَطَلَ التقليدُ بكلِّ ما ذكرنا، وَجَبَ التسليمُ للأصولِ التي يجب التسليمُ لها، وهي: الكتابُ والسُّنَّةُ، أو ما في معناهما بدليلٍ جامعٍ بين ذلك.

قال أبو عمر رَحِمَهُ اللَّهُ: يُقال لمنْ قالَ بالتقليد: لِمَ قُلْتَ به وَخَالَفْتَ السَّلَفَ في ذلك فإنَّهم لم يُقَلِّدوا؟ فإن قال: قَلَّدتُ لأنَّ كتابَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لا علمَ لي بتأويلِه، وسنَّةَ رسولِهِ لم أحصها، والذي قلَّدتُه قد عَلِمَ ذلك، فقلَّدتُ مَنْ هو أعلمُ مني.

قيل له: أمَّا العلماءُ إذا اجتمعوا على شيءٍ من تأويل الكتاب، أو حكاية سنةٍ عن رسول اللَّه ﷺ، أو اجتمع رأيهم على شيء فهو الحقُّ لا شكَّ فيه، ولكن قد اختلفوا فيما قلَّدتَ فيه بعضَهم دون بعضٍ، فما حُجَّتُك في تقليدِ بعضٍ دون بعضٍ وكلُّهم عالمٌ، ولعلَّ الذي رَغِبْتَ عن قولِهِ أعلمُ من الذي ذهبتَ إلى مذهبِهِ؟

فإن قال: قلَّدتُه لأنِّي علمتُ أنَّه صوابٌ.

قيل له: علمتَ ذلك بدليلٍ من كتابٍ أو سنةٍ أو إجماعٍ؟

فإن قال: نعم. فقد أبْطَلَ التقليدَ وطُولِبَ بما ادَّعاه من الدليلِ.

وإن قال: قلَّدتُه لأنه أعلمُ منِّي.

قيل له: فقلِّد كلَّ مَنْ هو أعلمُ منك، فإنَّك تجد من ذلك خَلْقًا كثيرًا، ولا تخُصَّ مَنْ قَلَّدتَه، إذ عِلَّتُكَ فيه أنَّه أعلمُ منك.

فإن قال: قلَّدته لأنَّه أعلمُ النَّاسِ.

قيل له: فهو -إذن- أعلمُ من الصحابةِ، وكفى بقولِ مثلِ هذا قُبْحًا.

وإن قال: إنَّما أُقَلِّدُ بعضَ الصحابةِ.

قيل له: فما حُجَّتُك في ترْكِ مَنْ لم تقلِّد منهم؟ ولعلَّ مَنْ تركتَ قولَه منهم أفضل ممَّنْ أخذتَ بقولِه على أنَّ القولَ لا يصحُّ لِفَضْلِ قائِلِهِ وإنَّما يصحُّ بدلالةِ الدليلِ فيه». اهـ.

وقال العلَّامةُ ابنُ القيمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يُقالُ للمُقَلِّدِ: بأيِّ شيءٍ عرفْتَ أنَّ الصوابَ مع مَنْ قلَّدتَه دون مَنْ لا تقلِّدُه؟ فإن قال: عرفتُ بالدليلِ، فليس بمقلِّدٍ، وإن قال: عرفتُه تقليدًا له، فإنَّه أفتى بهذا القولِ وَدَانَ به وعَلِمَهُ، ودينُهُ وحُسْنُ ثناءِ الأمَّةِ عليه مَنَعَهُ أن يقولَ غيرَ الحقِّ، قيل له: فمعصومٌ هو عندك، أم يجوز عليه الخطأ؟ فإن قال بعصمتِهِ أبْطَلَ وإن جَوَّزَ عليه الخطأَ، قيل له: فما يُؤَمِّنُكَ أنَّه قد أخطأ فيما قلَّدتَه فيه وخالفه فيه غيرُهُ؟ فإن قال: وإن أَخْطَأَ فهو مأجورٌ، قيل: أَجَلْ، هو مأجورٌ لاجتهادِهِ، وأنتَ غيرُ مأجورٍ لأنَّك لم تأتِ بموجبِ الأجرِ، بل قد فرَّطتَ في اتِّباعِ الواجبِ فأنتَ إذن مأزورٌ.

فإن قال: كيف يأجرُهُ اللَّهُ تعالى على ما أفتى به ويمدحُهُ عليه، ويذمُّ المستفتي على قولِهِ، وهل يُعقلُ هذا؟!

قيل له: المستفتي إنْ هو قصَّرَ وفَرَّطَ في معرفةِ الحقِّ مع قدرتِهِ عليه لَحِقَهُ الذَّمُّ والوعيدُ، وإن بَذَلَ جُهْدَهُ، ولم يقصِّر فيما أُمِرَ به واتقى اللَّهَ ما استطاعَ فهو مأجورٌ -أيضًا-.

وأمَّا المتعصِّبُ الذي جَعَلَ قولَ متبوعِهِ عِيَارًا على الكتابِ والسنَّةِ وأقوالِ الصحابةِ يَزِنُها به، فما وَافَقَ قولَ متبوعِهِ منها قَبِلَه، وما خالفه رَدَّهُ، فهذا إلى الذَّمِّ والعقابِ أقربُ منه إلى الأجرِ والثوابِ.

وإن قال- وهو الواقعُ-: اتَّبَعْتُه وَقلَّدتُه ولا أدري على صوابٍ هو أم لا؟ والعُهْدَةُ على القائلِ، وأنا حاكٍ لأقوالِهِ.

قيل له: فهل تتخلَّصُ بهذا من اللَّهِ تعالى عند السؤالِ لك عمَّا حَكَمْتَ به بين عبادِ اللَّهِ وأفتيتَهم به؟؟ فواللَّه إنَّ للحكَّامِ والمفتين لموقفًا للسؤالِ لا يتخلَّصُ فيه إلا مَنْ عرفَ الحقَّ وحكمَ به، وعرفه وأفتى به، وأمَّا مَنْ عَدَاهُمَا فسيعلمُ عند انكشافِ الحالِ أنَّه لم يكن على شيءٍ»[1].

والأئمةُ أنفسُهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لم يتعمَّدْ واحدٌ منهم مخالفةَ النبيِّ ﷺ في شيءٍ ممَّا ثبتَ عنه،

(١) «إعلام الموقعين» لابن القيم (٢/ ٢٣٢).

وحاشى للَّهِ أن يفعلوا، بل كلُّهم قد صرَّحَ ﷺ أنَّه إذا صحَّ الحديثُ فهو مذهبُه، وأنَّه إذا خَالَفَ ما ثبتَ عن النبيِّ ﷺ في مسألةٍ فهو راجعٌ عنها حيًّا وميِّتًا.

والمخالفةُ إن وقعت فإنَّما تقع لأعذارٍ بيَّنها شيخُ الإسلامِ ابن تيميَّةَ في رسالته: «رفع الملام عن الأئمة الأعلام» (ص١٢)، فقال: «وَلْيُعْلَمْ أنَّه ليس أحدٌ من الأئمةِ -المقبولين عند الأمَّةِ قبولًا عامًّا- يتعمَّدُ مخالفةَ رسولِ اللَّهِ ﷺ في شيءٍ من سُنَّتِهِ، دقيقٍ ولا جليلٍ، فإنَّهم متَّفقون اتفاقًا يقينيًّا على وجوبِ اتِّباعِ الرسولِ ﷺ، وعلى أنَّ كلَّ أحدٍ من النَّاسِ يُؤْخَذُ من قولِهِ ويُتْرَكُ إلا رسول اللَّه ﷺ، ولكن إذا وُجِدَ لواحدٍ منهم قولٌ، قد جاء حديثٌ صحيحٌ بخلافِهِ فلابُدَّ له من عُذْرٍ في تَرْكِهِ.

وجميعُ الأعذارِ ثلاثةُ أصنافٍ:

أحدها: عدمُ اعتقادِ أنَّ النبيَّ ﷺ قَالَهُ.

الثاني: عدمُ اعتقادِهِ إرادَة تلك المسألةِ بذلك القولِ.

والثالثُ: اعتقادُهُ أنَّ ذلك الحكم منسوخٌ».

فالسلامةُ في التسليمِ للكتابِ والسنَّةِ ظاهرًا وباطنًا، وفي قبولِ الحقِّ بدليله، لا في الأخذِ بأقوالِ الرجالِ، والتعصُّبِ لمقدَّراتِ الأذهانِ، والضَّربِ في بيداءِ الفروضِ وعالَمِ الأوهامِ.

*** شُبْهَةٌ وَجَوَابُهَا:**

وقد يقولُ قائلٌ: إنَّ في إهدارِ التقليدِ تكليفًا للنَّاسِ بما لا يطيقون، فليس كلُّ النَّاسِ عَالِمًا، وليس كلُّهم قادرًا على الاستنباطِ والاستدلالِ والنَّظَرِ في الدليلِ.

*** وجوابُ هذا من وجوهٍ:**

أحدُهَا: أنَّ مِنْ رحمةِ اللَّهِ- سبحانه- بنا ورأفتِهِ أنَّه لم يكلِّفنا بالتقليدِ، فلو كَلَّفَنَا به لضاعت أمورُنَا، وفسدت مصالحُنَا، لأنَّا لم نكن ندري مَنْ نُقَلِّدُ من المفتين والفقهاءِ، وهم عَدَدٌ فوق المئين، ولا يدري عددَهم في الحقيقةِ إلا اللَّهُ، فإنَّ المسلمين قد مَلَئُوا الأرضَ

شرقًا وغربًا وجنوبًا وشمالًا، وانتشرَ الإسلامُ -بحمدِ اللَّهِ وفضلِهِ- وبَلَغَ ما بَلَغَ الليلُ.

فلو كَلَّفَنَا بالتقليدِ لوقَعْنَا في أعظمِ العَنَتِ والفسادِ، ولكَلَّفَنَا بتحليلِ الشيءِ وتحريمِهِ، وإيجابِ الشيءِ وإسقاطِهِ معًا إن كلَّفَنَا بتقليدِ كلِّ عالِمٍ، وإن كَلَّفَنَا بتقليدِ الأعلمِ فالأعلمِ فمعرفةُ ما دلَّ عليه القرآنُ والسُّنَنُ من الأحكامِ أسهلُ بكثيرٍ من معرفةِ الأعلمِ الذي اجتمعت فيه شروطُ التقليدِ، ومعرفةُ ذلك مَشَقَّةٌ على العالمِ الراسخِ فضلًا عن المقلِّدِ الذي هو كالأعمى، وإن كلَّفَنَا بتقليدِ البعضِ وكان جعل ذلك إلى تَشَهِّينا واختيارنا صار دينُ اللَّهِ تبعًا لإرادتِنا واختيارِنا وشهواتِنا، وهو عينُ المحالِ، فلابُدَّ أن يكون ذلك راجعًا إلى مَنْ أَمَرَ اللَّهُ باتباعِ قولِهِ وتَلَقِّي الدينِ من بين شفتيه، وذلك محمَّدُ بنُ عبدِ اللَّهِ بن عبدِ المطلب رسولُ اللَّهِ وأمينُهُ على وَحْيِهِ وحُجَّتُهُ على خَلْقِهِ، ولم يَجْعَلِ اللَّهُ هذا الْمَنْصَبَ لسواه بعده أبدًا.

الثاني: أنَّ بالنَّظَرِ والاستدلال صلاحَ الأمورِ لا ضياعَهَا، وبإهمالِهِ وتقليدِ مَنْ يُخْطِئُ ويصيبُ إضاعتها وفسادها كما الواقعُ شاهدٌ به.

الثالث: أنَّ كلَّ واحدٍ منَّا مأمورٌ بأن يُصَدِّقَ الرسولَ ﷺ فيما أَخْبَرَ به، ويطيعَهُ فيما أَمَرَ، وذلك لا يكونُ إلا بعدَ معرفةِ أمرِهِ وخبرِهِ، ولم يُوجب اللَّهُ -سبحانه- من ذلك على الأمةِ إلا ما فيه حِفْظُ دينِها ودنياها، وصلاحها في معاشها ومعادها، وبإهمال ذلك تضيع مصالحها وتفسد أمورها؛ فما خرابُ العالِم إلا بالجهل ولا عمارتهُ إلا بالعلم، وإذا ظَهَرَ العلمُ في بلدٍ أو محلَّةٍ قلَّ الشرُّ في أهلها، وإذا خَفِيَ العلمُ هناك ظَهَرَ الشَّرُّ والفساد، ومَنْ لم يعرف هذا فهو مِمَّنْ لم يجعل اللَّه له نورًا.

قال الإمامُ أحمدُ: ولولا العلمُ كان النَّاسُ كالبهائمِ.

وقال: النَّاسُ أحوجُ إلى العلمِ منهم إلى الطعامِ والشرابِ؛ لأنَّ الطعامَ والشرابَ يُحْتَاجُ إليه في اليومِ مرتين أو ثلاثًا، والعلمُ يُحتاجُ إليه في كلِّ وقتٍ»[1].

(١) في رواية للإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «النَّاسُ إلى العلمِ أحوجُ منهم إلى الطعام والشراب؛ لأنَّ الرَّجُلَ يحتاج إلى الطعام والشرابِ في اليوم مرَّة أو مرتين، وحاجته إلى العلمِ بعدَدِ أنفاسِهِ».

الرابع: أنَّ الواجبَ على كلِّ عبدٍ أن يعرفَ ما يخصُّه من الأحكام، ولا يجبُ عليه أن يعرفَ ما لا تدعوه الحاجةُ إلى معرفتِهِ، وليس في ذلك إضاعةٌ لمصالحِ الخلقِ ولا تعطيلٌ لمعاشِهِم، فقد كان الصحابةُ ﷺ قائمين بمصالحِهِم ومعاشِهِم وعِمَارَةِ حروثِهم والقيامِ على مواشِيهِم، والضَّرْبِ في الأرضِ لمتاجِرِهِم والصَّفقِ بالأسواقِ، وهم أهدى العلماءِ الذين لا يُشَقُّ في العلمِ غُبارُهُم.

الخامس: أنَّ العلمَ النافعَ هو الذي جاء به الرسولُ ﷺ دون مُقَدَّراتِ الأذهانِ ومسائلِ الخَرْصِ والألغازِ، وذلك -بحمدِ اللَّهِ تعالى- أيسرُ شيءٍ على النفوسِ تحصيلُهُ وحفظُهُ وفهمُهُ، فإنَّه كتابُ اللَّهِ الذي يَسَّرَهُ للذِّكْرِ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٢٢].

قال البخاريُّ في «صحيحه»: قال مطرٌ الورَّاقُ: هَلْ مِنْ طَالِبِ علمٍ فيُعَانَ عليه؟! ولم يقل: فتضيعَ عليه مصالحُهُ وتتعطَّلَ معايشُهُ عليه، وسنَّةُ رسولِهِ ﷺ وهي -بحمد اللَّه تعالى- مضبوطةٌ محفوظةٌ، وأصولُ الأحكامِ التي تدورُ عليها نحو خمسمائة حديثٍ، وفرشها وتفاصيلها نحو أربعَة آلافِ حديثٍ.

وإنَّما الذي هو في غايةِ الصعوبةِ والمشقَّةِ: مُقَدَّراتُ الأذهانِ، وأُغلُوطَاتُ[1] المسائِلِ، والفروعُ والأصولُ التي ما أنزلَ اللَّهُ بها من سلطانٍ، التي كلُّ مالِهَا في نموٍّ وزيادةٍ وتوليدٍ، والدينُ كلُّ مالِهِ في غُرْبَةٍ ونقصانٍ، واللَّهُ المُستعانُ»[2].

فالواجبُ على كُلِّ مسلمٍ: أن يأخذَ الحقَّ بدليلِه، وأن يَدَعَ التعصُّبَ والتقليدَ جانبًا، فالخيرُ كلُّ الخيرِ في الاتباعِ، والشَّر كُلُّ الشَّر فيما أحدثَ الأتباعُ.

* * *

(١) الأُغْلُوطاتُ: واحدُها أُغْلُوطَةٌ- وزنها أُفْعُولَةٌ- من الغَلَطِ كالأُحْمُوقَةِ من الحمقِ، والأُسطُورةِ من السَّطْرِ.
(٢) «إعلام الموقعين» (٢/ ٢٥٦).

١٢- التَّسَرُّعُ فِي الْفَتْوَى

كان إمامُ الأنبياءِ، وصفوةُ الأتقياءِ، وأُسْوَةُ الأولياءِ، وخلاصةُ الأصفياءِ، محمدٌ ﷺ إذا وَرِدَ عليه ما ليس عنده من ربِّه علمٌ به توقَّفَ فيه حتَّى يأتيَهُ من ربِّه به خَبَرٌ.

وكذلك كان أمينُ الوحي جبريلُ ﷺ، والملائكةُ المكرمون، لا يتكلَّمون إلا فيما لهم به علمٌ.

أخرج الإمامُ أحمدُ في «مسندِهِ» عن مُحَمَّدِ بنِ جُبيرِ بنِ مُطْعِمٍ عن أبيهِ: أَنَّهُ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أيُّ البُلْدَانِ شَرٌّ؟ قال: فَقَالَ: «**لَا أَدْرِي**». فَلَمَّا أَتَاهُ جِبْرِيلُ ﷺ قَالَ: «**يَا جِبْرِيلُ: أَيُّ الْبُلْدَانِ شَرٌّ؟**». قالَ: لا أَدْري، حتَّى أسألَ رَبِّي ﷻ، فانْطَلَقَ جِبْرِيلُ ﷺ ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَمْكُثَ، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: يَا محمَّدُ، إِنَّكَ سَأَلْتَنِي: أَيُّ الْبُلْدَانِ شَرٌّ، فَقُلْتُ: لا أدري. وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي ﷻ: أَيُّ الْبُلْدَانِ شَرٌّ؟ فَقَالَ: «**أَسْوَاقُهَا**». قال الألبانيُّ في «صفة الفتوى والمفتي والمستفتي» (ص٩): وقد رواه الحاكمُ (٢/ ٦) بسندٍ حَسَنٍ.

فيا للَّه! ما أجلَّ مقامَ «لا أدري»!! فهذا هو النَّبيُّ ﷺ وهو مَنْ هو يجيب عن سؤالِ جُبَيْرِ بنِ مُطْعِمٍ ﷺ: أيُّ الْبُلْدَانِ شَرٌّ؟ بقوله ﷺ: «**لَا أَدْرِي**».

وكذلك صَنَعَ أمينُ الوحي جبريلُ ﷺ، وما نَطَقَ في الإجابةِ بحرفٍ حتى سأل ربَّه ﷻ.

والملائكةُ المُكْرَمُون يتوقَّفون عند حدودِ ما عُلِّموا لا يتقدَّمون، فإنهم لمَّا سألهم ربُّهم ﷻ: ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۝٣١ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣١، ٣٢].

فأيُّ ضَيْرٍ على الرجلِ إذا سُئِلَ عن شيء لا يعلمهُ أن يقولَ: لا أعلمه؟! أو عن أمرٍ لا يدريه، أن يقول: لا أدريه؟ وإمامُهُ في ذلك رسولُ اللَّهِ ﷺ وجبريلُ والملائكةُ المُكْرَمُون، والتزامُ الأصحابِ ﷺ هذا النَّهْجَ لا يَفْتُرُون عن الأخذِ به، ولا عنه يحيدون، ولا يتكلَّفون ما لا يُحسنون، ولا يتجمَّلون بما لا يملكون.

«روى مجاهدٌ عن عائِشةَ ﵂ أنَّه لمَّا نزلَ عُذْرُهَا قَبَّلَ أبو بكرٍ رأسَها، قالت: فقلتُ: أَلا عَذَرْتَني عند النبيِّ ﷺ؟ فقال: أيُّ سماءٍ تَظِلُّني، وأيُّ أرضٍ تُقلُّني إذا قلتُ ما لا أعلمُ؟

وروى أيوبُ عن ابنِ أبي مُلَيكةَ قال: سُئِلَ أبو بكرٍ الصِّديقُ ﵁ عن آيةٍ، فقال: أيُّ أرضٍ تُقِلُّني وأيُّ سماءٍ تُظلُّني، وأين أذهبُ، وكيف أصنعُ إذا أنا قلتُ في كتاب اللَّهِ بغيرِ ما أرادَ اللَّهُ به؟

وَذَكَرَ البيهقيُّ من حديثِ مسلمٍ البطينِ عن عَزْرَةَ التميميِّ قال: قال عليُّ بن أبي طالبٍ ﵁: وَا بَرْدَهَا على كبدي، ثلاث مَرَّاتٍ، قالوا: يا أمير المؤمنين، وما ذاك؟ قال: أن يُسْألَ الرجلُ عمَّا لا يعلمُ فيقول: لا أعلمُ.

وذكر- أيضًا- عن عليٍّ ﵁ قال: خَمْسٌ إذا سَافَرَ فيهنَّ رجلٌ إلى اليمن كُنَّ فيه عِوَضًا من سَفَرِهِ: لا يخشى عبدٌ إلا رَبَّه، ولا يخافُ إلا ذَنْبَهُ، ولا يستحيي مَنْ لا يعلمُ أن يتعلَّمَ ولا يستحيي مَنْ يعلم إذا سُئِلَ عمَّا لا يعلم أن يقولَ: اللَّهُ أعلم، والصبرُ من الدينِ بمنزلةِ الرأسِ من الجسدِ.

وقال الزهريُّ عن خالدِ بن أسْلَمَ وهو أخو زيدِ بن أسْلَمَ: خرجنا مع ابن عمر نمشي، فلحقنا أعرابيٌّ فقال: أنتَ عبد اللَّهِ بنُ عمرَ؟ قال؛: نعم، قال: سألتُ عنك فَدُلِلْتُ عليك، فأخبرني: أتَرِثُ العمَّةُ؟ قال: لا أدري. قال: أنت لا تدري؟! قال: نعم. اذهب إلى العلماءِ بالمدينةِ فاسألهم، فلمَّا أدبر قَبَّلَ يديه وقال: نِعِمَّا قال أبو عبد الرحمن، سُئِلَ عمَّا لا يدري فقال: لا أدري.

وقال ابن مسعود: مَنْ كان عنده علمٌ فليقل به، ومَنْ لم يكن عنده علمٌ فليقل: اللَّهُ أعلمُ. فإنَّ اللَّهَ قال لنبيِّه: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦].

وصحَّ عن ابنِ عباسٍ وابنِ مسعودٍ: مَنْ أفتى النَّاسَ في كلِّ ما يسألونه عنه فهو مجنونٌ»[١].

(١) «إعلام الموقعين» لابن القيم (٢/ ١٨٤).

«قال البَراءُ: لقد رأيتُ ثلثَمائةٍ من أصحابِ بدرٍ ما فيهم من أحدٍ إلا وهو يحبُّ أن يكفيَه صاحبُهُ الفتيا.

وقال ابنُ أبي ليلي: أدركتُ عشرين ومائةً من الأنصارِ من أصحابِ رسولِ اللَّهِ ﷺ يُسْأَلُ أحدُهم عن المسألةِ فيردُّها هذا إلى هذا، وهذا إلى هذا حتى ترجعَ إلى الأول، وفي روايةٍ: ما منهم أحدٌ يُحدِّثُ حديثًا أو يُسْأَلُ عنه -وفي روايةٍ: عن شيءٍ- إلا وَدَّ أنَّ أخاه كفاه إيَّاه، ولا يُستفتى في شيءٍ إلا وَدَّ أنَّ أخاه كفاه الفُتيا.

وقال أبو حُصين الأسديُّ: إنَّ أحدَكم لَيُفتي في المسألةِ لو وَرَدَتْ على عمرَ بنِ الخَطَّابِ لَجَمَعَ لها أَهْلَ بَدْرٍ»[1].

وجاء مَنْ بَعْدَ الصحابةِ من العلماءِ الصالحين فساروا على نَهْجِ الحقِّ، وصراطِهِ المستقيمِ، فكانوا أئمةَ الهُدى بحقٍّ، وأصحابَ اتِّبَاعٍ صادقٍ وأمينٍ.

«سُئِلَ القاسمُ بنُ محمَّدِ بنِ أبي بكرٍ عن شيءٍ فقال: لا أُحسنه. فقال السائلُ: إنِّي جئتُ إليك لا أعرفُ غيرَك! فقال القاسمُ: لا تنظر إلى طول لحيتي وكَثْرَةِ النَّاسِ حولي، واللَّه ما أحسنه. فقال شيخٌ من قريشٍ، جالسٌ إلى جنبِهِ: يا بنَ أخي، الْزَمْهَا، فواللَّه ما رأيتك في مجلسٍ أنبل منك اليوم. فقال القاسمُ: واللَّهِ لأنْ يُقطعَ لساني أحبُّ إليَّ من أن أتكلَّمَ بما لا علمَ لي به.

وسألَ رجلٌ مالكَ بنَ أنسٍ عن شيءٍ أيامًا، فقال: إنِّي إنَّما أتكلَّمُ فيما أحتسبُ فيه الخيرَ، ولستُ أُحسنُ مسألتَكَ هذه.

وقال الهيثمُ بن جميلٍ: شَهِدْتُ مالكًا سُئِلَ عن ثمانٍ وأربعينَ مسألةً فقال في اثنتين وثلاثين منها: لا أدري.

وقيل: ربَّما كان يُسْأَلُ عن خمسين مسألةً فلا يُجيب في واحدةٍ منها، وكان يقول: منْ أجابَ في مسألةٍ فينبغي من قبل أن يجيبَ فيها أن يَعْرِضَ نفسَه على الجنَّةِ والنَّارِ،

(١) «صفة الفتوى والمفتي والمستفتي» لابن حمدان الحنبلي، تحقيق الألباني (ص٧).

وكيف يكون خلاصُهُ في الآخرةِ، ثمَّ يُجيبُ فيها.

وسُئِلَ عن مسألةٍ فقال: لا أدري. فقيل له: إنَّها مسألةٌ خفيفةٌ سهلةٌ! فغضب وقال: ليس في العلمِ خفيفٌ، أما سمعتَ قولَ اللَّهِ تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥]. فالعلمُ كُلُّهُ ثقيلٌ وخاصةً ما يُسألُ عنه يومَ القيامةِ.

وقال مالكٌ أيضًا: ما أفتيتُ حتَّى شَهِدَ لي سبعون، أنِّي أَهْلٌ لذلك، وقال: لا ينبغي لرجُلٍ أن يرى نفسَه أهْلًا لشيءٍ حتَّى يسألَ مَنْ كان أعلمَ منه، وما أفتيتُ حتى سألتُ ربيعةَ ويحيى بنَ سعيدٍ فأمراني بذلك ولو نهياني انتهيتُ.

وقال: إذا كان أصحابُ رسولِ اللَّهِ ﷺ تصعبُ عليهم المسائلُ، ولا يجيبُ أحدُهم في مسألةٍ حتى يأخذَ رأي صاحِبِه، مع ما رزُقوا من السَّدادِ والتوفيقِ مع الطهارةِ، فكيف بنا الذين غَطَّت الخطايا والذنوبُ قلوبَنَا؟!

وقيل: كان إذا سُئِلَ عن مسألةٍ كأنَّه واقفٌ بين الجنَّةِ والنَّارِ.

وقال أبو نُعيم: ما رأيتُ عالمًا أكثرَ قولًا: «لا أدري» من مالكِ بن أنسٍ.

وسُئِلَ الشعبيُّ عن شيءٍ فقال: لا أدري. فقيل: ألَا تستحي من قولِك: «لا أدري». وأنتَ فقيهُ أَهْلِ العِراقِ؟! فقال: لكنَّ الملائكةَ لم تستحِ حين قالت: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة: ٣٢].

وقال أبو الذَّيَّالِ: تعلَّم لا أدري، فإنَّك إن قلتَ: لا أدري. علَّموك حتى تدري، وإن قُلتَ: أدري. سألوك حتى لا تدري.

وسُئِلَ الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ عن مسألةٍ فسكتَ، فقيل: ألا تُجيب؟ فقال: حتى أدري: الفضلُ في سكوتي أو في الجوابِ؟!

وقال الأثرمُ: سمعتُ الإمامَ أحمد يُستفتى فيُكْثِرُ أن يقولَ: لا أدري، وذلك فيما عُرفت فيه الأقاويلُ، وقال: مَنْ عَرَّضَ نفسَه للفُتيا فقد عَرَّضَها لأمرٍ عظيمٍ إلا أنَّه قد تُلجئ الضرورةُ.

وقيل له- أي: لأحمدَ رَحِمَهُ اللَّهُ- أيُّهما أفضلُ: الكلامُ أو الإمساكُ؟ فقال: الإمساكُ أحبُّ إليَّ إلا لضرورة.

وكان سعيدُ بن المسيَّبِ لا يكادُ يُفتي فُتيا ولا يقول شيئًا إلا قال: اللَّهُمَّ سلِّمني وسلِّم منِّي.

وقال سحنونُ صاحبُ المدَوَّنَةِ: أشقى النَّاسِ مَنْ بَاعَ آخِرتَهُ بدنياه، وأشقى منه مَنْ باعَ آخرتَهُ بدنيا غيره. ففكرتُ- يقول ابنُ حمدان- فيمَنْ بَاعَ آخرتَهُ بدنيا غيرِهِ، فوجدتُه المفتي يأتيه رجلٌ قد حَنَثَ في امرأتِهِ ورقيقِهِ فيقول له: لا شيءَ عليك. فيذهبُ الحانِثُ فيتمتَّعُ بامرأتِهِ ورقِيقِهِ وقد بَاعَ المفتي دينَهُ بدنيا هذا.

وسأله رجلٌ مسألةً فتردَّدَ إليه فيها ثلاثةَ أيامٍ فقال: وما أصنعُ لك يا خليلي ومسألتُك هذه مُعْضِلَةٌ وفيها أقاويلُ وأنا متحيِّرٌ في ذلك؟! فقال له: وأنتَ أصلحك اللَّهُ لكلِّ مُعْضِلَةٍ. فقال له سحنونُ: هيهات يا بن أخي، ليس بقولِك هذا أبذُلُ لك لحمي ودمي في النَّار.

وكان يُزْرِي على مَنْ يَعْجَلُ في الفتوى، ويذكرُ النهيَ في ذلك عن مُعَلِّميه القدماءِ.

وقال: إنِّي لأُسْألُ عن المسألةِ أعرفُها فما يمنعني من الجوابِ إلا كراهةَ الجرأةِ بعدي على الفتوى. وقيل له: إنَّك تُسأل عن مسألةٍ لو سُئِلَ عنها بعضُ أصحابِكَ أجاب، فتتوقَّفُ فيها. فقال: فتنةُ الجوابِ بالصوابِ أشدُّ من فتنةِ المالِ.

وقال الخليلُ بنُ أحمد: إنَّ الرجُلَ ليُسْألُ عن المسألةِ ويَعْجَلُ في الجوابِ فيصيبُ فأذُمّه، ويُسْألُ عن مسألةٍ فيتثبَّتُ في الجوابِ فيخطئ فأحمده.

وقال بِشْرٌ الحافي: مَنْ أحبَّ أن يُسْألَ فليس بأهلٍ أن يُسأَل.

وقال أبو بكرٍ الخطيب والصيمريُّ: قَلَّ مَنْ حَرَصَ على الفتوى وسابَقَ إليها وثَابَرَ عليها إلا قَلَّ توفيقُه واضطربَ أمْرُهُ، وإذا كان كارهًا لذلك غيرَ مختارٍ له، ما وَجَدَ مندوحةً عنه، وقَدِرَ أن يُحيلَ بالأمرِ فيه إلى غيرِهِ، كانت المعونةُ له من اللَّهِ أكثرَ، والصلاحُ في جوابِهِ وفتياه أغلبَ.

ورأى رجلٌ ربيعةَ بنَ عبدِ الرحمن يبكي فقال: ما يُبكيك؟ فقال: اسْتُفْتي مَنْ لا علمَ له، وظهرَ في الإسلامِ أمرٌ عظيمٌ.

وقال: لَبَعْضُ مَنْ يُفْتِي هاهنا أحقُّ بالسجنِ من السُّرَّاقِ.

قلتُ -أي: ابنُ حمدان الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ- فكيف لو رأى زماننَا وإقدامَ مَنْ لا علمَ عنده على الفُتيا مع قِلَّةِ خبرتِهِ وسُوءِ سيرتِهِ وشُؤْمِ سريرتِهِ، وإنَّما قصدُهُ السُّمْعَةُ والرياءُ ومماثَلَةُ الفضلاءِ والنبلاءِ والمشهورين، والعلماءِ الراسخين، والمتبحِّرينَ السابقين، ومع هذا فهم يُنْهَوْنَ فلا ينتهون، ويُنَبَّهون فلا ينتبهون، قد أُمْلِيَ لهم باعتكافِ الجهَّالِ عليهم، وتركوا ما لهم في ذلك وما عليهم، فمنْ أقدمَ على ما ليس له أَهْلًا من فُتيا أو قضاءٍ أو تدريسٍ أثِمَ، فإنْ أكْثَرَ منه وأصرَّ واستمرَّ فَسَقَ، ولم يحلَّ قبولُ قولِهِ ولا فتياهُ ولا قضائِهِ»[1].

وقال ابنُ الجوزيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «رُوِّينا عن إبراهيمَ النخعيِّ أنَّ رجلًا سأله، فقال: ما وجدتَ مَنْ تَسْأَلُهُ غيري؟!

وعن مالكِ بنِ أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ما أفتيتُ حتَّى سألتُ سبعين شيخًا، هل تَرَوْنَ لي أن أُفْتِيَ؟ فقالوا: نعم. فقيل له: فلو نَهَوْكَ؟ قال: لو نَهَوْني انتهيتُ.

وقال رجلٌ لأحمدَ بنِ حنبلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إنِّي حَلَفْتُ، ولا أدري كيف حَلَفْتُ. قال: ليتك دريتَ كيف حَلَفْتَ، فدريتُ أنا كيف أُفتيك.

وإنَّما كانت هذه سجيَّةَ السَّلَفِ لخشيتهم اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وخوفِهِم منه، ومَنْ نَظَرَ في سيرتهم تأدَّبَ»[2].

«قال القاسمُ: مِنْ إكرامِ الرجلِ نفسَه ألا يقولَ إلا ما أحاطَ به علمُهُ.

وقال: يا أهلَ العراقِ واللَّهِ لا نعلمُ كثيرًا ممَّا تسألوننا عنه، ولأَنْ يعيشَ الرجلُ

---

(١) «صفة الفتوى والمفتي والمستفتي» (ص٧).

(٢) «تلبيس إبليس» لابن الجوزي (ص١٢١).

جاهلًا إلا أن يعلمَ ما فَرَضَ اللَّهُ عليه، خيرٌ له من أن يقولَ على اللَّهِ ورسولِهِ ما لا يعلمُ.

وقال ابنُ وهبٍ: سمعتُ مالكًا يقولُ: العَجَلَةُ في الفتوى نوعٌ من الجهلِ والخرَقِ. قال: وكان يقالُ: التَّأنِّي من اللَّهِ والعَجَلَةُ من الشيطانِ»[١].

وأخرجَ ابنُ عبد البرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ بسندِهِ عن سفيان بن عُيَيْنَةَ قال: أَجْسَرُ النَّاسِ على الفُتيا أقلُّهم علمًا.

وعن أحمدَ بن أبي سليمان قال: سمعتُ سحنون بن سعيد يقول: أجْسَرُ النَّاسِ على الفُتيا أقلُّهم علمًا، يكون عند الرجلِ البابُ الواحدُ من العلمِ فيظن أنَّ الحقَّ كلَّه فيه.

قال سحنونُ: إنِّي لأحفظُ مسائلَ منها ما فيه ثمانيةُ أقوالٍ من ثمانيةِ أئمةٍ من العلماءِ فكيف ينبغي أن أَعْجَلَ بالجوابِ حتَّى أتخيَّرَ؟ فَلِمَ أُلامُ على حَبْسِي الجوابَ؟!»[٢].

ومَنْ حَرَصَ على ما ينفعه في دنياه وآخرتِهِ لم يُقْحِمْ نفسَهُ فيما لا يُحسن وما ليس له بأهلٍ، ومَنْ أَهَمَّهُ قولُ النَّاسِ فيه في هذه الدنيا التي هي ظلٌّ زائِلٌ ووَهْمٌ عابرٌ، فلينظر إلى فضيحتِهِ على رءوسِ الأشهادِ يومَ يجمعُ اللَّهُ النَّاسَ ليومِ النُّحوسِ ويومِ السُّعُودِ، ذلك يومٌ مجموعٌ له النَّاسُ وذلك يومٌ مشهود.

عَنْ مُعَاذِ بنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**مَا مِنْ عَبْدٍ يَقُومُ في الدُّنْيَا مَقَامَ سُمْعَةٍ وَرِيَاءٍ إلا سَمَّعَ اللَّهُ بِهِ على رُءوسِ الخَلائِقِ يَوْمَ القِيَامَةِ**». قال المنذريُّ: «رواه الطبرانيُّ بإسنادٍ حَسَنٍ»[٣]. وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الترغيب والترهيب»[٤].

فمدارُ المسألةِ على هَضْم النَّفْسِ، وإسلام الوجهِ للَّه، وإخلاصِ القصد له، كما قال عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فَمَنْ خَلَصَتْ نِيَّتُهُ في الْحَقِّ وَلَوْ عَلَى نَفْسِهِ؛ كَفَاهُ اللَّهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ،

(١) «إعلام الموقعين» لابن القيم (٢/ ١٨٤)، وقولُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ: (وكان يقال: التأنِّي من اللَّهِ، والعَجَلَةُ من الشيطان)، بصيغة التمريض، بل هو حديثٌ مرفوعٌ رواه أنسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ورواه البيهقي في «السنن الكبرى»، وأبو يعلى في «مسنده»، وهو في «صحيح الجامع» برقم (٣٠٠٨)، وفي «السلسلة الصحيحة» برقم (١٧٩٥).

(٢) «جامع بيان العلم» (٢/ ١٦٥).

(٣) «الترغيب والترهيب» للحافظ المنذري، تعليق الشيخ محمد خليل هراس (١/ ٥٢).

(٤) «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ١١٨).

وَمَنْ تَزَيَّنَ بما ليسَ فيه؛ شَانَهُ اللَّهُ».

قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ في شرحِ كلامِ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

«هذا شقيقُ كلامِ النبوَّةِ، وهو جديرٌ بأن يخرجَ من مِشْكَاةِ المحدَّثِ الْمُلْهَمِ، وهاتان الكلمتان من كنوزِ العلمِ، ومَنْ أَحْسَنَ الإنفاقَ منهما نَفَعَ نفسَه، وانتفعَ غايةَ الانتفاعِ، فأمَّا الكلمةُ الأولى- وهي قولُه: فَمَنْ خَلَصَتْ نِيَّتُهُ في الحقِّ وَلَو عَلى نَفْسِهِ كَفَاهُ اللَّهُ ما بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ- فهي مَنْبَعُ الخيرِ وأصلُهُ.

وأمَّا الثانيةُ -وهي قوله: وَمَنْ تَزَيَّنَ بِمَا لَيْسَ فِيهِ شانَهُ اللَّهُ- فهي أصلُ الشَّرِّ وفَصْلُهُ.

فإنَّ العبدَ إذا خَلُصَتْ نِيَّتُه للَّهِ تعالى وكان قصدُه وهمُّه وعملُه لوجهِه سبحانَه كان اللَّهُ معه، فإنَّه سبحانه مع الذين اتَّقَوْا والذين هم محسنون، ورأسُ التقوى والإحسانُ خُلُوصُ النيَّةِ للَّهِ في إقامةِ الحقِّ، واللَّهُ سبحانه لا غالبَ له، فَمَنْ كان معه فَمَنْ ذا الذي يغلبُهُ أو ينالُهُ بسوء؟ فإن كان اللَّهُ مع العبدِ فَمَنْ يخافُ؟ وإن لم يكن معه فَمَنْ يرجو؟ وبِمَنْ يثق؟ ومَنْ ينصرُهُ مِنْ بعده؟

فإذا قام العبدُ بالحقِّ على غيرِه وعلى نفسه أولًا، وكان قيامُهُ باللَّهِ وللَّهِ لم يقمْ له شيءٌ، ولو كادته السمواتُ والأرضُ والجبالُ لكفاهُ اللَّهُ مَئُونَتَهَا، وجعلَ له فَرَجًا ومخرَجًا، وإنَّما يُؤتَى العبدُ من تفريطِهِ وتقصيرِهِ في هذه الأمورِ الثلاثةِ، أو في اثنين منها، أو في واحدٍ، فَمَنْ كان قيامُهُ في باطلٍ لم يُنصرْ، وإن نُصِرَ نصرًا عارضًا فلا عاقبةَ له وهو مذمومٌ مخذولٌ، وإن قام في حقٍّ، ولكن لم يَقُمْ فيه للَّهِ وإنَّما قامَ لِطَلَبِ المَحْمَدَةِ والشُّكُورِ والجزاءِ من الخلْقِ، والتَّوصُّلُ إلى غَرَضٍ دنيويٍّ كان هو المقصودَ أولًا، والقيامُ في الحقِّ وسيلةٌ إليه، فهذا لم تُضْمَنْ له النُّصْرَةُ، فإنَّ اللَّهَ إنَّما ضَمِنَ النُّصْرَةَ لِمَنْ جاهَدَ في سبيلِهِ، وقَاتَلَ لتكونَ كلمةُ اللَّهِ هي العليا، لا مَنْ كان قيامُهُ لنفسهِ وهواهُ، فإنَّهُ ليس من المتَّقين ولا من المحسنين، وإن نُصِرَ فبحسبِ ما معه من الحقِّ، فإنَّ اللَّهَ لا ينصرُ إلا الحقَّ، وإذا كانت الدولةُ لأهلِ الباطلِ فبحسب ما معهم من الصَّبرِ، والصَّبرُ منصورٌ أبدًا، فإن كان صاحبُهُ مُحِقًّا كان منصورًا له العاقبةُ، وإن كان مبطلًا لم يكن له عاقبةٌ،

وإذا قامَ العبدُ في الحقِّ للَّهِ ولكن قام بنفسِهِ وقوَّتِهِ ولم يقُمْ باللَّهِ مستعينًا به متوكلًا عليه مُفَوِّضًا إليه بَرِيًّا من الحَوْلِ والقوَّةِ إلا به، فله من الخذْلانِ وضعْفِ النُّصْرةِ بحسبِ ما قامَ به من ذلك.

ونُكْتَةُ المسألةِ: أنَّ تجريدَ التَّوحيدَيْنِ في أمرِ اللَّهِ لا يقومُ له شيءٌ ألبتَّةَ، وصاحبُهُ مُؤَيَّدٌ منصورٌ ولو توالت عليه زُمَرُ الأعْداءِ.

والعبدُ إذا عَزَمَ على فِعْلِ أمرٍ فعليه أن يعلمَ أولًا: هل هو طاعةٌ للَّهِ أو لا؟

فإن لم يكن طاعةً فلا يفعله إلا أن يكون مباحًا يستعينُ به على الطاعةِ، وحينئذٍ يصيرُ طاعةً، فإذا بان له أنَّه طاعةٌ فلا يُقدِمُ عليه حتى ينظر هل هو مُعَانٌ عليه أو لا؟ فإن لم يكن مُعَانًا عليه فلا يقدم عليه.. فيذلَّ نفسَه، وإن كان مُعَانًا عليه بقي عليه نظرٌ آخرُ، وهو: أن يأتيَه من بابِهِ، فإن أتاه من غيرِ بابِهِ أضاعَه أو فرَّطَ أو أفسَدَ منه شيئًا، فهذه الأمورُ الثلاثةُ أصلُ سعادةِ العبدِ وهي معنى قولِ العبد: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾. فأسعدُ الخَلْقِ أهلُ العبادةِ والاستعانةِ والهدايةِ إلى المطلوبِ، وأشقاهم مَنْ عُدِمَ الأمورَ الثلاثةَ، ومنهم مَنْ يكون له نصيبٌ من ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ونصيبُهُ من ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ معدومٌ أو ضعيفٌ، فهذا مخذولٌ مَهِينٌ محزونٌ، ومنهم مَنْ يكون نصيبُهُ من ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قويًّا ويكون نصيبُهُ من ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ضعيفًا أو مفقودًا، فهذا له نفوذٌ وتسلُّطٌ وقوَّةٌ، ولكن لا عاقبةَ له، بل عاقبتُهُ أسوأُ عاقبةٍ، ومنهم من يكون له نصيبٌ من ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وَ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ولكن نصيبهُ من الهدايةِ إلى المقصودِ ضعيفٌ جدًّا، كحالِ كثيرٍ من العُبَّادِ والزُّهَّادِ الذين قَلَّ علمُهم بحقائقِ ما بَعَثَ اللَّهُ به رسولَه ﷺ من الهُدَى ودينِ الحقِّ.

وقولُ عمرَ ﷺ: «فمَنْ خَلَصَتْ نِيَّتُهُ في الحقِّ وَلَوْ على نفسِهِ». إشارةٌ إلى أنَّهُ لا يكفي قيامُهُ في الحقِّ للَّهِ إذا كان على غيرِه، حتَّى يكونَ أوَّلَ قائمٍ به على نفسِهِ، فحينئذٍ يُقْبَلُ قيامُهُ به على غيرِهِ، وإلا فكيفَ يُقْبَلُ الحقُّ ممَّنْ أهملَ القيَامَ به على نفسِهِ؟!

وأمَّا قولُه: «وَمَنْ تَزَيَّنَ بِمَا لَيْسَ فِيه شَانَهُ اللَّهُ». لمَّا كان المتَزَيِّنُ بما ليسَ فيهِ ضدَّ

المخلص- فإنَّهُ يُظْهِرُ للنَّاسِ أمرًا وهو في الباطِنِ بخِلافِه- عَامَلَهُ اللَّهُ بنقيضِ قَصْدِهِ، فإنَّ المعاقبةَ بنقِيضِ القصدِ ثابتةٌ شرعًا وقَدرًا، ولَمَّا كان المخلص يُعَجَّلُ له من ثوابِ إخلاصِهِ الحلاوةُ والمحبَّةُ والمهابةُ في قلوبِ النَّاسِ عُجِّلَ للمتزيِّن بما ليسَ فيه من عقوبتِهِ أَنْ شانَهُ اللَّهُ بين النَّاسِ؛ لأنَّه شانَ باطنَهُ عندَ اللَّهِ، وهذا موجِبُ أسماءِ الرَّبِّ الحُسْنَى وصفاتِهِ العُلْيَا، وحكمتِهِ في قضائِهِ وقدَرِهِ.

هذا، ولَمَّا كان مَنْ تَزَيَّنَ للنَّاسِ بما ليس فيهِ من الخشوعِ والدِّينِ والنُّسكِ والعلمِ وغيرِ ذلك قد نصبَ نفْسَه للوازِمِ هذه الأشياءِ ومقتضياتها فلابدَّ أن تُطْلَبَ منه، فإذا لم تُوجد عنده افْتَضَحَ، فيشينُه ذلك من حيثُ ظنَّ أنَّه يزينه، وأيضًا فإنَّه أخفى عن النَّاسِ ما أظهَرَ للَّهِ خِلافَه، فأظهرَ اللَّهُ من عيوبِهِ للنَّاسِ ما أخفاه عنهم، جزاءً له من جنسِ عملِهِ، وكان بعضُ الصَّحابَةِ يقولُ: أعوذُ باللَّهِ من خشوعِ النفاقِ، قالوا: وما خشوعُ النفاقِ؟ قال: أن ترى الجسدَ خاشعًا والقلبَ غيرَ خاشعٍ، وأساسُ النفاقِ وأصلُه هو التزيُّنُ للنَّاسِ بما ليس في الباطِنِ من الإيمانِ.

فعُلِمَ أنَّ هاتين الكلمتين من كلامِ أميرِ المؤمنين مشتقَّتانِ من كلامِ النُّبوَّةِ، وهما من أنفعِ الكلامِ وأشفاهُ للسَّقامِ»[١].

وكما أنَّ التساهلَ في الفتوى ممَّا يَحْرُمُ على المفتي أن يفعلَه، فكذلك يَحْرُمُ على المستفتي أن يستفتيَ مَنْ عُرِفَ بذلك، لأنَّه لا يكون مُتَوَقِّيًا في دينِهِ.

«يَحْرُمُ التساهلُ في الفتوى واستفتاءُ مَنْ عُرِفَ بذلك، إمَّا لتسرُّعِهِ قبل تمامِ النظرِ والفكرِ، أو لظنِّهِ أنَّ الإسراعَ براعةٌ، وتركَهُ عَجْزٌ، فإن سبقَتْ معرفتُه لما سُئِل عنه قبل السؤالِ فأجابَ سريعًا جاز»[٢].

وكان من شأنِ السَّلَفِ ﷺ أن يتبيَّنوا صِدْقَ السائِلِ في مسألتِهِ، وأنَّه لا يسألُ مَتَعَنِّتًا ولا مُغالِطًا، وأنَّه صاحبُ حاجةٍ مُلِحَّةٍ فيما يسألُ عنه، فإن تبيَّنوا ذلك أَفْتَوْا بما يعلمون،

(١) «إعلام الموقعين» لابن القيم (٢/ ١٧٨).
(٢) «صفة الفتوى والمفتي والمستفتي» (ص٣١).

وإلا أحالوا على مَنْ يعلمُ.

«كان أيوبُ إذا سأله السائلُ قال له: أعِدْ، فإن أعادَ السؤالَ كما سألَه عنه أولًا أجابه، وإلا لم يُجِبْهُ، وهذا من فهمِهِ وفِطْنَتِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ، وفي ذلك فوائِدُ عديدةٌ:

منها: أن المسألة تزداد وضوحًا وبيانًا بتفهم السائل.

ومنها: أنَّ السائلَ لعلَّه أهملَ فيها أمرًا يتغيَّرُ به الحكمُ فإذا أعادها ربَّما بيَّنَه له.

ومنها: أنَّ المسئولَ قد يكون ذاهلًا عن السؤالِ أولًا، ثمَّ يحضر ذهنُهُ بعد ذلك.

ومنها: أنَّه ربَّما بانَ له تَعَنُّتُ السائلِ وأنَّه وَضَعَ المسألةَ، فإذا غيَّرَ السؤالَ وزادَ فيه ونقصَ فربَّما ظهر له أنَّ المسألةَ لا حقيقة لها، وأنَّها من الأُغْلُوطاتِ، أو غيرِ الواقعاتِ التي لا يجبُ الجوابُ عنها، فإنَّ الجوابَ بالظَّنِّ إنَّما يجوز عند الضرورةِ، فإن وقعت المسألةُ صارت حالَ ضرورةٍ فيكون التوفيقُ إلى الصوابِ أقربَ»[1].

وأخرجَ الخطيبُ رَحِمَهُ اللَّهُ **بسندِهِ عن مالكٍ** رَحِمَهُ اللَّهُ **عن ابن هرمز** رَحِمَهُ اللَّهُ: «أنَّه كان يأتيه الرجلُ فيسأله عن الشيءِ فيخبره، ثمَّ يبعثُ في أثَرِهِ مَنْ يَرُدُّهُ إليه، فيقول له: إنِّي قد عَجِلْتُ فلا تقبل شيئًا ممَّا قلتُ لك حتَّى ترجعَ إليَّ، قال: وكان قليلًا مَنْ يُفتي من أهلِ المدينةِ، قال مالكٌ: وليس مَنْ يخشى اللَّهَ كمنْ لا يخشاه»[2].

فالواجبُ على أهلِ العلمِ أن يتثبَّتوا في الجوابِ، وألا يُسرعوا في الفتوى إلا أن تضطرهم إليها ضرورةٌ شرعيةٌ، وكانوا على يقينٍ جازمٍ ممَّا يُفْتُونَ بِهِ.

وكلُّ ما مرَّ من ضرورةِ التثبُّتِ في الجوابِ، وعدمِ التسرُّعِ في الفتوى إلا أن تدعُوَ ضرورةٌ شرعيةٌ، يَجِبُ ألا يؤدِّيَ إلى كتمانِ العلمِ، فإنَّ الكتمانَ شديدُ الخطرِ.

وقد نَهَى الشرعُ الكريمُ عن كَتْمِ العلمِ نهيًا أكيدًا، وتوعَّدَ على الكتمانِ مَنْ كَتَمَهُ وعيدًا شديدًا، وفَهِمَ السابقون هذا النهيَ على وَجْهِهِ اللَّيِّقِ به، وأنزلوه منزلتَه التي هي له،

---

(١) «إعلام الموقعين» (٢/ ١٨٧).

(٢) «الفقيه والمتفقه» للخطيب البغدادي (٢/ ١٦٩).

فلم يضعوا عِلْمَهم إلا في موضِعِهِ، ولم يكتموا العلمَ طالِبَ علمٍ جديرًا به.

قال الشيخُ أحمد شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ: «وتبليغُ العلمِ واجبٌ، ولا يجوزُ كتمانُهُ، ولكنَّهم خصَّصوا ذلك بأهلِهِ، وأجازوا كتمانَه عمَّنْ لا يكون مستعدًّا لأخذِهِ وعمَّنْ يُصِرُّ على الخطأِ بعد إخبارِهِ بالصوابِ»[(١)].

وعن عبدِ اللَّهِ بن عمرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قال: «**مَنْ كَتَمَ عِلْمًا أَلْجَمَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِن نَارٍ**»[(٢)].

* * *

(١) «الباعث الحثيث» للشيخ أحمد شاكر (ص١٣٣).

(٢) رواه ابن حبان (٩٦)، والحاكم (١/ ١٠٢)، وقال: «هذا إسنادٌ صحيحٌ من حديثِ المصريين على شرط الشيخين، وليس له عِلَّةٌ»، ووافقه الذهبيُّ، وقال الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على «صحيح ابن حبان» (١/ ٢٥٧): «ونأخذ عليهما - أي: الحاكم والذهبي - أنَّ عبد اللَّه بن عياشٍ لم يخرج له البخاريُّ شيئًا، وإنَّما أخرج له مسلمٌ، فالحديثُ على شرطه وحده، والحديثُ ذكره المنذريُّ في «الترغيب» ونسبه لابن حبان والحاكم فقط، وذكره الهيثميُّ في «مجمع الزوائد» (١/ ١٦٣)، وقال: رواه الطبراني في «الكبير» و«الأوسط» ورجالهُ موثقون.

١٣- التَّحَاسُدُ والحِقْدُ

قال بعضُهم في تعريفِ الحسدِ: إنَّه أذًى يَلْحَقُ بسببِ العلمِ بحُسْنِ حالِ الأغنياءِ.

وقالت طائفةٌ من النَّاسِ: إنَّه تمنِّي زوال النعمةِ عن المحسودِ، وإن لم يَصِرْ للحاسِدِ مثلُها، بخلافِ الغِبْطَةِ فإنَّها تمنِّي مثلَها، من غير حبِّ زوالِهَا عن المغبوطِ.

والتحقيقُ: أنَّ الحسدَ هو البغضُ والكراهةُ لما يراه من حُسْنِ حالِ المحسودِ»[١].

فالحسدُ هو كراهةُ ما أنعم اللَّهُ به على العبد، وليس هو تمنِّي زوالِ نعمةِ اللَّهِ على الغير، بل هو مجرَّدُ أن يكره الإنسانُ ما أنعمَ اللَّهُ به على غيرِهِ، فهذا هو الحسدُ سواء تمنَّى زوالَهُ، أو أن يبقى، ولكنَّه كارهٌ له.

وأمَّا الحقدُ فهو رذيلةٌ بين رذيلتين؛ لأنَّه ثمرةُ الغضبِ، وهو يثمرُ الحسدَ، فاجتمعَ له الشرُّ من أقطارِهِ.

«الغضبُ إذا لَزِمَ كَظْمُهُ لعجزٍ عن التشفِّي في الحالِ، رجعَ إلى الباطنِ واحتقن فيه فصار حقدًا، ومعنى الحقدِ أن يُلْزِمَ قلبَه استثقاله والبغضةَ له، والنِّفَارَ عنه، وأن يدومَ ذلك ويبقى، فالحقدُ ثمرةُ الغضبِ»[٢].

قال تعالى في بيانِ بعضِ أخلاقِ اليهودِ التي تقرَّحَتْ منها قلوبُهم، ونَضِجَتْ بها جوارحُهُم: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ۝٥٤ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ٥٤، ٥٥].

قال القرطبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قولُه تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ﴾ يعني: اليهودَ، ﴿ٱلنَّاسِ﴾ يعني: النبيَّ ﷺ خاصَّةً، عن ابن عباسٍ ومُجاهدٍ وغيرهما: حسدوه على النبوَّةِ، وأصحابَهُ على

(١) «أمراض القلوب وشفاؤها» لابن تيمية (ص١٤).
(٢) «تهذيب إحياء علوم الدين» لعبد السلام هارون (٢/ ٧٦).

الإيمانِ به. وقال قتادةُ: ﴿ٱلنَّاسِ﴾ العربُ، حسدتهُم اليهودُ على النُّبوَّةِ. وقال الضَّحَّاكُ: حسدت اليهودُ قريشًا؛ لأنَّ النبوَّةَ فيهم.

والحسدُ مذمومٌ وصاحبُهُ مغمومٌ، قال الحسنُ: ما رأيتُ ظالِمًا أشبه بمظلومٍ من حاسدٍ، نَفَسٌ دائمٌ، وحزنٌ لازمٌ، وَعَبْرَةٌ لا تَنْفَدُ.

وقال عبدُ اللَّهِ بنُ مسعودٍ: لا تُعَادُوا نِعَمَ اللَّهِ، قيل له: ومَنْ يُعادِي نِعَمَ اللَّهِ؟ قال: الذين يَحْسُدُون النَّاسَ على ما آتاهم اللَّهُ من فضلِهِ، يقولُ اللَّهُ في بعضِ الكُتبِ: الحسودُ عدوٌّ نعمتي، متَسَخِّطٌ لقضائي غيرُ راضٍ بقسمتي.

ولمنصورٍ الفقيه:

أَلَا قُلْ لِمَنْ ظَلَّ لي حَاسِدًا ... أَتَدْرِي عَلَى مَنْ أَسَأْتَ الأدَبْ؟!

أَسَأْتَ عَلَى اللَّهِ في حُكْمِهِ ... إِذَا أَنْتَ لَمْ تَرْضَ لي مَا وَهَبْ

ويُقَالُ: الحسدُ أوَّلُ ذنبٍ عُصِيَ به اللَّهُ في السماءِ، وأَوَّلُ ذنبٍ عُصِيَ به في الأرضِ، فأمَّا في السماءِ فَحَسَدُ إبليس لآدمَ، وأمَّا في الأرضِ فَحَسَدُ قابيلَ لهابيلَ.

ولقد أَحْسَنَ مَنْ قالَ:

اصْبِرْ عَلَى كَيْدِ الْحَسُو ... دِ فَإِنَّ صَبْرَكَ قَاتِلُهْ

فَالنَّارُ تَأْكُلُ بَعْضَهَا ... إِنْ لَم تَجِدْ مَا تَأْكُلُهْ

وقال الشاعرُ:

إِنَّ الْغُرَابَ وَكَانَ يَمْشِي مِشْيَةً ... فِيمَا مَضَى مِنْ سَالِفِ الأَحْوالِ

حَسَدَ الْقَطَاةَ فَرَامَ يَمْشِي مَشْيَهَا ... فَأَصَابَهُ ضَرْبٌ مِنَ التَّعْقَالِ»[1]

*** حَالَاتُ الإنسانِ مَعَ نِعَمِ اللَّهِ على غيرِهِ:**

«لا حسدَ إلا على نعمةٍ، فإذا أنعمَ اللَّهُ على أخيك بنعمةٍ فلك فيها حالتان:

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٢٥٢).

إحداهُمَا: أن تكره تلك النعمةَ وتحبَّ زوالَها، وهذه الحالةُ تسمَّى حسدًا، فالحسدُ حَدُّهُ: كراهةُ النِّعْمَةِ وحبُّ زوالها عن المُنْعَمِ عليه(١).

الحالةُ الثانيةُ: ألَّا تحبَّ زوالَها ولا تكرَه وجودَها ودوامَها، ولكن تشتهي لنفسِكَ مثلها، وهذه تسمَّى غِبْطَةً، وقد تختصُّ باسمِ المنافَسَةِ.

فأمَّا الأوَّلُ فهو حرامٌ بكلِّ حالٍ، إلا نعمةً أصابها فاجرٌ أو كافرٌ وهو يستعينُ بها على تهييجِ الفتنةِ، وإفسادِ ذاتِ الْبيْنِ وإيذاءِ الْخَلْقِ، فلا يضرُّك كراهتُك لها، ومحبَّتُك لزوالِها، فإنَّك لا تحبُّ زوالَها من حيث هي نعمةٌ، بل من حيثُ هي آلةٌ للفسادِ.

وأَمَّا المنافَسَةُ: فليست بحرامٍ، بل هي إمَّا واجبةٌ، وإمَّا مندوبةٌ، وإمَّا مباحةٌ.

والمنافَسَةُ في اللغةِ مشتقَّةٌ من النَّفَاسَةِ، والذي يدلُّ على إباحةِ المنافسةِ قولُه تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]. وقوله تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الحديد: ٢١]. وإنَّما المسابقةُ عند خَوْفِ الْفَوْتِ، وهو كالعبدَيْن يتسابقان إلى خدمةِ مولاهما، يجزعُ كلُّ واحدٍ أن يسبقَه صاحبُهُ فيحظَى عند مولاه بمنزلةٍ لا يحظى هو بها»(٢).

ولكنَّ المنافَسَةَ المشروعةَ والحسدَ المذمومَ قد يشتبهان في نظر الناظرِ لأنَّ الفَرْقَ بينهما دقيقٌ رقيقٌ، وقد يلتبس الأمرُ على طَلَبَةِ العلمِ فيتحاسدون بينهم، وهم يظنُّونها منافَسَةً محمودَةً، وسعيًا مشروعًا، فَلَزِمَ بيانُ ما بين المنافَسَةِ المشروعةِ والحسدِ المذمومِ مِن فَرْقٍ.

* الْفَرْقُ بَيْنَ الْمُنَافَسَةِ والْحَسَدِ:

المنافَسَةُ هي المبادرةُ إلى الكمالِ الذي تشاهدُ من غيرِك فتنافسه فيه حتَّى تلحقَهُ أو تجاوزَهُ، فهي من شَرَفِ النَّفْسِ وعُلُوِّ الهمَّةِ وكِبَرِ القَدْرِ، قال تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

---

(١) تقدَّم أنَّ الحسدَ إنَّما هو مجرَّدُ أن يكره الإنسانُ ما أنعم اللَّهُ به على غيرِه، سواءٌ تمنَّى زوالَهُ، أو أن يبقى، ولكنَّه كارهٌ له.

(٢) «تهذيب إحياء علوم الدين» (٢/ ٧٩).

وأصلُها من الشيءِ النفيسِ الذي تتعلَّقُ به النفوسُ طلبًا ورغبةً، فينافِسُ فيه كلٌّ من النفسين الأخرى، وربَّما فَرِحَتْ إذا شاركتها فيه كما كان أصحابُ رسولِ اللَّهِ ﷺ يتنافسون في الخيرِ ويفرحُ بعضهُم ببعضٍ باشتراكهم فيه، بل يحضُّ بعضُهم بعضًا عليه مع تنافسِهِم فيه، وهي نوعٌ من المسابقةِ، وقد قال تعالى: ﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٤٨]. وقال تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢١]. وكان عمرُ بنُ الخطَّابِ يسابقُ أبا بكرٍ رضي الله عنهما فلم يظفر بسبقِهِ أبدًا، فلمَّا عَلِمَ أنَّه قد استولى على الإمامةِ قال: واللَّهِ لا أُسابقُك إلى شيءٍ أبدًا، وقال: واللَّهِ ما سابقتُه إلى خيرٍ إلا وجدتُه قد سبقني إليه.

والمتنافسان كعبدَيْن بين يدي سيِّدهما يتباريان ويتنافسان في مَرْضَاتِهِ ويتسابقان إلى محابِّه، فسيِّدهما يُعجبُهُ ذلك منهما ويحثُّهما عليه، وكلٌّ منهما يحبُّ الآخَرَ ويُحَرِّضُهُ على مَرْضَاةِ سيِّده.

والحسدُ خُلُقُ نَفْسٍ ذميمةٍ وضيعةٍ ساقطةٍ ليس فيها حرصٌ على الخيرِ، فلعجزها ومهانتها تحسدُ مَنْ يكسبُ الخيرَ والمحامدَ ويفوزُ بها دونها، وتتمنَّى أن لو فاته كسبُها حتَّى يساويها في العدمِ، كما قال تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ [النساء: ٨٩]. وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

فالحسودُ عدوُّ النعمةِ، متَمَنٍّ زوالهَا عن المحسودِ كما زالت عنه هو، والمنافِسُ مسابقُ النعمةِ مُتَمَنٍّ تمامَهَا عليه وعلى مَنْ ينافسه، فهو ينافِسُ غيرَهُ أن يعلوَ عليه ويحبُّ لِحَاقَهُ به أو مجاوزته له في الفضلِ، والحسودُ يحبُّ انحطاطَ غيرِهِ حتَّى يساويَهُ في النقصانِ.

وأكثرُ النفوسِ الفاضلةِ الخيِّرَةِ تنتفعُ بالمنافسةِ، فَمَنْ جعلَ نُصْبَ عينيه شخصًا من أهلِ الفضلِ والسَّبْقِ فنافسه انتفعَ به كثيرًا، فإنَّه يتشبَّه به ويطلبُ اللِّحَاقَ به والتقدُّمَ عليه وهذا لا نذمُّهُ.

وقد يُطلق اسمُ الحسدِ على المنافَسَةِ المحمودةِ كما في الصحيح عن النبيِّ ﷺ قال: «**لا حَسَدَ إلا في اثنتين؛ رَجُلٌ آتاهُ اللَّهُ القرآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آناءَ اللَّيلِ وَأَطْرَافَ النَّهارِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مالًا فسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ في الْحَقِّ**»[1]. فهذا حَسَدُ منافسةٍ وغبطةٍ يدلُّ على عُلُوِّ هِمَّةِ صاحِبِه وكِبَرِ نفسِهِ، وطلبِها للتشبُّه بأهلِ الفضلِ»[2].

قال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قولُه ﷺ: «**لا حَسَدَ**». الحسدُ: تمنِّي زوالِ النِّعْمَةِ عن المُنْعَم عليه، وخَصَّه بعضهم بأن يتمنَّى ذلك لنفسِهِ، والحقُّ أنَّه أعمُّ، وسببُهُ أنَّ الطِّبَاعَ مجبولةٌ على حُبِّ الترفُّهِ على الجنسِ، فإذا رأى لغيرِهِ ما ليس له أحبَّ أن يزولَ ذلك عنه له ليرتفعَ عليه، أو مُطْلَقًا ليساويه.

وصاحبُهُ مذمومٌ إذا عملَ بمقتضى ذلك من تصميمٍ أو قولٍ أو فعلٍ، وينبغي لمَنْ خَطَرَ له ذلك أن يكرهه كما يكره ما وُضِع في طبعِهِ من حُبِّ المنهيَّاتِ.

واستثنوا من ذلك ما إذا كانت النعمةُ لكافرٍ أو فاسقٍ يستعينُ بها على معاصي اللَّهِ تعالى، فهذا حكمُ الحسدِ بحسبِ حقيقتِهِ.

وأمَّا الحسدُ المذكورُ في الحديثِ فهو الغِبْطَةُ وأَطْلَقَ الحسدَ عليها مجازًا، وهي أن يتمنَّى أن يكون له مثلُ ما لغيره من غيرِ أن يزولَ عنه، والحرصُ على هذا يسمَّى منافسةً، فإن كان في الطاعةِ فهو محمودٌ، ومنه: ﴿فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]. وإن كان في المعصيةِ فهو مذمومٌ، ومنه (وَلا تَنافَسُوا) وإن كان في الجائزاتِ فهو مباحٌ.

فكأنَّه قال في الحديث: لا غِبْطَة أعظمُ -أو أفضلُ- من الغِبْطَةِ في هذين الأمرين؛ ووجهُ الحَصْرِ: أنَّ الطاعاتِ إمَّا بدنيةٌ أو ماليةٌ أو كائنةٌ عنهما، وقد أشار إلى البدنيَّةِ بإتيانِ الحكمةِ والقضاء بها وتعليمها، والمرادُ بالقيامِ به: العملُ به مطلقًا، أعمُّ من تلاوتِهِ داخلَ الصلاةِ أو خارجَها ومن تعليمِهِ، والحكم والفتوى بمقتضاه.

ويجوزُ حملُ الحسدِ في الحديثِ على حقيقتِهِ على أنَّ الاستثناءَ منقطعٌ، والتقديرُ

(١) أخرجه البخاري في مواضعَ منها (٧٠٩٠)، ومسلم (٨١٥).
(٢) «الروح» (ص٣٢٩).

نفيُ الحسدِ مطلقًا، لكنْ هاتان الخصلتان محمودتان، ولا حَسَدَ فيهما فلا حَسَدَ أصلًا.

قوله: «**مَالًا**» نكَّره ليشملَ القليلَ والكثيرَ.

قوله: «**فسلطه**» عبر بالتسليط بدلالته على قهر النفس المجبولة على الشحِّ.

قوله: «**هَلَكَتِهِ**» -بفتحِ اللام والكافِ- أي: إهلاكِهِ، وعبَّر بذلك ليدلَّ على أنَّه لا يُبقي منه شيئًا، وكَمَّلَهُ بقوله: «**فِي الحَقِّ**»، أي: في الطاعاتِ ليزيلَ عنه إيهامَ الإسرافِ المذمومِ»[1].

فالغِبطةُ التي تكلَّم عنها العلماءُ- رحمهم اللَّه- هي التي يُسمِّيها بعضُ النَّاسِ تَنَافُسًا، وقد فرَّقَ الإمامُ ابنُ القيمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بينها وبين الحسدِ المذمومِ كما رأيتَ قبلُ.

وقَسَّمَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذَاتَ التقسيمِ فقالَ: «وهو- أي: الحسد- نوعان:

أحدهما: كراهةٌ للنعمةِ عليه مطلقًا، فهذا هو الحسدُ المذمومُ، وإذا أبغضَ ذلك فإنَّه يتألَّمُ ويتأذَّى بوجودِ ما يُبغضه، فيكون ذلك مرضًا في قلبِهِ ويلتذُّ بزوالِ النعمةِ عنه -أي: عن المحسودِ- وإن لم يحصل له نفعٌ بزوالها، لكنَّ نفعَهُ بزوالِ الألمِ الذي كان في نفسِهِ.

والنوعُ الثاني: أن يكره فضْلَ ذلك الشخصِ- أي: المحسودِ- عليه، فيحبَّ أن يكون مثلَه أو أفضلَ منه، فهذا حَسَدٌ، وهو الذي سَمَّوه الغبطةَ، وقد سمَّاه النبيُّ ﷺ حَسَدًا في الحديثِ المتفقِ عليه من روايةِ ابنِ مسعودٍ وابنِ عمرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ قال: «**لا حَسَدَ إلا في اثْنَتَينِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الحِكْمةَ، فَهُوَ يَقْضِي بهَا وَيُعَلِّمُهَا، وَرَجُلٌ آتَاه اللَّهُ مالًا وسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ في الحقِّ**». هذا لفظ ابن مسعودٍ، ولفظ ابن عمر: «**رَجُلٌ آتَاه اللَّهُ القرآنَ، فَهُوَ يقُومُ بِهِ آنَاءَ اللّيلِ والنَّهَارِ، وَرَجلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا، فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ فِي الحَقِّ آنَاءَ اللَّيلِ والنَّهارِ**».

ورواه البخاريُّ من حديثِ أبي هريرةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**لا تَحَاسُدَ إلا**

(١) «فتح الباري» (١/ ٢٠٠).

في اثنتينِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ القرْآنَ، فَهُوَ يتْلُوهُ آنَاءَ اللَيلِ والنَّهَارِ، يَقُولُ: لَوْ أُوتيتُ مِثْلَمَا أُوتيَ هَذَا لَفَعَلتُ كَمَا يَفْعَلُ، ورَجُلٌ آتاهُ اللَّهُ مالًا يُنْفِقهُ في حَقِّهِ، يَقُولُ: لَوْ أُوتِيتُ مِثلَمَا أوتِيَ هَذَا لَفَعَلْتُ كَمَا يَفْعَلُ» .

فهذا الحسدُ الذي نَهَى عنه النبيُّ ﷺ إلا في موضعين، هو الذي سمَّوه غِبْطَةً وهو الذي يُحبُّ مثلَ حالِ الغيرِ ويكره أن يُفَضَّلَ عليه.

فإن قيل: إذن لم سُمِّي حسدًا وإنما أحبَّ أن ينعمَ اللَّهُ عليه؟ قيل: مبدأُ هذا الحبِّ هو نظرُهُ إلى إنعامِهِ على الغير، وكراهتُهُ أن يُفَضَّلَ عليه لولا وجود ذلك الغير لم يحب ذلك، فلما كان مبدأ ذلك كراهته أن يفضل عليه الغيرُ كان حسدًا، لأنَّه كراهةٌ تتبعُها محبَّةٌ، وأمَّا مَنْ أحبَّ أن يُنْعِمَ اللَّهُ عليه مع عدمِ التفاتِهِ إلى أحوالِ النَّاس فهذا ليس عنده من الحسدِ شيءٌ.

ولهذا يُبتلى غالبُ النَّاسِ بهذا القسمِ الثاني، وقد يُسمَّى «المنافسة»، فيتنافسُ الاثنان في الأمرِ المحبوبِ المطلوبِ، كلاهما يطلبُ أن يأخذه، وذلك لكراهيةِ أحدهما أن يتفضَّلَ عليه الآخرُ، كما يكره المستبقان كلٌّ منهما أن يسبقَه الآخرُ.

والتنافسُ ليس مذمومًا مطلقًا، بل هو محمودٌ في الخيرِ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٢- ٢٦]. فأمر المنافِسَ أن ينافِسَ في هذا النعيمِ، لا ينافِسُ في نعيم الدنيا الزائِلِ.

وهذا موافقٌ لحديثِ النبي ﷺ، فإنَّه نهى عن الحسدِ إلا فيمَن أُوتيَ العلمَ، فهو يعملُ به ويعلِّمه، ومَنْ أُوتيَ المالَ، فهو ينفقه.

فأمَّا مَنْ أُوتيَ علمًا ولم يعمل به ولم يعلِّمه، أو أُوتيَ مالًا ولم يُنفقه في طاعةِ اللَّه، فهذا لا يُحسد، ولا يُتمنَّى مثلُ حالِهِ، فإنَّه ليس في خيرٍ يُرْغَبُ فيه، بل هو مُعَرَّضٌ للعذابِ.

ومَنْ وَلِيَ ولايةً فأتاها بعلمٍ وعدلٍ، وأدَّى الأماناتِ إلى أهلها، وحَكَمَ بين النَّاسِ

بالكتابِ والسنَّةِ، فهذا درجتُه عظيمةٌ، لكن هذا في جهادٍ عظيمٍ، كذلك المجاهدُ في سبيل اللَّه أفضلُ من الذي يُنفقُ المالَ، بخلافِ المنفِقِ والمعلِّم فإنَّ هذين ليس لهما في العادةِ عدوٌّ من خارجٍ، فإن قُدِّرَ أنَّ لهما عدوًّا يُجاهدانه فذلك أفضلُ لدرجتهما، وكذلك لم يذكر النبيُّ ﷺ المصلِّي والصائمَ والحاجَّ، لأنَّ هذه الأعمالَ لا يحصلُ منها في العادةِ من نَفْعِ النَّاسِ الذي يعظِّمون به الشخصَ ويسوِّدونه ما يحصلُ بالتعليم والإنفاقِ.

والحسدُ في الأصلِ إنَّما يقعُ لما يحصلُ للغيرِ من السؤدُدِ والرياسةِ، وإلا فالعاملُ لا يُحْسدُ في العادةِ، ولو كان تنعُّمُه بالأكلِ والشربِ والنِّكاحِ أكثرَ من غيره، بخلافِ هذين النوعين فإنَّهما يُحسدان كثيرًا، ولهذا يوجد بين أهلِ العلمِ الذين لهم أتباعٌ من الحسدِ ما لا يُوجَدُ فيمَنْ ليس كذلك، وكذلك فيمَنْ له أتباعٌ بسببِ إنفاقِ مالِهِ، فهذا ينفعُ النَّاسَ بقوتِ القلوبِ وهذا ينفعُهم بقوتِ الأبدانِ، والنَّاسُ كلُّهم محتاجون إلى ما يُصلحهم من هذا وهذا.

ولهذا كان النَّاسُ يُعَظِّمون دارَ العبَّاسِ: كان عبدُ اللَّهِ يُعَلِّمُ النَّاسَ، وأخوه يُطعِمُ النَّاسَ، فكانوا يُعَظِّمون على ذلك.

ورأى معاويةُ النَّاسَ يسألون عبدَ اللَّهِ بن عمر عن المناسِكِ وهو يفتيهم فقال: هذا واللَّهِ الشرفُ، أو نحو ذلك.

هذا، وعمرُ رضي الله عنه نَافَسَ أبا بكرٍ رضي الله عنه الإنفاقَ كما ثبتَ في الصحيح[1] عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نَتَصَدَّقَ، فَوافَقَ ذَلِكَ مَالًا عِنْدي، فَقُلْتُ: الْيَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْمًا، قَالَ: فَجِئْتُ بِنْصْفِ مَالِي، قالَ: فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ؟**» قُلْتُ: مِثْلَهُ، قَال: وأتى أبو بكر بكلِّ مَا عِنْدَهُ فقال له رسول اللَّهِ ﷺ: «**مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ؟**». قَالَ: أَبْقَيْتُ لَهُم اللَّهَ ورسُولَهُ. فَقُلْتُ: لا أُسَابِقُكَ إلى شَيءٍ أبدًا.

---

(١) بل هو في «سنن أبي داود» (١٦٧٨)، وفي «سنن الترمذي» (٣٦٧٥) وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٤١٤)، وقال: صحيحٌ على شرط مسلمٍ، ووافقه الذهبي، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٤٧٦، ٤٨٠، ٥٢٤، ٥٢٧).

وأبو عبيدة بنُ الجرَّاحِ ونحوه منَ الصحابةِ، كانوا سالمين من جميعِ هذه الأمورِ، فكانوا أرفعَ درجةً ممَّنْ عنده منافسةٌ وغِبْطَةٌ وإنْ كان ذلك مباحًا، ولهذا استحقَّ أبو عبيدة رضي الله عنه أن يكون أمينَ هذه الأمَّةِ، فإنَّ المؤتَمَنَ إذا لم يكن في نفسِهِ مزاحمةٌ على شيءٍ ممَّا اؤتُمن عليه كان أحقَّ بالأمانةِ ممَّنْ يخاف مزاحمته، ولهذا يُؤْتَمَنُ على النساءِ والصبيانِ الخصيانُ، ويُؤتَمَن على الولاية الصغرى مَنْ يُعرفُ أنَّه لا يزاحمُ على الكبرى، ويُؤتَمَن على المالِ مَن يُعرفُ أنَّه ليس له غَرَضٌ في أخذِ شيءٍ منه، وإذا اؤتُمِنَ مَنْ فِي نفسِهِ خيانةٌ شُبِّه بالذئب المؤتَمَنِ على الغَنَمِ، فلا يقدرُ أن يُؤديَ الأمانةَ في ذلك، لما في نفسِهِ من الطَّلَبِ لما اؤتُمِنَ عليه.

وقد أثنى اللَّهُ تعالى على الأنصارِ فقال: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] أي: ممَّا أوتيَ إخوانهم المهاجرون، قال المفسِّرون: لا يجدون في صدورِهم حاجةً -أي: حسدًا وغيظًا- ممَّا أُوتيَ المهاجرون، ثمَّ قال بعضُهم: من مالِ الفَيءِ، وقيلَ: من الفضلِ والتقدُّمِ، فهم لا يجدون حاجةً ممَّا أُوتوا من المالِ ولا من الجاهِ، والحسدُ يقعُ على هذا.

وكان بين الأوسِ والخزرجِ منافسةٌ على الدينِ، فكان هؤلاء إذا فعلوا ما يفضَّلون به عند اللَّهِ ورسولِهِ أحبَّ الآخرون أن يفعلوا نظيرَ ذلك؛ فهو منافسةٌ فيما يُقَرِّبهم إلى اللَّهِ كما قال: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

وأمَّا الحسدُ المذمومُ كلُّه فقد قالَ تعالى في حَقِّ اليهودِ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩]؛ ويودُّون: أي يتمنّون: ارتدادَكم حسدًا، فجعل الحسدَ هو الموجبَ لذلك الودِّ، من بعد ما تَبيَّن لهم الحقُّ؛ لأنَّهم لمَّا رأوا أنَّكُم قد حصلَ لكم من النِّعْمَةِ ما حصلَ -بل ما لم يحصل لهم مثله- حسدوكم»[١].

(١) «أمراض القلوب وشفاؤها» لابن تيمية (ص١٤).

*** وهناك تقسيمٌ آخرُ للحسد مبنيٌّ على المدحِ والقدْحِ -أي: على ما يُنْدَبُ إليه منه وما لا يُندبُ- تَقَسَّمَ فيه الحسدُ إلى مراتبَ أربعٍ:**

الأولى: أن يُحِبَّ زوالَ النعمةِ عنه وإن كان ذلك لا ينتقلُ إليه، وهذا غايةُ الخُبْثِ.

الثانية: أن يُحِبَّ زوالَ النعمةِ إليه لرغبتِهِ في تلك النعمةِ، مثل رغبتِهِ في دارٍ حَسَنَةٍ، أو امرأةٍ جميلةٍ، أو ولايةٍ نافذةٍ، أو سَعَةٍ نالها غيرُهُ وهو يحبُّ أن يكونَ له.

الثالثة: ألا يشتهي عينَهَا لنفسِهِ، بل يشتهي مثلَها، فإن عَجَزَ عن مثلِها أحبَّ زوالَها، كي لا يظهرَ التفاوتُ بينهما.

الرابعةُ: أن يشتهي لنفسِهِ مثلَها، فإن لم تحصل فلا يحبُّ زوالَهَا عنه.

وهذا الأخيرُ هو المعفوُّ عنه إن كان في الدنيا، والمندوبُ إليه إن كان في الدينِ، والثالثةُ فيها مذمومٌ وغيرُ مذمومٍ، والثانيةُ أخفُّ من الثالثةِ، والأولى مذمومٌ محضٌ.

قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: «الحاسدُ المبغِضُ للنعمةِ على مَنْ أنعمَ اللَّهُ عليه بها ظالمٌ معتدٍ، والكارهُ لتفضيلِه، المحِبُّ لمماثلتِهِ، منهيٌّ عن ذلك إلا فيما يقرِّبه إلى اللَّهِ، فإذا أحبَّ أن يُعطى مثلَما أُعطي ممَّا يقرِّبُهُ إلى اللَّهِ فهذا لا بأسَ به، وإعراضُ قَلبهِ عن هذا بحيثُ لا ينظرُ إلى حالِ الغيرِ أفضلُ.

ثمَّ هذا العملُ إن عَمِلَ بموجبه صاحبُهُ كان ظالمًا معتديًا مستحقًّا للعقوبة إلا أن يتوبَ، وكان المحسودُ مظلومًا مأمورًا بالصبرِ والتقوى، فيصبرُ على أذى الحاسدِ ويعفو ويصفحُ عنه، كما قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٩].

والمقصودُ: أنَّ الحسدَ مرضٌ من أمراضِ النفسِ، وهو مَرَضٌ غالِبٌ فلا يخلُص منه إلا القليلُ من النَّاسِ، ولهذا يقال: ما خلا جَسَدٌ من حَسَدٍ، ولكنَّ اللئيمَ يبديه، والكريمَ يُخفيه.

وقيل للحسنِ البصري: أيحسُدُ المؤمنُ؟ فقال: ما أنساك إخوةَ يوسفَ لا أبا لك؟! ولكنْ عَمِّهِ في صدرِك فإنَّه لا يضرُّك ما لم تُعَدِّ به يدًا ولسانًا، فَمَنْ وجَدَ في نفسِهِ حسدًا لغيره فعليه أن يستعملَ معه التقوى والصبرَ، فيكرَه ذلك من نفسِهِ.

وكثيرٌ من النَّاسِ الذين عندهم دينٌ لا يعتدون على المحسود فلا يعينون مَنْ ظلمه، ولكنَّهم أيضًا لا يقومون بما يجبُ من حَقِّه، بل إذا ذَمَّه أحدٌ لم يوافقوه على ذَمِّه، ولا يذكرون محامده، وكذلك لو قَدَحَهُ أحدٌ سكتوا، وهؤلاء مدينون في تركِ المأمورِ في حقِّه مفرِّطون في ذلك لا معتدون عليه، وجزاؤُهم أنَّهم يُبخسون حقوقَهم فلا يُنصفون أيضًا في مواضعَ، ولا يُنصرون على مَنْ ظلمهم كما لم ينصروا هذا المحسودَ، وأمَّا مَن اعتدى بقولٍ أو فعلٍ فذلك يُعاقبُ، ومَنْ اتقى اللَّهَ وصَبَرَ فلم يدخل في الظالمين نفعَهُ اللَّه بتقواه»[1].

وأمَّا الحقدُ: فهو رذيلةٌ بين رذيلتين، لأنَّه ثمرةُ الغضبِ، وهو يثمرُ الحسدَ، فاجتمعَ له الشرُّ من أطرافه جميعها.

«واعلم أنَّ الغضبَ إذا لَزِمَ كظمُهُ لعجزٍ عن التشفِّي في الحالِ، رجعَ إلى الباطنِ واحتقن فيه فصار حقدًا، ومعنى الحقدِ أن يُلْزِمَ قلبَه استثقاله والبِغضةَ له، والنِّفارَ عنه، وأن يدومَ ذلك ويبقى، فالحقدُ ثمرةُ الغضبِ.

*** والحقدُ يثمرُ ثمانيةَ أمورٍ:**

الأول: الحسدُ: وهو أن يحملَكَ الحقدُ على أن تتمنى زوالَ النعمةِ عنه، فتغتمَّ بنعمةٍ إذا أصابَهَا، وتُسَرَّ بمصيبةٍ إن نزلت به.

الثاني: أن تزيدَ على إضمار الحسدِ في الباطنِ، فتشمتَ بما أصابه من البلاء.

الثالث: أن تهاجرَه وتصارِمَه -أي: تقاطعه- وتنقطعَ عنه وإن أقبلَ عليك.

الرابع وهو دونه: أن تُعرضَ عنه استصغارًا له.

الخامس: أن تتكلَّمَ فيه بما لا يَحِلُّ من كذبٍ وغِيبةٍ وإفشاءِ سرٍّ وهَتْكِ سِتْرٍ.

---

(١) «أمراض القلوب وشفاؤها» (ص٢١).

السادس: أن تحاكيه استهزاءً به وسخريةً منه.

السابع: إيذاؤُه بالضربِ وما يُؤلم بدنَه.

الثامن: أن تمنعَهُ حقَّه من أداءِ دَينٍ، وَصِلَةِ رَحِمٍ، أو رَدِّ مَظْلِمَةٍ، وكلُّ ذلك حَرامٌ»[١].

*** السَّببُ الَّذِي لأجْلِهِ يَكْثُرُ الْحَسَدُ بَيْنَ الأَمْثَالِ والأَقْرَانِ:**

الحسد يكثرُ بين قومٍ تكثُر بينهم الأسبابُ الداعيةُ إلى الحسدِ.

وهذه الأسبابُ إنَّما تكثرُ بين أقوامٍ تجمعهم روابطُ يجتمعون بسببهَا في مجالسِ المخاطباتِ ويتواردون على الأغراضِ، فإذا خالفَ واحدٌ منهم صاحبَهُ في غَرَضٍ من الأغراضِ نَفَرَ طبعُهُ منه وأبغضَه وثبتَ الحقدُ في قلبِهِ، فعند ذلك يريدُ أن يستحقرَهُ ويتكبَّرَ عليه ويكافِئَهُ- أي: يجازيه- على مخالفتِهِ لغرضِهِ ويكره تمكُّنَهُ من النعمةِ التي توصِّله إلى أغراضِهِ وتترادفُ جملةٌ من هذه الأسبابِ؛ إذ لا رابطةَ بين شخصين في بلدتين متنائيتين فلا يكون بينهما محاسدةٌ.

نعم، إذا تجاورا في مسكنٍ أو سوقٍ أو مدرسةٍ أو مسجدٍ، توارَدَا على مقاصدَ تتناقضُ فيها أغراضُهما، فيثور من التناقضِ التنافرُ والتباغضُ، ومنه تثورُ بقيَّة أسبابِ الحسدِ، ولذلك ترى العالمَ يحسد العالم دون العابدِ، والعابدُ يحسد العابد دون العالم، والتاجرُ يحسدُ التاجرَ، بل الإسكافُ يحسدُ الإسكافَ ولا يحسد البَزَّازَ- بائعَ الثياب- إلا بسببٍ آخر سوى الاجتماعِ في الحرفةِ، ويحسدُ الرَّجُلُ أخاه وابنَ عمِّه أكثرَ ممَّا يحسدُ الأجانبَ، والمرأةُ تحسدُ ضَرَّتَهَا أكثرَ ممَّا تحسدُ أمَّ الزوجِ وابنتَه، ومنشأُ جميعِ ذلك حبُّ الدنيا، فإنَّ الدنيا هي التي تضيقُ على المتزاحمين، وأمَّا الآخرةُ فلا ضيقَ فيها.

فلذلك لا يكون بين علماءِ الدينِ محاسَدةٌ؛ لأنَّ مقصدَهم معرفةُ اللَّهِ تعالى، وهو بحرٌ واسعٌ لا ضيقَ فيه، وغرضُهم المنزلةُ عند اللَّهِ، ولا ضيقَ أيضًا فيما عند اللَّهِ تعالى.

---

(١) «تهذيب إحياء علوم الدين» لعبد السلام هارون (٢/ ٧٦).

نعم إذا قصد العلماءُ بالعلم المالَ والجاه تحاسدوا؛ لأنَّ المالَ أعيانٌ وأجسامٌ إذا وقعت في يدِ واحدٍ خَلَتْ عنها يدُ الآخَرِ[١].

*** بَيَانُ الدَّوَاءِ الَّذِي يَنْفِي مَرَضَ الْحَسَدِ عَنِ الْقَلْبِ:**

الحسدُ من الأمراضِ العظيمةِ للقلوبِ، ولا تُداوى أمراضُ القلوبِ إلا بالعلمِ والعملِ، والعلمُ النافعُ لمرضِ الحسدِ أن تعرفَ تحقيقًا أنَّ الحسدَ ضررٌ عليك في الدنيا والدينِ.

أمَّا كونُه ضررًا عليك في الدين؛ فهو أنَّك بالحسدِ سَخِطْتَ قَضاءَ اللَّهِ تعالى، وكرهتَ نعمتَه التي قسمها بين عبادِهِ، وعَدْلَه الذي أقامَه في مُلكِهِ بخفيِّ حكمتِهِ، فاستنكرتَ ذلك واستبشعتَهُ، وهذه جنايةٌ على حَدَقَةِ التوحيدِ، وقذًى في عينِ الإيمانِ وناهيك بهما جنايةً على الدينِ.

وأمَّا كونُه ضررًا عليك في الدنيا؛ فهو أنَّك تتألَّمُ في الدنيا أو تتعذَّبُ به، ولا تزال في كَمَدٍ وغَمٍّ، إذ أعداؤُك لا يُخليهم اللَّه تعالى عن نِعَمٍ يُفيضها عليهم، فلا تزال تتعذَّبُ بكلِّ نعمةٍ تراها، وتتألَّمُ بكلِّ بليَّةٍ تنصرفُ عنهم، فتبقى مغمومًا محرومًا متشعِّبَ القلبِ ضيِّقَ الصدر قد نزلَ بك ما يشتهيه الأعداءُ لك وتشتهيه لأعدائك، فقد كنتَ تريدُ المحنةَ لعدوِّك فَتَنَجَّزَ في الحالِ محنتُك وغمُّك نقدًا.

فهذه هي الأدويةُ العلميةُ، فمهما تفكَّرَ الإنسانُ فيها بذهن صافٍ وقلبٍ حاضرٍ، انطفأت نارُ الحسدِ من قلبِهِ، وعلم أنَّه مُهْلِكٌ نفسَه ومفرحٌ عدوَّه، ومسخطٌ ربَّه، ومُنَغِّصٌ عيشَه.

وأمَّا العملُ النافعُ فهو أن يحكُمَ الحسدَ، فكلُّ ما يتقاضاه الحسدُ من قولٍ وفعلٍ فينبغي أن يكلِّفَ نفسَه نقيضَه، فإن حَمَلَهُ الحسدُ على القَدْحِ في محسودِهِ كلَّفَ لسانَه المدحَ له، والثناءَ عليه، وإن حَمَلَه على التكبُّرِ عليه ألزمَ نفسَه التواضعَ له والاعتذارَ إليه،

(١) «تهذيب إحياء علوم الدين» (٢/ ٨٢).

وإن بعثَه على كَفِّ الإنعامِ عليه، ألزمَ نفسَه الزيادةَ في الإنعامِ عليه، فمهما فعل ذلك عن تكلُّف وعرفهُ المحسودُ طاب قلبه وأحبَّه، ومهما ظهرَ حبُّه عاد الحاسدُ فأحبَّه، وتولَّدَ من ذلك الموافقةُ التي تقطعُ مادَّةَ الحسدِ، فهذه هي أدويةُ الحسدِ وهي نافعةٌ جدًّا، إلا أنَّها مُرَّةٌ جدًّا على القلوبِ، ولكنَّ النفعَ في الدواءِ الْمُرِّ»[1].

* * *

(١) «تهذيب إحياء علوم الدين» (٢/ ٨٤).

الخاتمة

* **وبعدُ:**

فتلك كانت آفات العلمِ، وما هي في الحقيقةِ آفاتُه، وإنَّما هي آفاتُ الذين يسلكون سبيلَه على غير بصيرةٍ ومن غير جهادٍ للنفسِ وقمْعٍ للشهواتِ.

ولمَّا كان العلماءُ وطَلَبَةُ العلمِ- في حقيقةِ الأمرِ- صفوةَ الصفوةِ من النَّاسِ، كان قليلُ الزَّلَلِ في أخلاقهم كبيرًا عند النَّاسِ، وكانت حركاتُهم وسكناتُهم مُحْصَاةً عليهم- فقد وَجَبَ أن يطهِّروا النفوسَ، لا من أجلِ أن ينتفعوا هم بالعلمِ وكفى، ولكن مِنْ أجل أن ينفعَ اللَّهُ بعلمهم، ويفتحَ لهم قلوبَ خَلْقِهِ، ويكتبَ لهم عنده ثمَّ عند النَّاسِ القبولَ والسدادَ.

أسألُ اللَّهَ العظيمَ، ربَّ العرشِ العظيم، بأسمائِهِ الحسنى، وصفاتِهِ المثلى، أن يُطهِّرني وطَلَبَةَ العلمِ مظهرًا ومخبرًا من كلِّ هذه الآفاتِ، وأن يرزقنا الإخلاصَ والتقوى إنَّه على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

وأسأل اللَّهَ العليَّ الكبيرَ، الحيَّ القيومَ، ذا الجلالِ والإكرامِ، أن يوحِّدَ صفوفَ المسلمين، وأن يُعليَ رايتهم، وأن يجمع شملهم ليكبتوا أعداءَهم، ويدحروا عدوَّهم، وأن يرفع عن أمَّتنا الغُمَّةَ ويكشف عنها الملمَّةَ، وأن يوفِّق العلماءَ وطلابَ العلمِ لبيانِ دينِ الحقِّ للخلقِ، حتى يقوم الناسُ بالعدلِ والقسطِ، ليرتفع عنهم الكربُ والجورُ.

سبحانك اللَّهمَّ وبحمدك، أشهدُ أن لا إله إلا أنتَ، أستغفرك وأتوبُ إليك.

والحمدُ للَّهِ أوَّلًا وآخرًا، وظاهرًا وباطنًا، وصلَّى اللَّه على نبيِّنا محمَّدٍ وأبويه إبراهيم وإسماعيل، وآلِهِ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

وآخرُ دعوانَا أنِ الحمدُ للَّهِ ربِّ العالمين.

وكان الفراغُ بحمدِ اللَّهِ ومنَّتِهِ، وحولِهِ وطولِهِ وقوتِهِ، وجودِهِ وكرمِهِ ورحمتِهِ من هذا

الكتاب تنقيحًا ونظَرًا في يوم الثلاثاء السادس من ربيع الآخر لسنةِ خمسٍ وعشرين وأربعمئةٍ وألف من هجرةِ خير البرية صلى اللَّه عليه وآله وسلم، الموافق للخامس والعشرين من شهر مايو لسنة أربعٍ وألفين من ميلاد عبد اللَّه ورسوله عيسى عليه وعلى نبينَا أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

وكتب أبو عبد اللَّه محمد بن سعيد بن رسلان عفا اللَّه عنه وعن والديه.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

* * *